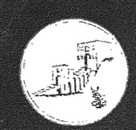
منشورات جامعة حلب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية



تاريخ وادي النيل

(من عصور ماقبل التاريخ إلى عام ٣٣٢ ق.م)

الدكتور
أحمد ارحيم هبو
أستاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

تاريخ وادي النيل

(عصور ماقبل التاريخ على عام ٣٣٢ ق.م)

منشورات جامعة حلب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية



تاريخ وادي النيل

(من عصور ماقبل التاريخ إلى عام ٣٣٢ ق.م)

الدكتور
أحمد إرحيّم هبو
أستاذ في قسم اللغة العربية بكلية الآداب

لطلاب السنة الأولى
قسم التاريخ

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

المحتوى

الموضوع	الصفحة

المقدمة

تحتل مصر ركناً رئيساً من أركان الحضارة الإنسانية، وتحوز مكانة أساسية في تاريخ الشرق القديم وحضارته، لموقعها الجغرافي واتصالها الوثيق بآسية الغربية، ولمنزلتها السامية بين الأمم السباقة إلى تقديم الإنجازات الحضارية. فقد فرض عليها موقعها في شمال شرقي القارة الإفريقية الاحتكاك بشعوب آسية الغربية منذ أقدم العصور التاريخية، وما قبل التاريخية. وكان الاحتكاك سلمياً، كما كان عدائياً وحربياً، بحسب الظروف التاريخية التي كانت منطقة الشرق الأدنى تمر فيها. وكانت مصر تقف موقف الدفاع عن حدودها وأمنها، ولكنها انتقلت عندما صلب عودها، وتوافرت لها الإمكانات إلى الهجوم صوناً لأمانها واستقرارها، ودفاعاً عن نفسها أمام القوى الكبيرة التي هددت كيانها في عصور مختلفة، ولا سيما في عصور الهجرات الشعوبية في الألف الثاني قبل الميلاد التي كانت تكره مصر على الدفاع عن مصالحها، وتضطرها إلى خوض الحروب في كل مرة تظهر فيها قوة جديدة في الشرق الأدنى: من قوة الحوريين ـ الميتانيين، إلى قوة الحثيين، إلى قوة الآشوريين والبابليين، وشعوب البحر، وقوة الفرس، وغيرها من القوى ذات الأثر المحدود، من مثل القبائل البدوية في سيناء، وعلى الحدود الليبية، وفي بلاد النوبة في الجنوب. ولكن مصر كانت صامدة أمام كل التحديات التي كانت تجابهها، وكانت تدافع عن نفسها، أو تهاجم تلك القوى، بجيش واحد، وقائد واحد هو الفرعون المصري بكل صفاته المنطوية على القدسية والهيبة والوقار، والجبروت في بعض الأحيان. وكانت تقف وقفة رجل واحد عندما يحدق الخطر بها، فقد حباها الله نعمة عظيمة وهي وحدة السكان الذين عمروها منذ فجر التاريخ، والذين يشكلون جنساً واحداً من حدود مصر الشمالية عند البحر الأبيض المتوسط، إلى حدودها الجنوبية عند بلاد النوبة.

وقد أدى تجانس شعبها إلى نشوء الملكية فيها، وظهور أسرات ملكية، كانت تتداول السلطة عن طريق الوراثة، والقرابة، أو الاغتصاب من دون إراقة للدماء، باستثناء بعض الحالات في العصور المتأخرة، وفي العصور الانتقالية. وهذه سمة غالبة على سمات الحياة السياسية في مصر، وعلى تطور حضارتها، تختلف فيها عن أوضاع سورية التي كانت تتصارع على أرضها القوى الأخرى، فتجر على أهلها الويلات والدمار والتفرقة، وتقيم فيها شعوب مختلفة الانتماء، فلا يشعر سكانها بوحدة الجنس والولاء، كما يشعر الشعب المصري الواحد، فلم تقم فيها دولة تمكنت من توحيد البلاد تحت سلطة واحدة وطنية. وتختلف في ذلك مصر عن بلاد الرافدين أيضاً التي عرفت شعوباً متعددة، لم تشعر في يوم من أيام تاريخها القديم بوحدتها الوطنية، ولم توفق في الاحتفاظ بوحدتها السياسية على مبدأ وحدة الشعب على الرغم من ظهور الدول القوية فيها في فترات متتالية من تاريخها العريق. وقد كان هذا الشعور بالانتماء إلى الشعب الواحد عاملاً أساسياً من عوامل الدفع السياسي إلى الوحدة الوطنية، وعاملاً رئيساً من العوامل التي أعطت الإبداع الحضاري دفعاً قوياً لا ينضب. فظهرت الأهرامات في أشكالها العجيبة إبداعاً معمارياً متميزاً في الهندسة والضخامة والجمال، ومعها المعابد الكبيرة في الكرنك والأقصر، والمسلات التي تزين أكبر الساحات في العواصم الأوروبية، وغيرها من آيات الفن والإبداع الحضاري، مما سنفرد له كتاباً خاصاً نتحدث فيه عن الحضارة المصرية وحدها.

ويأتي في مقدمة إنجازات مصر الحضارية «الكتابة الهيروغليفية» التي لم يكن لها الفضل في توثيق التاريخ المصري القديم، وتاريخ «مصر الفرعونية»، فحسب، بل فتحت أمامنا المجال واسعاً للاطلاع على مكنونات ذلك التاريخ الطويل الحافل بالأحداث والإنجازات، ذي الصلة الوثيقة بتاريخ جيران مصر في الشرق الأدنى القديم، فرفد المعلومات الصادرة من سورية وآسية الصغرى، وبلاد الرافدين بكَمّ ضخم من الوثائق التاريخية الأساسية، وأكد العلاقة الوثيقة بين تاريخ شعوب المنطقة، وتشابكه في كثير من عصوره، ولا سيما مع تاريخ سورية القديم.

ولهذا كله كان لا بد لنا أن نفرد مؤلفاً عن تاريخ مصر القديم نتحدث فيه عن أحوالها السياسية، وأوضاعها الداخلية، وعن علاقاتها الخارجية، حتى تكتمل الصورة عن تاريخ الشرق القديم الذي يشتمل على تاريخ سورية، وبلاد الرافدين، ومصر، وشبه الجزيرة العربية، وآسية الصغرى وإيران في سياق واحد.

وقد حرصنا في ترتيب مواد الكتاب على الأسلوب نفسه الذي اتبعناه في الكتاب الأول، فجعلناها في بابين: الباب الأول «مدخل إلى تاريخ مصر القديم»، تحدثنا فيه عن «جغرافيتها» في فصل، وعن «مصادر تاريخها» في فصل ثان. ثم تطرقنا إلى «عصور ما قبل التاريخ» في الفصل الثالث.

أما الباب الثاني فموضوعه: «العصور التاريخية»، واستغرقت هذه سبعة فصول كاملة من تاريخ مصر الفرعوني، تم عرض العصور فيها بدءاً من «عصر بداية الأسرات» في الفصل الأول، ثم «عصر الدولة القديمة» في الفصل الثاني، و«عصر الانتقال الأول» في الفصل الثالث، ثم يليه «عصر الدولة الوسطى» في الفصل الرابع، و«عصر الانتقال الثاني» في الفصل الخامس، و«عصر الدولة الحديثة» في الفصل السادس. وختمنا الباب بحديث متواصل عن «العصور المتأخرة» التي تعز عنها المصادر الأساسية من آثار ونقوش كتابية، وبرديات، كالتي توافرت عن العصور السابقة.

وقد زاوجنا بين طريقتي عرض تاريخ مصر القديم اللتين يؤخذ بهما:

- تاريخ مصر من خلال تقسيمه إلى أدوار تاريخية: دور أول: عصر الدولة القديمة، ودور ثان: عصر الدولة الوسطى، ودور ثالث: عصر الدولة الحديثة. ويتخلل هذه الأدوار عصران انتقاليان، وتليهما عصور متأخرة.

- تاريخ مصر من خلال متابعة حكم الأسرات بدءاً من الأسرة الأولى، وانتهاء بالأسرة الثلاثين، على طريقة المؤرخ المصري القديم مانيتون السمنودي.

ولعلنا وُفِّقنا فيما حاولنا تقديمه من مادة مفيدة مكملة لما بدأناه من تاريخ الشرق القديم ونسعىٰ إلى إتمامه بعونه تعالى.

حلب، شتاء ٢٠٠٣

الباب الأول
المدخل الى تاريخ مصر القديم

الفصل الأول
مصر، الموقع والزمان

جغرافية مصر الطبيعية:

أطلق المصريون القدماء على بلدهم اسم كيمة بمعنى «السوداء» أو «السمراء»[١] إشارة إلى لون أرضها الداكن المائل إلى السواد من الطمي الذي كانت تنقله مياه نهر النيل من الجنوب، ثم تلقيه على جانبي النهر في أرضهم بعد انحسارها بانتهاء أيام فيضان النهر السنوي؛ أو ربما من كثافة الزرع على جانبي النهر وعلى امتداد واديه الذي يبدو داكن اللون. كما دعوها باسم التثنية تاوي، أي «الأرضين»: أرض الدلتا (تامحو)، وأرض الصعيد (تاشمعو)، إشارة إلى الفوارق الإقليمية بين الشمال والجنوب، بين الوجه البحري أو مصر السفلى، والوجه القبلي أو مصر العليا. قبيل عصر الوحدة التي توصلوا إليها في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.

وشاع اسم إيجيبتوس Aigyptos الإغريقي الذي كان يطلق على النيل وعلى أرض النيل معاً منذ عصر الشاعر هوميروس أو قبله، ثم اقتصر على مصر وحدها، والذي نشره الرومان بلغتهم اللاتينية من بعد. ولا يزال هذا الاسم شائعاً في اللغات الأوروبية المختلفة.

ولعل ثمة صلة لفظية ما ومعنوية تربط بين هذه التسمية وبين الاسم المصري الذي يرد في الكتابات المصرية القديمة آجبه والذي يعني «أرض الفيضان»[٢].

---

(١) Pierre Monet, Geographie de L'Egypte Ancienne I, Paris, 1957, p.4.

(٢) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ـ مصر والعراق ٣٩.

كما شاع اسم مصر في اللغات السامية، ومنها الآشورية (= مصري، مصر)، وفي رسائل العمارنة التي يعود تاريخها إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد (= ماتو مصري، أي «أرض مصر»)[٣]. ووردت تسمية مصر في نص من أوغاريت ومن فينيقية (= مصرم)، وفي عصر الدولة البابلية الحديثة (الكلدانية)، وكذلك عند المعينيين في اليمن القديم. ودعاها الآراميون مصرين، كما ذكرتها أسفار العهد القديم بلفظة مصر ومصرايم.

وتعني مصر في اللغة العربية «الحد الفاصل بين أرضين». كما تعني «البلد، واحد الأمصار». وتشاركها في هذين المعنيين القريبين من بعضهما اللغات السامية الأخرى، وارتبط بهما معنى «المكان الحصين»، فضلاً عن معنى «البلد المتمدين».

ويعد نهر النيل العامل الطبيعي الرئيس الذي يطغى على مظهر مصر الجغرافي المتميز، كما يعد في الوقت ذاته عاملاً أساسياً في ظهور الحياة الإنسانية في مصر وفي تيسير نشأة الحضارة فيها. ولهذا فإن مصر تنقسم من حيث التضاريس والتكوين الجغرافي إلى عدة أقسام رئيسة:

١ ـ وادي النيل:

ينبع نهر النيل من بورونديي، من قلب القارة الإفريقية حيث يحمل اسم نهر كاجيرا، ثم يجتاز منطقة البحيرات الكبرى (وأشهرها بحيرة فيكتوريا) جنوبي خط الاستواء (في أوغندة) متجهاً إلى الشمال، ومن ثم يدخل أراضي السودان حاملاً اسم النيل الأبيض، فيلتقيه من الغرب رافد عظيم يدعى بحر الغزال. ثم يتابع سيره شمالاً ليصب فيه نهر النيل الأزرق القادم من الجنوب الشرقي، من الهضبة الإثيوبية، عند مدينة الخرطوم، كما يصب فيه بعد ذلك نهر عطبرة الذي ينبع من إثيوبية قبل أن يخترق هضبة بلاد النوبة الصحراوية العليا والسفلى حيث يمر بمناطق صخرية تعترض طريقه، فتتشكل ستة

---

(٣) S.A.B. Mercer, The Tell El - Amarna Tablets, Torento 1939, No 117.


البحر الأبيض المتوسط
(الدلتا)
الوجه البحري
صا الحجر (سايس)
تانيس
وادي النطرون
أونو
(هليوبوليس)
القاهرة
الجيزة
سقارة
دهشور
ميدوم
منف
(ممفيس)
بحيرة قارون (موريس)
الفيوم
جرزة
أهناسية
(هيراكليوبوليس)
الصحراء
الواحات البحرية
شبه جزيرة سيناء
سرابيط الخادم
جبل موسى
الصحراء الشرقية
بني حسن
العمارنة
الأشمونين
(هرموبوليس)
واحة الفرافرة
أسيوط
دير تاسا
البداري
الغربية
(الليبية)
البحر الأحمر
ثيني
أبيدوس
(العرابة المدفونة)
الواحات الداخلة
قنا
دندرة
قفط
نقادة
طيبة
الأقصر
أرمنت
وادي الحمامات
الوجه القبلي
(الصعيد)
الواحات الخارجة
نخن
(هيراكونبوليس)
إدفو
أسوان
فيلة (إلفنتين)
الشلال الأول
وادي العلاقي
كوروسكو
أبو سمبل
بوهن
وادي حلفا
الشلال الثاني
مصور مصر طبيعياً
مع أهم المواقع الأثرية
المواقع الأثرية القديمة
المدن الحديثة
A.H.

شلالات (أو جنادل) تحول دون الإفادة من مياهه في الملاحة النهرية، آخرها الشلال (أو الجندل) الأول الواقع إلى الجنوب من مدينة أسوان حيث تقع جزيرة إلفنتين (جزيرة فيلة)، ويصادف النهر بعد ذلك اتساعاً في واديه يتراوح بين ١٠ ـ ٣٠ كيلومتراً، ويبدأ من أسوان بتكوين سهله الرسوبي الخصب الذي مكّن المصريين من الحياة على أرضه، ومتعهم بخيرات مياهه حتى غدا القول المأثور عن هيرودوت «مصر هبة النيل» والذي سبقه إليه هيكاتيوس الملطي[٤] يعبّر بحق عن أهمية النيل العظمى في حياة مصر وفي تطور حضارتها.

يدخل نهر النيل أراضي مصر إذاً عند الشلال الأول ويتابع سيره باتجاه الشمال حيث يصادف (اليوم) عدداً من الأودية الجافة التي تنحدر إليه من الجانب الأيمن، ومنها وادي الحمامات الذي يلتقي بالنيل عند ثنية قنا. ويتفرع عن النيل عند أسيوط بحر يوسف الذي يسير بمحاذاة نهر النيل باتجاه الشمال حتى يصل إلى منخفض الفيوم. وبعد أن يتجاوز النيل مدينة القاهرة، حيث كانت مدينة منف القديمة تقع إلى الجنوب منها بمسافة قريبة، يتفرع النهر إلى فرعين رئيسين هما: فرع دمياط الذي يتخذ مجراه باتجاه الشمال الشرقي، وفرع رشيد الذي يتجه إلى الشمال الغربي، ليصبا كلاهما في البحر الأبيض المتوسط، بعد أن يحصرا بينهما منطقة الدلتا. ويعتقد عدد من المختصين أن الدلتا كان يتخللها سبعة فروع من النيل في العصور التاريخية القديمة[٥]، ومنها الفرع التانيسي والفرع المنديسي والفرع الكانوبي..

كان المصريون القدماء يسمون النيل الذي ألّهوه حعبي، فقد كانوا يتصورون أن فيه روحاً إلهية خيرة تهب مصر الحياة، وتفيض بالخيرات سنة

---

(٤) محمد بيومي مهران، مصر (في سلسلة مصر والشرق الأدنى القديم ١)، ط ٤، القاهرة، ١٩٨٨، ص٣٠١ ـ ٣٠٢.

(٥) محمد محمود الصياد، الموسوعة المصرية ٣٩٤/١ ـ ٣٩٦؛ عبد الفتاح وهيبة، الجغرافيا التاريخية ٢٤٥ ـ ٢٧٠؛ هيرودوت يتحدث عن مصر ٩٥ ـ ١١٠؛ محمد بيومي مهران، المرجع السابق نفسه.

بعد سنة دونما انقطاع، وتؤمن الغذاء والغلال الوافرة بالمياه التي تتدفق بانتظام طوال أيام السنة، ثم تأتي بالفيضان مرة في كل عام، وهو فيضان ذو فائدة عظيمة، إذ تخلّف المياه بعد انحسارها الطمي (الغرين) الذي يتألف من عناصر معدنية وعضوية تغذي الأرض وتمدها بطبقة من السماد الطبيعي، فتكسب الأراضي التي تغمرها خصوبة كبيرة، بل تعطي تلك المساحات التي تنداح عنها بعد وقت من الزمن يصل إلى حوالى أربعة أشهر هي أشهر فصل الفيضان (آخة في اللغة المصرية القديمة)، تعطيها مظهراً جديداً وطبقة جديدة من التربة البكر التي توفر عند زراعتها محاصيل وغلالاً يتوق إليها الناس وتضمن لهم حياة آمنة ومستقرة.

وقد عرف المصريون القدماء دور النيل، وإلّهه حعبي، فأنشدوا في مديحه القصائد الكثيرة التي مجدوه من خلالها وعددوا فضائله عليهم، فقالوا في بعض منها:

«الحمد لك يا نيل، يا من تخرج من الأرض، وتأتي لتغذي مصر. أنت النور الذي يأتي من الظلام. عندما تفيض يقدمون لك القرابين، وتذبح لك الماشية، ويقام لك احتفال كبير». «أنت الذي يذهب في وقته، الذي يحضر الأكل والمؤن. هو الذي يأتي بين الأفراح، المحبوب جداً، رب الماء الذي يجلب الخضرة، يتفانى الناس في خدمته، وتحترمه الآلهة». «من يرى النيل في فيضانه تدب الرعشة في أوصاله. أما الحقول فتضحك، وأما الشواطىء فتكسوها الخضرة، وتتساقط هبات هذا الإله، وتعلو الفرحة وجوه البشر، أما قلوب الآلهة فتخفق من السعادة»[٦].

كما ربط المصريون القدماء بين النيل وإلهه وبين أوزير صاحب الأسطورة المشهورة فأطلقوا عليه اسم «ونن نفر»، أحد أسماء الإلّه أوزير. وأوجدوا صلة بينه وبين الإله خنوم الذي يوصف بأنه «رب المياه

---

(٦) الموسوعة المصرية ١/٢١٤ - ٢١٦. محمد بيومي مهران، المرجع السابق ٣٠١.

الطاهرة»[٧]. وكانوا يعتقدون أن النيل ينبع من نهر سماوي تنسكب مياهه على شكل شلال عظيم، ثم ينبثق عند جزيرة بيجة الواقعة إلى الجنوب من أسوان، من كهف تتدفق منه فيتشكل النيل بمياهه الغزيرة، وهو المكان الذي يقع فيه الشلال الأول. وقد جعلت هذه العقيدة لدى المصريين مكانة متميزة للجنوب بحيث أصبح يمثل أهم الجهات الأصلية، فكانوا يحددون الجهات الأخرى نسبة إليه، وكانوا إذا ذكروا المدن والأقاليم بدأوا بالمدن والأقاليم الجنوبية، ثم ذكروا تلك التي تليها باتجاه الشمال[٨].

ولكن الفيضان لم يكن دائماً خيراً كله، إذ ما إن يتجاوز حدوده حتى ينقلب إلى أداة دمار وتخريب، فيندفع بمياهه الجارفة ليغرق كل ما يعترض مجراه السريع من منشآت وبيوت، كان المصريون يحرصون على بنائها بعيدة عن مستوى فيضان النهر المعتاد، وعلى المرتفعات القريبة من وادي النهر، اتقاء لخطره وضماناً لأمنهم واستقرارهم. وقد يستغرق انحسار مياهه في هذه الحال مدة أطول تحول دون القيام بعملية البذر في وقتها المحدد، فتضطرب العملية الزراعية بكاملها، ويتأخر وقت الحصاد أو يتعرض الموسم الزراعي كله للفساد. كما إن نقصان مياه النهر عن المستوى العادي وقصور فيضانه عن الوصول إلى الحدود المألوفة كان كافياً لتعريض البلاد إلى شدة قد تصل إلى مستوى المجاعة الحقيقية، إذ كان ذلك يؤدي إلى تدهور الأحوال المعيشية للناس، وإلى تدهور الأمن واضطراب النظام، فتنتشر الجريمة واللصوصية مع القحط والجوع، وتتقلص سلطة الدولة، ويحل الضعف السياسي في البلاد، كما سنرى حين الحديث عن التاريخ السياسي لاحقاً. لذلك كان على المصريين أن تتضافر جهودهم لاتقاء شر الفيضان المدمر، وأن يتكاتفوا في سبيل التقليل من أخطاره. كما كان عليهم التعاون من أجل الانتفاع بخيرات الفيضان وتوصيل مياهه إلى الأراضي المجاورة لمجرى النهر في الأحوال العادية

---

(٧) الموسوعة المصرية ١/٢١٥ ـ ٢١٦.

(٨) G. Maspero, Histoire des Peuples de l'Orient Classique, Paris, 1987, p.16 - 19.

كذلك، عن طريق شق القنوات وصيانتها، واستصلاح الأراضي واستغلالها. وهذا يعني أن النيل الذي كانت حياة مصر ونهضتها الحضارية متوقفة عليه كان في الوقت نفسه باعثاً على إذكاء روح العمل الجماعي في نفوس المصريين لما فيه مصلحة الجميع، وعلى تقوية الشعور لديهم بانتمائهم إلى شعب واحد يملك كل الأسباب لإقامة دولة واحدة، تجمع شملهم، وترعى مصالحهم. ونتيجة لانشغال المصريين بشؤون الفيضان واهتمامهم به كلفت الدولة، منذ قيامها، موظفين متخصصين لمراقبة مياه النهر وقياس ارتفاعها وانخفاضها في أماكن متعددة من الأراضي المصرية، وفي أوقات مختلفة، وإبلاغ المسؤولين في المدن المختلفة مقدار ارتفاع المياه أو انخفاضها ليتخذ الناس احتياطاتهم، إن كانت المستويات سلبية أو إيجابية. ولولا يقظة المصريين القدماء هذه التي كانت عاملاً أساسياً في تفادي الأخطار التي كانت تتمثل في وصول الفيضان إلى مستويات تتجاوز الحدود المعقولة، أو تدني منسوبه إلى الحدود الدنيا؛ ولولا استيعابهم الكامل لدور النيل في حياتهم وتأمين رزقهم وقوتهم اليومي لما صدقت المقولة «مصر هبة النيل»، إذ إن الجهود التي كان المصريون القدماء يبذلونها كانت من جهة ثانية شرطاً أساسياً لتحقيق هذه المقولة، تلك الجهود التي أدت إلى استثمار خيرات النيل في الزراعة على مدار السنة ما خلا فصل الفيضان، والتي تمثلت كذلك في مجال درء أخطار فيضان النهر العظيم عن طريق مراقبته، كما ذكرنا، وتصريف المياه الفائضة وإيصالها إلى المناطق المرتفعة أو البعيدة عن طريق شق القنوات، وبناء شبكة منها تؤمن توزيعاً مفيداً للمياه على طول الأراضي المجاورة للنهر بحيث يتم استغلال المياه بشكل واسع؛ فوجود الخير وحده غير كاف ما لم يعرف المرء طريقة الإفادة منه والتنعم به.

وصف المصريون القدماء نهر النيل بلفظة ايترو ـ عا، أي «النهر العظيم» تقديراً منهم لمنزلته ودوره العظيم في حياتهم. أما تسمية «النيل» المعروفة والتي لم يستخدمها المصريون أنفسهم آنذاك فهي إغريقية الأصل، وتعني «النهر ذو اللون الطيني Neilos» إشارة إلى لون مياهه وهي تحمل الطمي من منابع النيل البعيدة في الجنوب ومن هضبة الحبشة التي ترفده بنهري النيل الأزرق وعطبرة قبل دخوله الأراضي المصرية الأساسية.

ونشير هنا إلى أن نهر النيل يبلغ من الطول ٦٧٠٠ كيلو متر، يقطع منها بين بحيرة فيكتوريا ومصبه في البحر الأبيض المتوسط ٥٦٠٠ كم، ويجري في مصر اليوم مسافة ١٥٠٠ كم منذ دخوله أراضيها عند خط العرض ٢٢ شمالاً. بينما يبلغ طول فرع دمياط الشرقي ٢٤٥ كم، وفرع رشيد الغربي ٢٣٦ كم. فهو من أطول أنهار العالم. إذ ينبع عند خط العرض ٣,٥ جنوباً ويصب عند خط العرض ٣١ شمالاً بعد أن يقطع أكثر من ٣٤ درجة عرضية ويمر في أراض تتميز بمناخات متنوعة وطبيعة مختلفة.

٢ ـ الدلتا:

يتفرع نهر النيل إلى الشمال من مدينة منف القديمة (ممفيس) وعلى مبعدة حوالى عشرين كيلو متراً شمالي القاهرة اليوم إلى فرعين اثنين هما فرع دمياط الذي تجري مياهه باتجاه شمالي شرقي، وفرع رشيد الذي تتخذ مياهه اتجاهاً شمالياً غربياً، ليصبا كلاهما في مياه البحر الأبيض المتوسط. ويحصر الفرعان بينهما أرضاً منبسطة ذات شكل مثلث رأسه في الجنوب يطلق عليها اليونان اسم دلتا نسبة إلى الحرف الرابع في أبجديتهم الذي يتميز بشكله المثلث. ويعتقد أن هذه الأرض السهلية كانت خليجاً بحرياً في العصور الجيولوجية القديمة، ما لبث نهر النيل أن ملأه بالطمي الذي كان يحمله من الجنوب حتى صار أرضاً تتخللها فروع من النيل متعددة بلغ عددها السبعة حتى العصر الروماني، ولم يتبق منها اليوم سوى فرعين اثنين يحصران ما بينهما الدلتا ذات الأرض الخصبة والكثافة السكانية العالية والتي كانت مهداً لنشأة الحضارة المصرية في الوقت ذاته الذي كانت فيه تباشيرها تلوح في الوادي، حيث كانت الطبيعة توفر للإنسان الشروط اللازمة للحياة ولابتكار الوسائل التي تعينه على الارتقاء بها. وكانت الدلتا أوفر في ثروتها وأكثر تنوعاً في مواردها من الصعيد (أو مصر العليا) بسبب اتساع أراضيها الزراعية وتوافر المراعي، وانتشار القنوات والمستنقعات التي تكثر فيها الأسماك. كما كان جوارها للبحر يسهل عليها الاتصال بالعالم الخارجي، ولكنه يجعلها عرضة للغزو الأجنبي أكثر من الصعيد الذي كانت الصحراء تحميه من جهتيه الشرقية والغربية.

الأحمر للقيام بممارسة التجارة. البحرية فيه التي اشتهرت مع بلاد البونت المشهورة في الوثائق والآثار الفنية القديمة، ولا سيما في عهد ملكة مصر المعروفة حاتشبسوت.

٤ ـ الصحراء الغربية:

تشغل الصحراء الغربية (أو الصحراء الليبية كما تسمى أحياناً) المناطق الواقعة إلى الغرب من وادي النيل، وتحوز مساحة تصل إلى ثلثي المساحة التي تحتلها مصر كلها. وهي هضبة متوسطة الارتفاع تكثر فيها المنخفضات التي تصل في سويتها أحياناً إلى تحت سطح البحر. ويبرز منخفض الفيوم من بين مناطقها لتميزه عن طبيعة الصحراء الغربية؛ فهو حوض يرتبط بوادي النهر بفتحة تدعى اللاهون (أو الهوارة) حيث يمر بحر يوسف الذي يتفرع عن نهر النيل عند أسيوط. كما يتميز منخفض الفيوم بتربته الخصبة التي تعتبر امتداداً لتربة الوادي والدلتا من حيث تكونها من الطمي الذي يجلبه النهر من الجنوب، حيث يغذي بحر يوسف الأراضي الزراعية وبركة قارون التي كانت بحيرة أكثر اتساعاً وأعلى منسوباً بالمياه منها اليوم. فكانت الفيوم، وما زالت، واحة كبيرة، ذات أهمية اقتصادية كبرى، كما كانت إقليماً رئيساً من الأقاليم المصرية القديمة التي ظهرت فيها بوادر الحضارة الأولى والتي زاول الإنسان فيها الزراعة منذ العصر الحجري الحديث، كما تشير المكتشفات الأثرية فيها؛ واستطاع أن يدلل على قدرته على التكيف من خلال إقامة الحقول الزراعية على شكل مدرجات تنحدر إلى البحيرة حيث تسمح الطبيعة بذلك. وثمة واحات كبيرة أخرى تنتشر في الصحراء الغربية، منها الواحة البحرية، والواحة الداخلة والواحة الخارجة وتقع كلها إلى الجنوب من الفيوم، وتربطها بالوادي مسالك مطروقة منذ القديم.

٥ـ شبه جزيرة سيناء:

تعد شبه جزيرة سيناء إقليماً من أقاليم مصر منذ ألحقها ملوك مصر الأوائل بالمناطق التي أخضعوها لحكمهم، إذ تشكل درعاً واقيةً لمصر في

الأحمر للقيام بممارسة التجارة. البحرية فيه التي اشتهرت مع بلاد الپونت المشهورة في الوثائق والآثار الفنية القديمة، ولا سيما في عهد ملكة مصر المعروفة حاتشبسوت.

٤ ـ الصحراء الغربية:

تشغل الصحراء الغربية (أو الصحراء الليبية كما تسمى أحياناً) المناطق الواقعة إلى الغرب من وادي النيل، وتحوز مساحة تصل إلى ثلثي المساحة التي تحتلها مصر كلها. وهي هضبة متوسطة الارتفاع تكثر فيها المنخفضات التي تصل في سويتها أحياناً إلى تحت سطح البحر. ويبرز منخفض الفيوم من بين مناطقها لتميزه عن طبيعة الصحراء الغربية؛ فهو حوض يرتبط بوادي النهر بفتحة تدعى اللاهون (أو الهوارة) حيث يمر بحر يوسف الذي يتفرع عن نهر النيل عند أسيوط. كما يتميز منخفض الفيوم بتربته الخصبة التي تعتبر امتداداً لتربة الوادي والدلتا من حيث تكونها من الطمي الذي يجلبه النهر من الجنوب، حيث يغذي بحر يوسف الأراضي الزراعية وبركة قارون التي كانت بحيرة أكثر اتساعاً وأعلى منسوباً بالمياه منها اليوم. فكانت الفيوم، وما زالت، واحة كبيرة، ذات أهمية اقتصادية كبرى، كما كانت إقليماً رئيساً من الأقاليم المصرية القديمة التي ظهرت فيها بوادر الحضارة الأولى والتي زاول الإنسان فيها الزراعة منذ العصر الحجري الحديث، كما تشير المكتشفات الأثرية فيها؛ واستطاع أن يدلل على قدرته على التكيف من خلال إقامة الحقول الزراعية على شكل مدرجات تنحدر إلى البحيرة حيث تسمح الطبيعة بذلك. وثمة واحات كبيرة أخرى تنتشر في الصحراء الغربية، منها الواحة البحرية، والواحة الداخلة والواحة الخارجة وتقع كلها إلى الجنوب من الفيوم، وتربطها بالوادي مسالك مطروقة منذ القديم.

٥ـ شبه جزيرة سيناء:

تعد شبه جزيرة سيناء إقليماً من أقاليم مصر منذ ألحقها ملوك مصر الأوائل بالمناطق التي أخضعوها لحكمهم، إذ تشكل درعاً واقيةً لمصر في

حدودها الشمالية الشرقية التي تربطها براً بجيرانها الآسيويين في سورية وشمالي شبه الجزيرة العربية. وشبه جزيرة سيناء هضبة ذات شكل مثلث رأسه في الجنوب، يحدها من الشرق خليج العقبة ومن الغرب خليج السويس وبعض البحيرات الصغيرة، ومن الشمال يطل عليها البحر الأبيض المتوسط. وتتدرج المنطقة في الارتفاع من الجنوب حيث تقوم الجبال وتنتشر الوديان إلى الشمال حيث تسمى المنطقة الوسطى منها هضبة التيه (أو صحراء التيه). أما المنطقة الشمالية الموازية لساحل البحر فتنتشر فيها الرمال التي تختزن مياه الأمطار الشتوية، وتسير فيها الطريق الرئيسة القديمة التي كانت تسلكها القوافل التجارية وتستخدمها جيوش الغزاة، أو الجيوش المصرية في حملاتها التوسعية على سورية، ولا سيما في عصر الدولة الحديثة. وقد تنبه ملوك عصر الدولة الوسطى إلى أهمية شبه جزيرة سيناء في الدفاع عن مصر فأقاموا فيها الحاميات العسكرية والتحصينات الدفاعية، كما تنبه ملوك مصر إلى أهميتها الاقتصادية من قبل فأقاموا في بعض من مناطقها مناجم لاستخراج المعادن والأحجار الكريمة، ولا سيما النحاس والفيروز.

بيئة وادي النيل، النبات والحيوان:

اعتمد المصريون القدماء على نهر النيل في ري الأراضي الزراعية اعتماداً كلياً إلى درجة أن المقولة المشهورة التي تجعل «مصر هبة النيل» إنما تؤكد حقيقة واقع مصر البيئي والمناخي. فالأراضي الصحراوية التي تشكل القسم الأعظم من وادي النيل الأدنى حيث نشأت الحضارة والمدنية، وقامت الدولة بمؤسساتها وتنظيماتها، لم تكن لتسمح بتطور الإنسان أو تهيىء له الشروط الأساسية للحياة المنظمة التي تستدعي تأمين الغذاء الكافي النباتي منه والحيواني. ولكن توافر الماء دونما انقطاع عن طريق مياه نهر النيل المتدفقة بانتظام، وبكميات متساوية طوال العام، وفيضان مياهه المنتظم الذي كان يجلب الطمي النافع للأرض هو الذي هيأ أسباب الحياة الآمنة اللازمة للإنسان والحيوان معاً في مصر، ووفر لهما البيئة المناسبة والصالحة للاستقرار والاستمرار. أما الأمطار في مصر كمورد مائي ضروري للحياة فكان دورها ثانوياً لقلة هطولاتها وعدم

كفايتها، وهي على قلتها تتناقص كميتها من الشمال إلى الجنوب والشرق.

ظهرت في وادي النيل الأدنى نباتات متميزة منذ القديم من مثل نبات البردي والقصب وأشجار النخيل والأثل والجميز (التين البري). وقد أفاد الإنسان من هذه النباتات الطبيعية في بداية حياته فائدة محدودة. إلا أنه عرف فائدة البردي في إقامة الأكواخ في العهود الأولى، وفي صناعة الحصير، ثم ما لبث أن استخلص منه الأوراق التي صنع منها اللفائف، وجهزها لتكون أول ما استخدم الإنسان من أصناف الورق للكتابة عندما توصل الإنسان المصري القديم إلى اختراع الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية) بأشكالها التصويرية. كما أفاد من جذوع أشجار النخيل والأثل والجميز في صناعة القوارب، واستخدم خشبها في عمليات البناء وفي صناعة الأدوات المنزلية والزراعية والمهنية الأخرى إلى أن حلت محلها أنواع أخرى من الأخشاب المستوردة بعد انفتاح مصر على العالم الخارجي واتصالها التجاري بجيرانها في الجنوب وفي الشمال الشرقي حيث اشتهرت جبال لبنان بخشب الأرز والصنوبر والسنديان، فسعت حكومات مصر المتتالية، كما سعت حكومات دول بلاد الرافدين للحصول عليه. لكن هذه الأنواع من النباتات التي كانت تنمو حرة في الطبيعة كانت أقل أهمية وأثراً في حياة الإنسان من النباتات التي استنبتها الإنسان المصري القديم، وانتقل بها من مرحلة الإنبات الطبيعي إلى مرحلة الاستنبات المصطنع. ويأتي في مقدمة هذه النباتات القمح والشعير اللذان يُعَدّان أقدم نباتات الحبوب المزروعة في مصر وفي وادي النيل الأدنى عموماً. ويعتقد أن الشعير البري كان ينمو في شمال شرقي إفريقية، ولا سيما في هضبة الحبشة، حيث لا تزال بعض فصائله تنمو هناك، ثم توصل الإنسان إلى استنباته وإكثاره في العصر الحجري الحديث، كما حدث في سورية وفي بلاد الرافدين، فيما يدعى بثورة العصر الحجري الحديث (النيوليتي)، حين ابتكر الإنسان العملية الزراعية وانتقل بها من عصر الالتقاط وجمع النباتات الغذائية المتوافرة في الطبيعة إلى عصر إنتاج الغذاء[١١].

---

(١١) انظر كتابنا: تاريخ الشرق القديم ١، سورية ص٥٣ - ٥٦.

ولحق استنبات الشعير زراعة القمح الذي ظهرت آثار زراعته الأولى في مصر السفلى وفي مصر العليا معاً. ويحتمل أن حبوب القمح وصلت متأخرة عن الشعير لأنها كانت غير معروفة في المنطقة، ولم يعثر على أصناف برية منها قبل استنباتها في مصر، وإنما وصلتها عن طريق جنوبي سورية حيث كان موطنها الأصلي كما كان جنوب غربي آسية كذلك. ويعتقد أن العملية الزراعية في مصر بكاملها جاءت متأخرة عن العملية الزراعية التي توصل إليها الإنسان في جنوب غربي آسية، في مناطق الهلال الخصيب خصوصاً، إذ يقدر الباحثون أن هذه العملية عُرِفَت في الألف الثامن قبل الميلاد، وانتشرت في غربي آسية في الألف السابع حيث ظهرت أنواع أخرى من الحبوب غير القمح والشعير، ومنها الحمص والعدس، ثم نبات الكتان؛ ثم وصلت زراعة القمح المحسن من فلسطين إلى مصر في الألف السابع قبل الميلاد[١٢].

وتطورت الثروة النباتية في وادي النيل الأدنى بعد ابتكار الزراعة، إذ توصل المصريون القدماء إلى استنبات أنواع متعددة من النباتات، كما أدخلوا كثيراً من النباتات من خارج البلاد وساعدهم على ذلك اعتدال المناخ الذي هيأ الشروط اللازمة لزراعة النباتات الصالحة للنمو في ذلك المناخ من أشجار الفاكهة، إضافة إلى أنواع من الحبوب والخضراوات كالذرة والعدس والحمص، والكرمة والزيتون والتين، وغيرها من أنواع النباتات التي كانوا يضيفون إلى أصنافها كلما اتسعت اتصالاتهم بشعوب الدول المجاورة وتعرّفوا على نباتات غير مألوفة لديهم.

وكانت الأعشاب البرية تنمو في وادي النيل وتكسو وديان المرتفعات الشرقية وسواحل البحر الأبيض المتوسط وأراضي الدلتا وتقدم غذاء للحيوانات البرية من أغنام وأبقار وحمير وغزلان، وخنازير، إضافة إلى وجود أنواع من الحيوانات المفترسة كالأسود والفهود في أحراج النيل الطبيعية وفي

(١٢) الجديد حول الشرق القديم ٦٠؛ سليمان حزين، البيئة والإنسان والحضارة في وادي النيل الأدنى (في كتاب: تاريخ الحضارة المصرية القديمة ١، ص٢٥).

الجبال، كما كانت تعيش أفراس البحر والتماسيح والأسماك والطيور المائية حيثما كان النيل يجري وتتفرع عنه البرك والمستنقعات ذات المياه الراكدة وحيث ينمو القصب والبردي وتعيش الأسماك وتتكاثر. وقد صور المصريون القدماء تلك الحيوانات منذ ما قبل التاريخ، وظلت صور هذه المناظر الطبيعية مطبوعة في أذهان المصريين يتوارثونها جيلاً بعد جيل؛ ثم أضافوا إليها أنواعاً أخرى من الحيوانات التي استؤنست في مناطق أخرى خارج حدود مصر من مثل البقر الإفريقي، والجاموس الأسيوي، والجمل الذي ظهرت بعض الرسوم التي تشير إلى وجوده في مصر في عصر ما قبل الأسرات، وتأكد وجوده في عصر الأسرة الثالثة، ثم الحصان الذي دخل مصر وعرف استخدامه فعلياً زمن الهكسوس حوالى القرن السابع عشر قبل الميلاد[١٣].

---

(١٣) المصدر السابق ٢٧.

الفصل الثاني
مصادر تاريخ مصر القديم

يعتمد الباحث في تاريخ الشرق القديم على مصادر محدودة لرسم صورة أولية عن العصر الذي يدرسه، ويحاول أن يقدم ملامحه العامة. وتتمثل هذه المصادر في الآثار التي تم الكشف عنها في المقام الأول، وهي ما خلفه الأولون من عمارة وبناء كالمعابد والقصور والبيوت والتماثيل، والمقابر، والأدوات المختلفة التي كان يستعين بها الإنسان في قضاء حاجاته اليومية، ونقوش تصويرية وكتابية. وهي مصادر أساسية موثوقة لصلتها المباشرة بالعصر الذي تعود إليه، فقد خلفها أهلها عن قصد أو من دون قصد، فغدت شاهداً رئيساً على تاريخ الإنسان وإنجازاته الحضارية وأحداثه المعاصرة التي جرت آنئذ.

وثمة مصادر ثانوية يستعين بها الباحث لإكمال صورة العصر الذي يبحث عن شواهد لفهم أوضاعه التاريخية المختلفة تتمثل في الآثار التي يعثر عليها في مناطق الشعوب المجاورة، أصلها من البلد الذي تتم دراسته؛ وكتابات ذات علاقة بهذا البلد تشتمل على معلومات تعين الباحث على توضيح موضوع البحث. ونذكر نوعاً ثالثاً من المصادر التي تتمثل في مؤلفات المؤرخين والرحّالة الذين وصلوا إلى ذلك البلد بأنفسهم أو سمعوا عنه بوساطة كتب الآخرين ورواياتهم. ويلحق بهذا النوع من المصادر الكتب الدينية التي تتحدث عن بعض الحوادث التاريخية بدافع ديني صرف كما يتضح ذلك من القرآن الكريم، أو لغرض ديني وتاريخي في آن واحد كما نجد في أسفار العهد القديم التي تتحدث عن تاريخ بني إسرائيل في مصر وفلسطين.

أما مصادر التاريخ المصري القديم الذي نحدد بدايته بظهور الدولة وقيام الملكية في عصر بداية الأسرات في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد (حوالى

٣٢٠٠ ق.م.)، ونجعل نهايته تاريخ دخول الإسكندر المقدوني مصر في عام ٣٣٢ ق.م. فيما يتصل بموضوع كتابنا هذا فهي على وجه الخصوص:

أ ـ الآثار المصرية القديمة:

خلف المصريون القدماء آثاراً متنوعة الأشكال تعود إلى عصور مختلفة من تاريخ حضارتهم الطويل، تتضاءل بجانبها آثار أي بلد آخر في وفرتها وفي تعدد أنواعها، وتتميز بضخامتها اللافتة وبوجود الأهرامات والمسلات خصوصاً في الوقت الذي لم يعرف التاريخ مثيلاً لها في عصرها. ومرد تلك الوفرة إلى عقيدة المصريين الدينية التي حملتهم على الاهتمام بحياتهم الأخرى بعد مماتهم، فقضت بأن يتزودوا لحياتهم التالية الأبدية بكل ما يملكون، وأن يهيئوا لأنفسهم مساكن مثالية لإقامتهم في دار البقاء والخلود، وإلى أن المصريين القدماء كانوا مولعين بالفنون والصناعة والعمارة، ومتقدمين فيها؛ ولكن السبب الحقيقي لعثور الباحثين على تلك الثروة الأثرية الضخمة وبقائها إلى اليوم هو مناخ مصر الجاف الذي ساعد على حفظها إلى حد كبير، إذ إن معظمها، إن لم تكن كلها، صادرة عن الصعيد حيث يسود المناخ الجاف، وتوجد التربة اليابسة، بينما لم تقدم الدلتا إلا القليل من الآثار لأن أرضها زراعية مشبعة بالماء، وجوها رطب، وهذا كله يؤثر في الآثار المتنوعة، فيشوهها ويتلفها، إن لم تكن مصنوعة من مواد مقاومة لعوامل الرطوبة الشديدة كالحجارة الصلبة والمعادن التي لا تتفاعل بالماء، وتقدر على مغالبة عوادي الزمن.

وتشتمل الآثار المصرية القديمة على الكثير من الآثار العمرانية المنتشرة على طول وادي نهر النيل، ولا سيما في مواقع حواضر مصر القديمة ومدنها وعواصم أقاليمها، وتبرز من بينها الأهرامات، كما ذكرنا، في المواقع القريبة من القاهرة اليوم، حيث كانت تقوم بالقرب منها مدينة منف (ممفيس)، وإلى الجنوب منها، وهي مناطق الجيزة وسقارة ودهشور على الجانب الأيسر من الوادي، ويعود تاريخ بنائها إلى عصر الدولة القديمة، زمن الملوك زوسر، وسنفرو، وخوفو، وخفرع، ومنكاورع، وهم من ملوك الأسرة الثالثة

والرابعة، واشتهرت هذه الأخيرة بأهراماتها الضخمة والرائعة التي يأتي على رأسها هرم خوفو. كما تنتشر المعابد الخاصة بالآلهة والمعابد الجنائزية الخاصة بالملوك وكبار أفراد الدولة في مختلف البقاع المصرية من شمال البلاد إلى جنوبها، وتبرز من بينها مواقع معمارية ضخمة في الجنوب حيث كانت تقوم العاصمة طيبة، وتأتي في مقدمتها مجموعة الكرنك التي بنى المصريون أقسامها خلال عشرين قرناً، إذ كان الملوك يضيفون كل في عصره ما يراه مناسباً لعظمته من أجزائه يلحقها بمعبد آمون الأساسي.

ولسوف نأتي على ذكر أهم الآثار المصرية الأخرى عند الحديث عن العصور التاريخية المتتابعة في الفصول التالية، وبحسب سياقها التاريخي.

تعرضت الآثار المصرية في بداية الكشف عنها في النصف الأول من القرن التاسع عشر للنهب والتخريب، إذ كان الحفارون، كما نسميهم تمييزاً لهم عن المنقبين الأصوليين، لا يعبأون بأهمية اللقى وقيمتها العلمية، ولا يقدرون فائدة العناية بها والحرص على سلامتها من التهديم والتشويه في أثناء العثور عليها وفي عملية نقلها، إن كانت من الآثار القابلة للنقل، بل كان همهم كله ينصرف إلى الوصول إلى التحف الغالية، أو الكنوز التي كانوا يتوقعون وجودها فتتهشم الآثار المنقولة وغير المنقولة معاً، متبعين طرقاً بدائية وعشوائية في الحفر والبحث عن تلك الآثار، كما كانوا يستخدمون أدوات عادية للحفر فتنكسر القطع واللقى الأثرية إن كانت مصنوعة من مادة قابلة للكسر. وكان الأثرياء في البلاد الأوروبية خصوصاً يتوقون إلى الحصول على الآثار الشرقية واقتنائها لتزيين مساكنهم، كما كانت المتاحف عندهم حريصة على إغناء مقتنياتها لجلب الزوار واكتساب الشهرة، فازداد اهتمام تجار الآثار بالوصول إلى المزيد من المواد الأثرية والتحف لإشباع رغبة الباحثين عن التحف الشرقية وتملكها مهما كانت الوسيلة.

وقد يسرت الحملة الفرنسية على مصر في عام ١٧٩٨م عمل تجار الآثار، إذ فتحت للأجانب أبواب مصر بعد أن كانت موصدة أمامهم أيام سيطرة العثمانيين، ولم يقل انفتاح مصر على العالم الخارجي من بعد زمن محمد

علي (١٨٠٥ ـ ١٨٤٩م)، فتسربت كنوز مصرية كثيرة إلى المتاحف الأوروبية وإلى أثرياء الأوروبيين. ولم يقتصر نقل الآثار المصرية إلى أوروبة على القطع الصغيرة بل تعداها إلى نقل المسلات التي وجدت طريقها إلى ساحات أكثر العواصم الأوروبية في لندن وباريس وروما وغيرها، حتى وصلت إحداها إلى نيويورك حيث تنتصب مسلة الملك تحوتمس الثالث.

ثم ما لبث العلماء أن أدلوا بدلوهم، وبدأوا يتخذون مواقعهم الصحيحة في عملية التنقيب العلمي عن الآثار، واتباع الأساليب العلمية الصحيحة في الكشف عنها، ثم في دراستها وهو الجانب الأهم، والهدف الأسمى في العملية كلها، إذ إن العثور على الآثار وسيلة للتوصل من خلال دراستها إلى معلومات تاريخية موثقة عن العصور المختلفة التي تعود إليها، أو إغناء المعلومات المتوافرة عنها

وقام عدد من العلماء بجهود فردية في سبيل الكشف عن الآثار المصرية المدفونة، ومنهم جون ج. ويلكنسون الإنكليزي الذي كشف عام ١٨٢٠ عن عدة مقابر في تل العمارنة حيث كانت تقوم عاصمة أخناتون المسماة أخيتاتون، وتبعه شامپليون بصحبة روسيلليني الإيطالي في عام ١٨٢٨ اللذان وصلا بلاد النوبة وقدما مجموعة من الرسوم نشرت في مجلدات من الحجم الكبير في مدينة روما بعد رحلتهما بسنوات قليلة. ثم تلاهما العالم الألماني كارل ريتشارد ليپسيوس Lepsius في منتصف القرن التاسع عشر الذي نشر اثني عشر مجلداً ضخماً عن الآثار المصرية التي زارها إضافة إلى الآثار الإثيوبية التي قيض له مشاهدتها. كما سعى الإنكليزي روبرت هاي وجيمس برنتون بالتعاون مع ويلكنسون إلى إنجاز جزازات للنقوش المصرية ولوحات ملونة مطابقة للأصول غدت ذات قيمة كبيرة اليوم لأن كثيراً من أصولها قد أصابه التلف أو البلى.

ولم تقصر الحكومة المصرية فتنبهت إلى أهمية الكشف عن الآثار والحفاظ عليها، فأنشأت إدارة للآثار ومتحفاً لها مؤقتاً حتى تسلم الإدارة العالم الفرنسي أوجست ف. ماربيت الذي أقام متحف بولاق في عام ١٨٥٩، إلى أن أنشىء المتحف المصري بميدان التحرير في عام ١٩٠٢. وقام ماربيت نفسه بالتنقيب

عن الآثار، ولا سيما في منطقة سقارة. ثم تولى العالم الفرنسي جاستون ماسپرو من بعده إدارة مصلحة الآثار، فسمح للبعثات العلمية الأجنبية بالتنقيب عن الآثار، ونشأت الجمعيات العلمية الأثرية، وبدأ عصر البحوث العلمية المنظمة، إذ ظهر عدد من العلماء الباحثين المختصين في علم الدراسات المصرية القديمة Egyptology الذي انتشرت معاهده في جامعات أوروبية وأجنبية أخرى كثيرة إضافة إلى مصر نفسها. وقد أسهم ذلك في نشر الكثير من الدراسات الأثرية، التي ظهرت في عدد كبير من المعاهد العلمية المتخصصة. ولم يتوان الأمريكان عن دخول حقل الدراسات المصرية القديمة، إذ قام متحف متروپوليتان للفن في نيويورك بنشر دراسات متميزة عن مقابر طيبة بمبادرة من العالمة الإنكليزية ديفز؛ كما قام معهد الدراسات الشرقية في شيكاغو بمهمة مشابهة، وهو المعهد نفسه الذي قام بتأسيسه العالم الأمريكي المشهور جيمس هنري برستد Breasted (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) الذي ترجم أهم النقوش التاريخية من العصور الفرعونية المختلفة، كما قام بترجمة بردية إدوين سميث الطبية. وقام بتأليف عدد من الكتب في التاريخ المصري القديم وفي الديانة المصرية القديمة. ووفدت إلى مصر بعثات أثرية كثيرة من الجامعات الأوروبية والأمريكية ومن معاهدها الأثرية منذ نهاية القرن الماضي، فنشطت في أعمالها التنقيبية في الصعيد وفي الدلتا وفي الواحات، ولا سيما في مناطق الجيزة وسقارة والفيوم وتل العمارنة وأبيدوس وطيبة ونقادة ونخن والكاب، فأزاحت التراب عن قرى ومدن وأهرام ومعابد، وعثرت على كنوز أثرية، وقامت من ثم بنشر الدراسات العلمية الموثقة وترجمت أكثر ما وقع بين أيديها من نصوص متنوعة الموضوعات[١٤].

ب ـ النقوش والآثار الكتابية:

ظهرت بين الآثار المنتشرة في وادي النيل الأدنى نقوش كتابية عدة

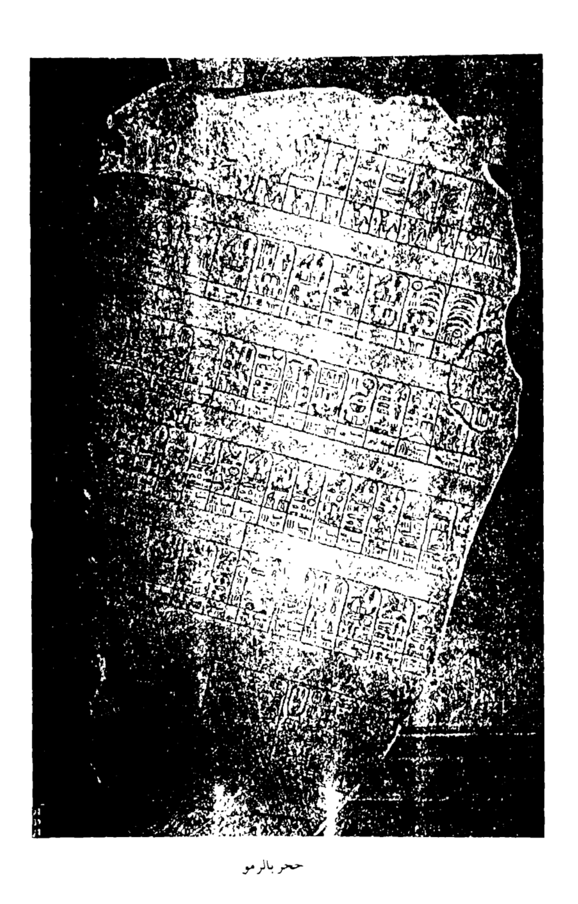
(١٤) عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها ٢٤٧/١؛ محمد بيومي مهران، مصر ١٦٢ ـ ١٦٦

بالكتابة المصرية القديمة أُعِدّت لسرد أسماء الملوك المصريين وتحديد سني حكمهم وذكر أهم أعمالهم. وأهم هذه القوائم: حجَر پالرمو، قائمة الكرنك، أبيدوس، سقارة، وبردية تورين.

١ ـ حجر پالرمو:

وهو قطعة من حجر الديوريت الأسود يحتفظ بالقسم الأعظم المتبقي منه متحف مدينة پالرمو (عاصمة جزيرة صقلية الإيطالية) منذ عام ١٨٧٧، نقشت على وجهيه حوليات عدد من الحكام الذين يدعون «أتباع حورس»، وهم أولئك الحكام الأسطوريون الذين يعتقد المصريون القدماء أنهم حكموا مصر قبل توحيدها. فتبدو أسماء سبعة من حكام مصر السفلى (الدلتا) من بين خمسة عشر على الأقل يتسع الجزء المكسور لهم، وتظهر كذلك أسماء خمسة من حكام مصر العليا (الصعيد)، من دون ذكر مدة حكمهم أو أعمالهم، وقد صور كل حاكم منهم جالساً تحت اسمه وعلى رأسه تاج الشمال وهو التاج الأحمر، أو تاج الجنوب وهو التاج الأبيض، إشارة إلى منطقة حكم كل واحد منهم. ثم يليهم أسماء الملوك التاريخيين بدءاً من مينا (نعرمر) وانتهاء بالملك نفرايركارع، ثالث ملوك الأسرة الخامسة. ويعود تاريخ كتابة هذا الحجر إلى حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد (٢٥٠٠ ق.م)، ويبدو جلياً أن مؤلفه مؤرخ واع لعمله إذ ماز حكام ما قبل الأسرات في الشمال والجنوب من خلال شكل التاج ولونه الذي كان يتوج رأسه؛ كما نجده ينظم مؤلفه على شكل صفوف أفقية مقسمة إلى أقسام تحتوي على أسماء الملوك وسنوات حكمهم، وتحدد ارتفاع مياه النيل، وتذكر أهم ما وقع في عهودهم من أحداث وما أقاموه من منشآت، من معابد ومدن واحتفالات دينية، وما قاموا به من حروب وقدموا من قرابين..

يعد حجر پالرمو الذي عثر عليه في منف (ممفيس) أقدم قائمة تحتوي أسماء حكام مصر الأوائل، وأول محاولة معروفة لجمع أخبار الملوك في العالم القديم. ويستدل من معلوماتها الوجيزة أنها كانت تهدف إلى تغطية فترة



حجر بالرمو

تاريخية تنوف عن سبعة قرون من قيام الملكية في مصر زيادة على عصر ما قبل الأسرات الذي أوجزت صفته.

٢ ـ قائمة الكرنك:

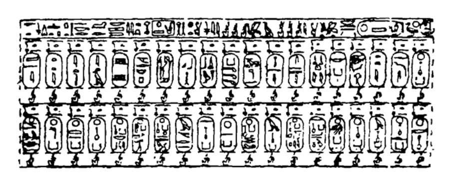
نقشت هذه القائمة في عهد الملك تحوتمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٨ ق.م)، وهو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة المشهورين، على جانب من معبده المعروف في الكرنك حيث كانت تقوم حجرة يطلق عليها اصطلاحاً اسم «حجرة الأجداد» اعتقاداً بأن أسماء الملوك المدونين في هذه القائمة هم أسماء أجداده، وقد نقلها الأثري الفرنسي بريس دافن عام ١٨٤٤ إلى باريس حيث تستقر اليوم في متحف اللوفر.

يظهر رسم الملك تحوتمس الثالث في هذه القائمة وهو يتوجه بالدعوات إلى واحد وستين ملكاً من أسلافه ويقدم القرابين لهم. ويبدو أن اسماً في بداية النقش قد تهشم، ثم يظهر اسم الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة، ثم يليه أسماء بعض ملوك أسرته، ثم أسماء ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة، ثم يتلوها بعض أسماء ملوك الأسرات الحادية عشرة إلى السابعة عشرة. ويتبين أن الملك تحوتمس الثالث تعمد إغفال ذكر عدد من الملوك المصريين الذين لم يعترف بحكمهم، ولا سيما ملوك الأسرات ٧ ـ ١٠، كما أغفل أسماء ملوك الهكسوس غير الشرعيين، واسم الملكة حاتشبسوت التي كان يعتبرها مغتصبة للحكم قبله، واكتفى بذكر من اعتقد أنهم أجداده الحقيقيون.

٣ ـ قائمة أبيدوس:

وتظهر هذه القائمة على أحد جدران معبد الملك سيتي الأول (١٣٠٤ ـ ١٢٩٠ ق.م) في أبيدوس على حافة الصحراء الغربية عند قرية العرابة، ويبدو عليها رسم الملك نفسه وهو يصحب ولي عهده رعمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤) ويقدم القرابين إلى ستة وسبعين من أسلافه الذين نقش الكاتب أسماءهم بالهيروغليفية داخل الخراطيش من دون تصويرهم؛ ويتصدر اسم الملك مينا مؤسس الأسرة الأولى القائمة، ثم تليه أسماء ملوك الأسر المختلفة

حتى يصل إلى اسمه. وتغفل القائمة ذكر أسماء ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة وأسماء ملوك عصر الانتقال الثاني ومن بينهم ملوك الهكسوس. وتعمد الكاتب بأمر من مليكه طبعاً إسقاط أسماء كل من أمنحوتب الرابع (أخناتون)، داعية التوحيد، وخلفائه سمنخ كارع وتوت عنخ آمون وآي من ملوك الأسرة الثامنة عشرة، كما أغفل اسم الملكة حاتشبسوت التي - كما يبدو - لم يعترف هو الآخر بشرعية حكمها أسوة بالملك تحوتمس الثالث، كما رأينا من قائمة الكرنك لخروجها على التقاليد واغتصابها العرش الملكي، ولخروج أولئك على ديانة آمون واعتبارهم صابئين.



جزء من قائمة أبيدوس

٤ - قائمة سقارة:

وجدت القائمة عام ١٨٦١م منقوشة على جدار قبر لأحد كبار الموظفين أو الكهنة في منف، ويدعى ثونري، دفن في سقارة في زمن الملك رعمسيس الثاني، فهي معاصرة لقائمة أبيدوس إلى حد ما وتشبهها من حيث إغفال أسماء كثير من الملوك، ولا سيما ملوك الأسرات السابعة إلى العاشرة، كما تسقط عدداً من أسماء ملوك الأسرة الحادية عشرة، ولكنها تثبت أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة جميعهم، ثم تعود لتغفل ذكر اسماء ملوك عصر الانتقال الثاني، واسم حاتشبسوت وأخناتون ومن تلاه من الأسرة الثامنة عشرة، مما يدل

على تأثر صاحب القائمة بأفكار صاحب قائمة أبيدوس، وتنتهي القائمة بأسماء ملوك الأسرة التاسعة عشرة الأوائل، وهم: رعمسيس الأول وسيتي الأول ورعمسيس الثاني، ويصل عدد الملوك الذين تذكرهم القائمة إلى سبعة وخمسين، وقد كتبت أسماؤهم بالهيروغليفية داخل الخراطيش من الأسفل إلى الأعلى، وتبدأ باسم سادس ملوك الأسرة الأولى وليس باسم الملك مينا. ويحتفظ المتحف المصري في القاهرة الآن بالقائمة التي أصاب التلف جزءاً منها فلم يتبق من الأسماء غير خمسين اسماً.



جزء من قائمة سقارة

٥ ـ بردية تورين:

يعود تاريخ تدوين هذه القائمة على ورق البردي، وليس على الحجر كبقية القوائم، إلى زمن الملك رعمسيس الثاني، وقد استخدم الكاتب الخط الهيراطيقي بدلاً من الخط الهيروغليفي في تدوين أسماء الملوك، واتبع فيها ترتيباً تاريخياً يختلف عن ترتيب القوائم الأخرى، إذ عمد إلى توزيع الملوك على مجموعات جعلها ربما على ما يشبه شكل الأسرات، نسبَ بعضها إلى العواصم التي أدارت منها شؤون البلاد.

وتم العثور على البردية في منف عام ١٨٢٠م على يد الإيطالي دروفيتي، ثم وجدت طريقها إلى متحف تورين الإيطالي في عام ١٨٢٣، وتتألف اليوم

من خمسين قطعة تم تجميعها في قائمة واحدة تقدم ما بين الثمانين إلى تسعين اسماً لملوك مصر. وتبدأ البردية بسرد أسماء الآلهة الذين تنسب إليهم حكم مصر مدداً أسطورية وهم رع، وبتاح، وشو، وجب وغيرهم، ثم يليهم أتباع حورس من أنصاف الآلهة، ثم يأتي ذكر مؤسس الملكية المصرية مينا، ومن بعده أسماء الملوك الآخرين مع الإشارة إلى مدة حكمهم بالأعوام والشهور والأيام. ويتبين لدى مقارنة هذه القائمة مع القوائم الأخرى أنها تحتوي على أسماء لم يرد ذكر لها في تلك القوائم، بل تنفرد بذكرها دون غيرها.

وتعد بردية تورين من أكثر المصادر التاريخية لتاريخ مصر القديم أهمية، وتتفق مع ما كتب المؤرخ المصري القديم مانيتون من أسماء في الغالب كما تتفق معه من حيث المبدأ في ترتيب القائمة على شكل مجموعات أو أسرات.

جـ ـ كتابات المؤرخين:

١ ـ مانيتون السمنودي:

كان مانيتون كاهناً مصرياً في مدينة أونو (هليوبوليس)، عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، وعاصر الملك بطليموس الثاني (فيلادلفوس ٢٨٣ ـ ٢٤٥ ق.م) الذي كلفه ـ كما يبدو ـ بكتابة تاريخ مصر. ولد مانيتون في مدينة سمنود فنسب إليها، وكان على جانب كبير من الثقافة ومتقناً للغتين المصرية القديمة واليونانية، ومتعمقاً في الديانة المصرية القديمة وفي تاريخ بلده القديم. سمى كتابه Aegyptiaka، ولكن هذا الكتاب الذي يعد من أهم مصادر تاريخ مصر القديم فقد أصله في حريق مكتبة الإسكندرية عام ٤٨ ق.م، ووصلنا منه مقتطفات عن طريق المؤرخ اليهودي يوسفوس فلافيوس الذي عاش في القرن الأول الميلادي إذ أراد أن يدافع عن قومه اليهود ضد ادعاء أحد الكتاب الإغريق المتمصرين ـ واسمه أپيون الإسكندري ـ الذي رمى اليهود بالرجس والتشرد وبوضاعة الأصل، وبكل ما هو شائن، فادعى يوسفوس استناداً إلى كتابات مانيتون أن ثمة رابطة بين قومه اليهود وبين الهكسوس، وسرد في كتابه الذي سماه «الرد على أپيون Contra Apionem» أسماء عدد من الفراعنة.

كما نقل عدد من المؤرخين بعض ما كتب مانيتـون، فضمنوه مؤلفـاتهم، ومنهم يـوليوس أفـريكانـوس الذي عـاش في القرن الثـالث الميلادي، ومؤرخ الكنيســة المسـيحيــة المشهــور أويـسبيــوس Eusebius (٢٦٤ - ٣٤٩م)، ويوسيديوس (من القرن الرابع)، وكان آخرهم جورج الراهب المعروف باسم سينكلوس Syncellus (من القــرن الثـامن الميــلادي) في مؤلف لــه بعنــوان «كرونوغرافيا» تحدث فيه عن تـاريخ العـالم منذ بـدء الخليقة حتى عهـد الملك الروماني دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م)(١٥).

جعل مانيتـون كتابـه في ثلاثـة أجزاء، كـما يعتقد، وأراد أن يلخص بـه تاريخ مصر الكامل معتمداً في تأليفه على مـا وصل إليـه من معارف شخصيـة شفهية، ومن أسانيد مكتوبة مما شاهد من كتابات مصريـة قديمـة على جـدران المعابد وفي الوثائق المختلفة التي وقعت بيده، كما أفاد من القـوائم الملكية التي ذكرناها والتي يعتقد أنـه اطلع عليها أو سمـع بها، وهـو رجل الـدين العـالم والمثقف، وخلص من ذلـك إلى قائمـة بأسـماء الملوك الـذين حكمـوا مصر في تاريخها القديم.

واعتمـد مانيتـون في إعداد قـائمـة الملوك مبـدأ تـرتيبهم في مجمـوعـات أسرية،٠ فاجتمع لـديه منهم واحـدة وثلاثـون أسرة ملكية(١٦). وتبـدأ الأسرة الأولى بالملك مينا، وينتهي حكم الأسرة الأخـيرة بدخـول الإسكندر المقـدوني مصر في عام ٣٣٢ ق.م. ولكن مانيتون لم يبدأ تـاريخ مصر بـالأسرة الأولى، بـل نسب إلى الألهة الأولى حكم البـلاد، ثم أتبعهم بـأنصـاف الألهـة الـذين سلموا من بعد مقاليد الحكم إلى الأسرة الأولى. فوافق مانيتون صاحب بـردية

---

(١٥) *الكسنـدر شارف، تـاريخ مصر، القـاهـرة ١٩٦٠*، ص ٢١ - ٣٠؛ محمـد بيـومي مهران، المصدر السابق.

(١٦) اصطلح الباحثون على تقسيم التاريخ المصري القديم الذي حكم فيـه الفراعنـة إلى ثـلاثين أسرة عـلى الرغم من أن مـانيتون الـذي استنـدوا إليـه في تقـديـرهـم لعـدد الأسرات يذكر واحدة وثلاثين أسرة كما جـاء في كتاب مـانيتون. انظر J. Vercoutter **Fischer weltgeschichte, 2, S. 233.**

تورين فيما ذهب إليه، ولعله كان متأثراً به حين أخذ بهذا المبدأ الذي وجد صدى واسعاً لدى كتاب التاريخ المصري القديم في العصر الحديث، ونقصد الحديث عن تاريخ مصر القديم من خلال حكم الأسرات، إذ ترسخ في أذهان المؤرخين المعاصرين وغدا تقليداً متبعاً على الرغم من تقسيم التاريخ المصري القديم عندهم إلى عصور متتالية، هي عصر الدولة القديمة، وعصر الدولة الوسطى، وعصر الدولة الحديثة، وبينها عصور انتقالية.

وثمة كتابات خلفها الكتاب والمؤرخون والفنانون المصريون في عهد كل ملك، وصلنا منها الشيء الكثير، إذ كانوا يسجلون مآثر ملوكهم وأعمالهم وحروبهم، فضلاً عن دلائل تقواهم ومحبتهم للشعب، على جدران المعابد التي أنشئت في عهد كل منهم، وعلى نصب حجرية كبيرة أقيم بعضها في ساحات المعابد، ونصب بعضها على الحدود الخارجية لمصر. ولم يكتفوا بالكتابة التاريخية وحدها، بل أضافوا إليها الرسوم والمناظر التي تمثل الملوك في نشاطاتهم المختلفة. ونقشوا مناظر المعارك الحربية على جدران المدافن والتماثيل والمسلات، وخلفوا أخبار الملوك، وما عقدوه من معاهدات، وما أصدروا من مراسيم. وكان كبار الشخصيات في الدولة يقلدون الملوك في دنياهم وفي حب تخليد ذكراهم عن طريق الأعمال العمرانية والنقوش الكتابية التي تتحدث عن سيرهم، وسير الملوك المعاصرين. ولم تكن الكتابات كلها تنقش على الحجر، بل كانت أوراق البردي وسيلة كذلك لتدوين أنشطة متنوعة من حياة الملوك والأفراد، وقد وصلنا من تلك الكتابات العدد الكبير من المؤلفات العلمية المتصلة بالحساب والفلك والهندسة والطب. كما وصلنا الكثير من المعلومات عن الديانة المصرية القديمة وعن المعبودات وعقائد المصريين في الحياة الآخرة، وقدمت لنا الكتابات تلك نماذج كثيرة عن الأدب المصري القديم من شعر ونثر يعود تأليفه إلى عصور مختلفة، وأطلعتنا كذلك على عالم الأساطير والقصص.

ونذكر من أمثلة النقوش الفنية التي كان لها فائدة في التأريخ الديني ما يسمى «نصوص (أو متون) الأهرام» التي حفلت بها جدران حجرة الدفن

والقاعة المؤدية إليها في أهرام ملوك الأسرة الخامسة والسادسة. وهي نصوص دينية وأسطورية نقشها الفنانون بالكتابة التصويرية الهيروغليفية، جُمِعَتْ لأول مرة ونقشت في باطن هرم الملك أونيس في أواخر القرن الخامس والعشرين أو أوائل القرن الرابع والعشرين، بعد أن كان المصريون الأولون يتداولونها مشافهة قروناً طويلة، وكان الكهان والرواة والمحدثون يرتلونها، ويتقربون بها إلى الآلهة(١٧).

٢ ـ المؤرخون الكلاسيكيون (اليونان والرومان):

وفد عدد من الرّحالة والمؤرخين إلى مصر منذ توسع العلاقات الخاصة أيام الأسرة السادسة والعشرين باليونان، فوصل إليها المؤرخ هيكاتيوس الميليتي حوالي عام ٥١٠ ق.م، ووضع كتاباً سماه «تخطيط الأرض» تحدث فيه عن النيل وفيضانه، وعن تكوين الدلتا ومزروعات البلاد، وقيل إنه زود الكتابة بخريطة تبين الأماكن التي زارها. وربما تعود إليه العبارة التي نسبت إلى هيرودوت القائلة «مصر هبة النيل» أو «هبة النهر».

كما زار المؤرخ الإغريقي هيرودوت (٤٩٠ ـ ٤٢٥ق.م) مصر إبان الحكم الفارسي حوالى عام ٤٦٠ ق.م، وتجول في أرجائها، ووصل إلى الشلال الأول، كما شاهد إقليم الفيوم ومدن الدلتا، واستغرقت زيارته تلك حوالى أربعة أشهر، تمكن خلالها من جمع المعلومات المتنوعة عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية، وعن جغرافيتها، وألف كتاباً عن مصر، جمع فيه كل ما سمعه ورآه فيها، ويذكر فيه أن مصدر أخباره كهنة مدينة منف (ممفيس)، ويزعم أن ثبتاً بأسماء ملوك مصر قد قرىء عليه. ويعد ما كتب هيرودوت عن مصر من المراجع المفيدة، ولا سيما ما يتصل بمشاهداته الشخصية والأحداث التي عاصرها والآثار التي وصفها.

وزار هيكاتيوس الأبدري مصر حوالى ٣٢٠ق.م. في أثناء حكم

(١٧) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ١٤٠ ـ ١٤١.

بطليموس الأول (٣٢٣ ـ ٢٨٤ ق.م)، ووضع كتاباً عن مصر تناول فيه الحديث عن مصر عموماً، وعن العقائد والأساطير الدينية المصرية خصوصاً.

ثم قام ديودور الصقلي بزيارة لمصر حوالى عام ٥٩ ق.م، وعندما ألف كتابه عن «التاريخ العام» الذي بدأه بفجر التاريخ وأنهاه بالحديث عن حملة يوليوس قيصر على بلاد الغال في عام ٥٨ ق.م. خصص الجزء الأول لتاريخ مصر، فتناول أوضاعها السياسية والاجتماعية والدينية، وفصل في حديثه عن آراء المصريين القدماء في نشأة الوجود وظهور أجيال المعبودات وعمران الكون. ثم أفاض في الكلام على أرض مصر ونهر النيل والحياة الزراعية والحيوانية فيها وعلى فيضان النهر وأسبابه. كما أفرد حيزاً كبيراً للحديث عن تاريخ مصر السياسي، وسمّى الملك مينا أول ملوك مصر، دليل اطلاع واسع على كتابات من سبقوه إلى الكتابة عن مصر، ووصف الآثار التي خلفها رعمسيس الثاني في طيبة الغربية (في الرمسيوم) وصفاً دعمه بالتفاصيل الدقيقة. وكان ديودور الصقلي منصفاً ومقدراً لقدرة المصريين الفذة في إنشاء حضارتهم المتميزة ومعالمها الأساسية، فهو لا يكتفي بوصف ما شاهده من آثار ضخمة كالأهرام فحسب، بل يؤكد مهارة المهندسين ويشيد بكفاءتهم العالية، ويلح على الجانب الفني والعلمي في بنائها الذي يضعه في المقام الأول، الأمر الذي يتضاءل أمامه توفير الإمكانات المادية ونفقات البناء[١٨]. ويعد ما كتبه ديودور الصقلي عن مصر في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد من أهم ما خلفه المؤرخون الكلاسيكيون عن مصر من كتابات، ولا يقل أهمية من حيث المضمون والفائدة عما كتب كل من المؤرخين المشهورين تيوسيديدس وأكسنفون (٤٣٠ ـ ٣٥٥ق.م) من مؤلفات تاريخية يشار إليها بالبنان، بل يقف معهما على قدم المساواة. ونذكر من الملاحظات الجغرافية التي أحسن ديودور الصقلي التوصل إليها أنه قدّر للطبيعة دورها في حماية مصر حين قال: «إن مصر حمتها الطبيعة من جميع جهاتها» وهو أمر أشرنا إليه سابقاً.

---

(١٨) عبد العزيز صالح، حضارة مصر وآثارها ٢٤٣/١؛ وهيب كامل، ديودور في مصر ١٩٤٧؛ محمد بيومي مهران، المرجع السابق ٨٣. A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p.5.

كما قام من الجغرافيين المشهورين سترابون بزيارة مصر في أيام الأمبراطور الروماني أوغسطس (٢٧ ق.م - ١٤م)، وأقام فيها حوالى خمس سنوات، حيث كان صديقاً لواليها إيليوس غالوس الذي كان يدعوه لمرافقته في عدد من حملاته، ومنها حملة قام بها (عام ٢٥ ق.م) إلى الشلال الأول. وقد اشتهر سترابون بمؤلفه المسمى «الجغرافية Geographica» الذي أفرد فيه جزءاً للحديث عن مصر، فأسهب في الحديث عن جغرافية مصر، فتناول نهر النيل والأقاليم المصرية في منطقة الدلتا بالحديث المفصل، ولم يغفل وصف الأقاليم المصرية الأخرى التي مر بها في طريقه إلى الجنوب، إذ أشار إلى مقياس ارتفاع مياه النيل في جزيرة فيلة (عند أسوان)، وهو المقياس الذي كان يستخدم لتحديد سوية المياه على مدار أيام السنة. وتحدث في كتابه عن التاريخ السياسي لمصر، وعن عادات المصريين القدماء ومعابدهم الدينية من دون تفصيل، إذ كان جغرافياً وإن أعار التاريخ شيئاً من الاهتمام.

وقام بلوتارخ (٥٠ - ١٢٠م) بالكتابة عن العقائد المصرية القديمة، وخص قصة أوزيريس وإيزيس بكتاب سماه De Iside et Osiride، كما أفرد المؤرخ پلينوس (پليني) الأكبر (٢٣ - ٧٩م) صاحب موسوعة «التاريخ الطبيعي Historia Naturalis» حديثاً خاصاً عن جغرافية مصر، وتطرق كذلك بطليموس كلاوديوس (القلوذي) في كتابه المسمى «جغرافية بطليموس» إلى مصر فتناول جغرافيتها بحديث مفيد، وكتب كليمنت الإسكندري (١٥٠ - ٢١٥م) عن الديانة المصرية وأشار إلى الطقوس الدينية التي كان المصريون القدماء يمارسونها في المعابد، كما تحدث عن الكتابة الهيروغليفية ومعاني رموزها التصويرية(١٩).

ولا بد من الإشارة أخيراً إلى أن كتابات المؤرخين من الإغريق والرومان جديرة بالاهتمام، فهي تقدم مادة تاريخية ومعلومات مفيدة لا سبيل إلى تجاهلها، ولكن ينبغي قراءتها بحذر، إذ تحتمل كتاباتهم الكثير من المبالغة في

---

(١٩) عبد العزيز صالح، المصدر السابق ٢٤٤، .Gardiner, Egypt 8 - 9

سرد الروايات الخرافية، والخطأ في التأويل ولا سيما ما يتصل من ذلك بالعصور القديمة التي لم تصلهم المعلومات عنها مباشرة، بل عن طريق الروايات الشفهية التي سمعوها ممن التقوهم فعلاً من المصريين الذين تتفاوت سوياتهم الثقافية ومداركهم الشخصية، وقد ينطلق بعضهم من غايات خاصة، كما رأينا عند المؤرخ اليهودي يوسفوس فلافيوس الذي اقتبس من كتاب مانيتون ما يناسب ادعاءه، بعد أن حرف ما نقل عنه ما له صلة بقومه اليهود مع الهكسوس، إذ كانت غايته الرد على من يطعن في نسب اليهود، ورفعة شأنهم بين الأمم، وجاء حديثه عن مصر هامشياً وهو يتحدث عن علاقة بني إسرائيل بمصر.

د - رسائل العمارنة:

تم العثور في نهاية القرن الماضي (التاسع عشر) على حوالى ٣٧٧ رسالة في قصر الملك المصري أمنحوتب الرابع (أخناتون) في تل العمارنة إلى الشمال من مدينة أسيوط حيث كانت تقوم عاصمته أخيت آتون مكتوبة باللغة البابلية القديمة وبقلم مسماري، وهي لغة المراسلات الدولية السائدة منذ قرون في الشرق القديم، تتضمن المراسلات الرسمية بين دول آسية الأمامية الكبيرة، وهي دولة ميتاني، وبابل، ودولة الحثيين، وأرزاوا (في آسية الصغرى) وألاشيا (قبرص)، وبين ملكي مصر أمنحوتب الثالث وابنه أمنحوتب الرابع. وتحوز المراسلات مع سورية ولا سيما مع فينيقية وفلسطين القسم الأعظم من هذه الرسائل التي تعكس أحوال الشرق القديم، وتلقي الأضواء على أحوال الأقاليم السورية التابعة للسيادة المصرية المضطربة خصوصاً في الربع الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد (١٣٨٠ - ١٣٥٠ق.م)، وتدعى الفترة التاريخية التي تغطيها نسبة إليها زمن العمارنة[١٩]، وهي فترة تعد من أوضح الفترات التاريخية في الألف الثاني قبل الميلاد لوجود هذا الأرشيف الملكي الذي عثر عليه في أخيت آتون (العمارنة)[٢٠].

---

(٢٠) تم نشر الرسائل على يد كنودتزون في عام ١٩١٧ في مجلدين، ثم بإضافة رقم أخرى على يد العالم مرسر:

هـ ـ الكتب السماوية (القرآن والعهد القديم):

يشير القرآن الكريم في بعض من آياته إلى مصر إشارات عابرة إذ يذكر موسى (عليه السلام) ويتحدث عن فرعون حديث عبرة وعظة، فهو ملك جبار، أله نفسه وأكره شعبه على عبادته[٢١]. ويذكر القرآن يوسف (عليه السلام) والسنوات السبع العجاف[٢٢]، وما تعنيه من مجاعة مهلكة للناس كانت تنزل بمصر في أوقات عصيبة من تاريخها. ولكنه كتاب هداية وإرشاد وليس كتاباً تاريخياً، نستخلص منه العبر، إذ إن نهاية فرعون كانت الهلاك في اليم لأنه كان من الظالمين، وكان يوسف ممن حماهم الله ويسّر لهم في الأرض وآتاه حكماً وعلماً، ودخل أهله مصر آمنين وجازى أخوته جزاء حسناً وهم الذين باعوه وشردوه.

أما كتاب العهد القديم، وهو كتاب اليهود المقدس، فإنه يفصل في الحديث عن يوسف وموسى (عليهما السلام)، وترد إشارات كثيرة إلى مصر وعلاقتها ببني إسرائيل، كما يذكر في بعض المواطن عدداً من ملوك مصر المتأخرين، ولا سيما في الأسفار التاريخية، كسفر الخروج الذي يتحدث عن خروج موسى بقومه من مصر هرباً من اضطهاد فرعون، وسفري الملوك الأول والثاني، وسفري أخبار الأيام الأول والثاني حيث يرد ذكر الملوك شيشنق وطهراقا ونخاو وإبريس وغيرهم من الفراعنة الذين لا تذكر أسماؤهم. وقد كان العهد القديم المصدر الأول للمعلومات عن تاريخ الشرق القديم حتى ظهرت آثار شعوب المنطقة التي قدمت أصدق الأخبار عن تاريخها، وجعلت روايات العهد القديم أقل أهمية، بل مجرد أساطير وحكايات ذات طابع خرافي مشبع بالنزعات الخاصة ذات الاهتمام المباشر بتاريخ اليهود وما له صلة بهم.

J. Knudtzon, Die El - Amarna - Tafeln, Bd. I - II 1917; S.A.B. Mercer, the Tell El - Amarna - Tablets, Bd. I - II.

انظر كذلك: .Fischer Weltgeschichte 3, 348 (Anm.20)

(٢١) سورة الشعراء، آية ٢٩؛ سورة القصص آية ٣٨؛ سورة النازعات الآيات ٢٢ ـ ٢٤؛ سورة الأعراف الآيات ١١٦ ـ ١١٧؛ سورة طه الآية ٦٥ ـ ٦٧.

(٢٢) سورة يوسف الآيات ٤٣ ـ ٤٩.

إن المصادر التي ذكرناها على اختلاف أشكالها، أساسية كانت كالآثار والكتابات المعاصرة للأحداث، أو ثانوية ككتابات المؤرخين والكتب السماوية، لا تغطي تاريخ مصر القديم بكامله، وهي لا تكفي لإعطاء سوى ملامح عامة عنه. وثمة فترات تاريخية وعصور مظلمة لم يترك أهلها آثاراً ولا أخباراً تنير الطريق أمام الباحث عن التسلسل التاريخي للأحداث المتلاحقة، كعصر الانتقال الأول الواقع بين عصر الدولة القديمة وعصر الدولة الوسطى، وعصر الانتقال الثاني الواقع بين عصر الدولة الوسطى، وعصر الدولة الحديثة، حيث يتعذر كتابة تاريخ واضح الملامح عن أوضاع مصر في هذين العصرين. كما تجدر الإشارة إلى أن الآثار - على رغم معاصرتها للأحداث - ليست صادقة دائماً، بل كثيراً ما تجنح إلى المبالغة، وتميل إلى إظهار الجوانب الإيجابية لأصحابها الذين أمروا بإنجازها، سواء منها المعمارية والفنية أو الكتابية، ولا سيما ما يتصل منها بحوليات الملوك الذين يطمعون بتمجيد أنفسهم وإسباغ هالة من القدسية والبطولة الفذة التي لا تليق بغيرهم، ولا يتورعون أحياناً عن طمس آثار من سبقهم، أو جعل اسمهم مكان أسماء غيرهم، كما سنرى لدى الحديث عن سيرة ملوك الأسرتين الثانية عشرة والتاسعة عشرة خصوصاً. ومن هنا يتعذر الوصول إلى الحقيقة التاريخية، إذ إن معظم تلك الآثار إنما هي من نتاج الملوك والحكام، وتنطق بلسانهم وتتحدث عن أحوالهم. وقد تظهر بين حين وآخر آثار نستدل منها على أحوال الناس العادية، وهي في معظمها مخبأة في ثنايا الأدب وألوانه وفي الملاحم الأسطورية، ومنها قصة الأخوين، وقصة الفلاح الفصيح، وقصة سنوحي، واليائس من الحياة، ورواية أبوور، وقصة ونآمون، وغيرها من الآثار الكتابية ذات الطابع القصصي والأدبي الذي يحفل بألوان من الحكمة والأمثال والنصائح، فضلاً عن الأدب الديني، وهي آثار تعود إلى عصور مختلفة خلفها أصحابها على أوراق البردي وقيض لعلماء الآثار العثور عليها، سنفرد لها حديثاً خاصاً في سياق التاريخ السياسي.

وثمة صعوبة أخرى تقف في وجه الباحثين تتصل بتحديد تواريخ الأحداث وحكم الملوك في مصر القديمة، لا تختلف في طبيعتها عن تلك

الخاصة بمناطق الشرق القديم الأخرى، لأن المصريين القدماء، ومثلهم سكان الشرق القديم أو الإنسان حيثما كان في تلك الحقب الزمنية القديمة، لم يكـونوا قد توصلوا إلى تأريخ مطلق يحددون بـه زمن الأحداث، كتـأريخنا الهجـري أو الميلادي، بل كانوا يؤرخون الوقائع نسبة إلى بعض الأحداث الهامة في بـادىء الأمر، كعام الحرب بين الشمال والجنوب، أو عام تعداد الماشية، ثم نسبـة إلى حكم الملوك كل على حدة.

الفصل الثالث
عصور ما قبل التاريخ

عـاش الإنسان زمنـاً طويـلاً استغرق آلاف السـنين إلى أن اهتـدى إلى الكتـابة التي تـوصل إلى اختـراعها في نهايـة الألف الرابـع قبل الميـلاد، وبـدأ يستخـدمها في تسجيـل أخبار حـوادثه الـرئيسيـة، وفي تـدوين بعض معـارفـه الدنيويـة وعقائـده الدينيـة بدلاً من الاكتفـاء بالتلميـح إليها بـالرسم البـدائي وروايتها عن طريق المشافهة؛ أي إنـه بدأ يـترك بوسـاطة الكتـابة أثـراً ناطقـاً لأعماله وإنجازاتها الحضارية لنفسه وللأجيال التالية، وبتعبير آخـر بدأ يسجـل تاريخه بنفسه ولو بطريق الإيجاز. يطلق على الزمن الطويل الذي سبق اهتـداء الإنسـان إلى الكتابـة مصطلح «عصـور ما قبـل التـاريـخ»، أي أن «العصـور التاريخية» تبدأ بالكتابة التي وضعت حداً لعصور ما قبل التـاريخ. وثمـة تعبير آخر يطلق على تلك الأزمنة السحيقة التي عاشهـا إنسان مـا قبل التـاريخ هـو «العصـور الحجـريـة» نسبـة إلى الأدوات التي صنعهـا الإنسـان من الحجـر للاستعانة بها في حياته اليومية قبل أن يهتدي إلى صناعتها من المواد المعدنيـة، وهي أدوات بدائية تتناسب وحياته الأولى، راح يطورها ببطء عشرات الآلاف من السـنين يقسمهـا علماء الآثـار إلى ثـلاثـة عصـور هي: العصر الحجـري القـديم، والعصر الحجـري الـوسيط، والعصر الحجـري الحـديث[٢٣]. كـما يقسمـون العصر الحجري القـديم الـذي استغـرق زمنـاً أطـول من العصرين التاليين وبدأ ٢,٣٠٠,٠٠٠ سنة ق.م في إفريقية، وانتهى حـوالى ١٢,٠٠٠ سنة قبل الميلاد، يقسمونه إلى ثلاثـة عصور هي: العصر الحجـري الأدنى (أو

---

(٢٣) انظر كتابنا، تاريخ الشرق القديم ١، سـورية، ص ١٤٣ سلطان محيسن، عصـور ما قبل التاريخ ٥٤.

الأسفل)، والعصر الحجري القديم الأوسط، والعصر الحجري القديم الأعلى.

ويقسم الباحثون الحضارات البدائية في العصر الحجري القديم الأدنى (الباليوليتي الأدنى ٢,٣٠٠,٠٠٠ - ١٠٠,٠٠٠ ق.م) الذي ظهر فيه الإنسان الصانع (هوموهابيليس)، ثم الإنسان المنتصب (هومو إركتوس، حوالى ١,٥ مليون سنة ق.م)، يقسمونها إلى قسمين متعاقبين هما الحضاره الشيلية (أو الأبيفيلية)، ثم الحضارة الأشولية نسبة إلى أقدم المواطن التي عثر فيها على آثار الإنسان في فرنسا. واهتدى الإنسان في هذا العصر كذلك إلى طريقة إيقاد النار التي استعان بها في طهو طعامه، وفي التدفئة، وفي الحصول على النور ليلاً وفي إرهاب الحيوانات المتوحشة. وكان العصر في الشرق الأدنى القديم يتميز بحقب مطيرة طويلة وأخرى جافة طويلة أيضاً تقابل ما شهدته المناطق الشمالية من الأرض من تقدم موجات الجليد وانحساره.

وظهرت في العصر الحجري القديم الأوسط (١٠٠,٠٠٠ - ٣٥,٠٠٠ ق.م) الحضارة الموستيرية (نسبة إلى أدوات حجرية عثر عليها في كهف موستير في فرنسا)، كما ظهرت سلالة إنسان يسميه العلماء إنسان نياندرتال (نسبة إلى وادي نياندر في ألمانية). وكانت مناطق الشرق الأدنى القديم تعيش فيه حقباً مطيرة متقطعة، وتوصل المصريون القدماء في بعض المناطق إلى صنع الأدوات الليفلوازية المتقدمة[٢٤].

تبدلت الأحوال الجوية والمناخية في العصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليت الأعلى ٣٥,٠٠٠ - ١٢,٠٠٠ ق.م) فانتهت فترات الأمطار الكثيفة في مناطق الشرق الأدنى القديم وحل الجفاف الذي بدأ ينتشر شيئاً فشيئاً، وظهر في هذا العصر من يسميه العلماء الإنسان العاقل (هومو سابينس) الذي يعد جد الإنسان الحالي المباشر، وهو الذي مارس أنواعاً من الفن لم يعرفها الإنسان من قبل مثل صنع الدمى وأدوات الزينة، ورسم

---

(٢٤) انظر كتابنا ص ٤٧، الحاشية ٨؛ عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ٢٣.

الحيوانات على جدران الكهوف، واستخدم الألوان، وطور أدواته الحجرية، وصنع أسلحة حجرية جديدة ذات نصال طويلة ورؤوس حادة كالحراب كان يقذفها بالقوس وليس باليد، تشبه السهام إلى حد كبير.

وجدت آثار النشاط البشري في مصر خلال العصرين القديم الأدنى والأوسط في مناطق عدة، منها مناطق العباسية وجبل المقطم ودهشور وسقارة، وفي سفوح مرتفعات الأقصر وقرب أسوان، وفي الطرق المؤدية إلى الواحات. كما تم العثور على آثار الإنسان القديم في العصر الحجري القديم الأعلى في أطراف الدلتا، وحول الوديان والعيون في مناطق حلوان، ووادي الطميلات، وفي الجيزة، والفيوم، وحوض كوم أمبو، وفي الواحة الخارجة، على سبيل المثال لا الحصر.

وأعقب العصر الحجري القديم بأقسامه الثلاثة العصر الحجري الوسيط الذي يختلف الباحثون حول امتداده الزمني، ويجعله بعضهم عصراً انتقالياً لم تظهر آثاره في مناطق الشرق الأدنى القديم، وإنما كان تمهيداً لظهور العصر الحجري الحديث (النيوليتي).

ويتميز العصر الحجري الحديث بظهور انقلاب حضاري في حياة الإنسان يتمثل باهتداء الإنسان إلى الزراعة التي تعد طفرة عظيمة، ونقلة خطيرة في أسلوب العيش، انتقل من خلالها من الاعتماد على التقاط الغذاء النباتي وجمعه من الطبيعة إلى إنتاج الغذاء بنفسه عن طريق استنبات الحبوب ولا سيما القمح والشعير، فضلاً عن تدجين الحيوانات واستئناسها، حتى سميت هذه العملية بثورة العصر النيوليتي؛ وقد توصل الإنسان إلى ذلك في خلال الألف الثامن والسابع قبل الميلاد إذ ظهرت تباشيرها في الشرق الأدنى حيث كان القمح والشعير يتوافران في البرية وفي بعض مناطق الهلال الخصيب خصوصاً.

وقد دفع اشتداد الجفاف على هضاب مصر الشرقية والغربية منذ أواخر العصر الحجري القديم الأعلى السكان إلى الاقتراب من نهر النيل، حيث يتوافر الماء، وتنمو النباتات، والحبوب الطبيعية على ضفاف النهر، وفي واديه

الذي كان يشهد فيضاناً سنوياً، التماساً للشرب وابتغاء الانتفاع بالنباتات الغذائية والحبوب البرية، وقنص الحيوانات التي تقصد النهر للشرب، وصيد الأسماك. ويبدو أن المصريين الأوائل الذين قصدوا وادي النيل الأدنى للعيش فيه تنبّهوا إلى ظاهرة نمو النباتات في أعقاب الفيضان، ولا سيما في الأراضي التي كانت مياه الفيضان تغمرها، ثم تنحسر عنها مخلفة الطمي الذي يشكل أرضاً خصبة لظهور النبات الطبيعي والحبوب، واسترعى أنظارهم نمو بذورها المتناثرة على الأرض بعد انزياح مياه الطوفان عنها بانتظام، وذلك على مدى أجيال كثيرة. وما إن حل الألف السابع قبل الميلاد حتى باشر المصريون القدماء عملية إنماء النبات، والحبوب خصوصاً، بأنفسهم واهتدوا بذلك إلى وسيلة تضمن لهم الغذاء الأساسي الذي كانوا يسعون لالتقاطه من الطبيعة، فأمسوا منتجين له، ومتحكمين في توفيره، وتوصلوا إلى ابتكار العملية الزراعية التي سبقهم إليها سكان الهلال الخصيب في سورية وبلاد الرافدين بنحو ألف من السنين[٢٥]. وسارت عملية استئناس الحيوان وتدجينه جنباً إلى جنب مع العملية الزراعية في العصر الحجري الحديث. وترتب على الاشتغال بالزراعة نتائج اجتماعية وعمرانية واقتصادية وسياسية خطيرة في حياة الإنسان، إذ زاد تماسك الأسرة التي غدا أفرادها مسؤولين جميعاً عن العملية الزراعية التي تستدعي الانتفاع بمجهوداتهم، وبدأ الاستقرار في الأرض المزروعة في بيوت مبنية قرب الحقل لرعاية زرعه وحراسته، ونشأت الحرف الخاصة بالزراعة وأدواتها الحجرية من فؤوس ومناجل، ورحى، وأوانٍ لتخزين المحصول، وسلال للنقل والتخزين، وبدأت صناعة الفخار والنسيج تشق طريقها ومعها الفنون البدائية، إذ وجد بعض الناس متسعاً من الوقت للتفكير والإبداع في ظل الأمن الغذائي الذي توصل إليه في هذا العصر الذي يعد فجر التاريخ الحقيقي. ومع ظهور البيوت وتزايدها نشأت القرية الصغيرة التي تطورت إلى قرية كبيرة أمست بحاجة إلى إدارة تنظم علاقات الأفراد والأسر ببعضها، وإلى شخصيات تتعهد علاقة الناس بالأرباب، فظهر الكاهن الذي شغل

---

(٢٥) انظر كتابنا، تاريخ الشرق القديم (١) سورية، ص٥٣.

مكانة الحاكم أو مدبر الأمور الدينية والدنيوية معاً.

وضحت معالم التجمعات الزراعية الأولى في وادي النيل الأدنى في العصر الحجري الحديث، أو في فجر التاريخ المصري، في مناطق متعددة من الدلتا، والفيوم في مدخل مصر الوسطى، وفي قلب الصعيد. فظهرت حضارات اتخذت تسميات اصطلاحية نسبة إلى المناطق التي تم التنقيب فيها والكشف عن آثارها كشفاً منظماً حتى الآن. وقد أكدت مظاهر الحضارة في هذه الأماكن خطوطاً عامة مشتركة تمثلت في حرف الزراعة وتربية الحيوان والصيد، وصناعة الأدوات الحجرية وصقلها، وفي صناعة الفخار، وصناعة السلال وغزل الكتان، وصناعة الحصير. ولكنها اختلفت في أساليب الصناعة، وفي طرق بناء البيوت والمدافن، إذ تميزت كل منطقة منها عن الأخرى بحكم اختلاف الموقع والبيئة إلى حد ما. ونذكر من هذه الحضارات النيوليتية من الشمال إلى الجنوب:

مرمدة بني سلامة:

تقع مرمدة بني سلامة على الحافة الغربية للدلتا، على بعد حوالى ٥١ كم شمال غربي القاهرة. وقد دلت التنقيبات التي قام بها الألماني هرمان يونكر H. Junker بدءاً من عام ١٩٢٩، ثم تابعها المعهد الألماني للآثار الشرقية بالقاهرة في عام ١٩٧٨ برئاسة أيفانجر J. Eiwanger، على أن الموقع كانت تشغله مجموعة من الناس أقامت قرية كبيرة بشكل لافت، لا ينافسها في كبرها في مستوطنات ما قبل التاريخ سوى مدينة نخن (البصيلية في مركز إدفو بمحافظة أسوان). وعاش أهلها في أكواخ مغطاة بالقصب أو الجبس، وجعلوا أرضيتها بيضاوية الشكل وجدرانها من الطين أو من الصخور الخشنة. وكانت هذه المساكن تبنى في حفرة متسعة بحيث يظل ربع المسكن تحت مستوى الأرض، مما يكفل له حماية من الرياح ويضمن له ثبات الجدران. وقد عمل أهل القرية على أن يبنوا مساكنهم على صفين، وتركوا بينهما فاصلاً ليكون طريقاً ضيقاً بينهما. وكانوا يخزنون الحبوب بالقرب منهم في صوامع فردية من سلال القش المغطاة بالطين. ودلت الحفريات على أن القوم كانوا قد

استأنسوا عدداً من الحيوانات كالخنزير والبقر والأغنام والماعز، واصطادوا أفراس النهر والأسماك، وكانوا يعرفون صنع النسيج.

كان أهل مرمدة بني سلامة يدفنون موتاهم بين مساكنهم، ويرقدونهم على الجانب الأيمن بحيث تتوجه وجوههم شرقاً وناحية بيوتهم، ويزودونهم بحفنة من الحبوب يضعونها أحياناً قرب أفواههم من دون قربان خاص اعتقاداً منهم بأن أرواحهم تشارك أهلها حتى بعد الموت في الطعام والشراب(٢٦).

وكشفت التنقيبات في الموقع عن أقدم النماذج المعروفة عن التماثيل المصرية الصغيرة في فجر التاريخ التي تم تشكيلها من الفخار والصلصال المحروق، ومنها قطعة تمثل الجزء الأعلى لامرأة ترتدي قلادة، وقارب صغير من الفخار قد يمثل نموذجاً للأصل الذي كان يصنع من حزم البردي، ويشير إلى أن أهل مرمدة كانوا قد اعتادوا ركوب متن النيل منذ الفترة الأولى للعصر الحجري الحديث، كما تؤكد هذه النماذج التي عثر عليها في الموقع أصالة الفن الذي ظهرت بداياته عندهم. أما تاريخ حضارة مرمدة بني سلامة فيتراوح بين أواخر الألف السادس وأواخر الألف الخامس ق.م.(٢٧).

الفيوم:

تشغل الفيوم منطقة من مناطق الحواف الصحراوية في منخفض يبعد عن القاهرة حوالى ١٠٠ كم إلى الجنوب الغربي. وكانت بركة قارون التي دعاها اليونان باسم بحيرة موريس تشمل معظم المنخفض، وتستقي مياهها العذبة من نهر النيل عن طريق فروع عدة بقي منها في الوقت الحاضر بحر

---

(٢٦) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ٤٨؛ محمد بيومي مهران، مصر ٢٢٥، ٢٢٧؛

J. Vandier, Manuel d'Archelogie Egyptienne I, Paris 1952, Fig. 74. H. Junker, Merimde - Benisalame 1930, 46, Abb. 4, 1932, 48, Abb. 2 Taf. II, 52. f. III, 1933, 67, f. Abb. 2,3; 1940, 11f.

(٢٧) محمد بيومي مهران ٢٣٢.

يوسف. وقد يسر اتصال البحيرة والمنخفض الذي تقع أجزاء منه تحت مستوى البحر بالنيل وصول الطمي وقت فيضان النهر السنوي، فترتب على ذلك أن غدت تربة المنطقة لا تختلف في شيء عن تربة وادي النيل نفسه وتربة الدلتا، مما هيأ الظروف الملائمة لعيش الإنسان في العصر الحجري الحديث في المنطقة، الذي زرع الأرض الخصبة وربى الحيوانات المستأنسة، وعرف الاستقرار في المنخفض منذ نهاية الألف السادس قبل الميلاد. وقد كشفت التنقيبات الأثرية في منخفض الفيوم عن حضارتين متعاقبتين في ذلك العصر. الحضارة الأولى عاش أهلها فوق مدرج متسع كان ماء البحيرة يصل أثناءها حوالى عشرة أمتار فوق مستوى سطح البحر (= نحو ١٨٠ قدماً فوق مستوى مائها الحالي) ويدعوها المختصون حضارة الفيوم (آ)، وحضارة ثانية أعقبتها عاش أهلها فوق مدرجين متسعين، يعود أحدهما إلى وقت كانت البحيرة فيه تصل مياهها إلى ارتفاع أربعة أمتار عن مستوى سطح البحر، والثاني كانت مياه البحيرة تصل فيه إلى مترين[٢٨]. ويدعو المختصون هذه الحضارة «حضارة الفيوم (ب)». قامت بالتنقيب في مناطق عدة من المنخفض كل من مس كاتون طومسون Caton Thompson، ومس جاردنر E.W. Gardner وتم العثور على أيديهما على منطقة السكن في مدرج الحضارة الأولى وحدها دون منطقة المقابر، حيث عثر على مواقع المواقد التي كانت تتوسط المساكن، وعلى عدد كبير من الأدوات التي كان الأهالي يستخدمونها في حياتهم اليومية، من مثل الأواني الفخارية ورحى طحن الحبوب وأدوات الزينة البدائية، وبعض الأدوات الزراعية وأدوات الصيد، وعلى قطعة قماش من الكتان. أما الفخار فكان من النوع الخشن المصنوع من الطين المخلوط بالتبن؛ وكان منه ذو اللون الأحمر، والأسود، والطبيعي، ولكنه خال من المماسك والأعناق. وعثر على حفر (مطامير) لخزن الحبوب فوق ربوة عالية بعيدة من أماكن سكناهم، جعلوها في ساحتين ترتفع إحداهما عن الأخرى

---

(٢٨) هبط مستوى البحيرة إلى ١٤٧,١٩ قدماً تحت سطح البحر في عام ١٩٢٩م؛ عبد العزيز صالح ٤٩.

بحوالى تسعة أمتار، وكسوا قاعها وجوانبها بأغشية من القش أو الحصير المصنوع من قش الذرة أو من أعواد الأثل. ورأى بعض الباحثين، ومنهم هرمان يونكر، في اجتماع حفر التخزين دلالة على شيوع الملكية الزراعية عند أهل الفيوم، بينما يشير تفرقها عند أهل مرمدة بني سلامة إلى استقلال كل فرد من أصحابها بملكية الزراعة ومحاصيلها(٢٩).

وتعد حضارة الفيوم نموذجاً لحضارات بداية العصر الحجري الحديث في مصر الوسطى.

دير تاسا:

تمثل حضارة دير تاسا في محافظة أسيوط حضارات الوجه القبلي في بداية العصر الحجري الحديث. وقد كشف عنها برنتون في عام ١٩٢٧ G. Brunton، ثم قامت مصلحة الآثار بالكشف عن آثار الموقع القريبة بإشراف الدكتور سامي جبرة في عام ١٩٢٩، وتبين أن الموقع بقي آهلاً بالمستوطنين حتى العصر المسيحي بدرجات متفاوتة، مما انعكس سلباً على وضع الآثار التي خلفها أهل المنطقة في العصر القديم، بل وفي مختلف الأزمنة.

وتبين أن حرف أهل دير تاسا لم تختلف عن معاصريهم من سكان الوادي، ولكنهم امتازوا عنهم بصناعة الفخار الذي اتخذ عندهم أشكالاً أرقى من الأشكال التي صنعها أهل المناطق الأخرى، إذ عثر على بعض الكؤوس التي شابهت هيئة زهرة اللوتس، والتي ظهرت على سطوحها زخارف على هيئة المثلثات، وأشكال تخطيطية تشتمل على خطوط مستقيمة وأخرى مائلة غائرة ملئت بعجينة بيضاء، أو على نقط محفورة أيضاً حشيت بالعجينة البيضاء نفسها(٣٠).

وعرف أهل دير تاسا أدوات الزينة المتواضعة كالعقود والأحزمة

---

(٢٩) عبد العزيز صالح ٥٠؛ H. Junker, Merimde, 1933, 5f.

(٣٠) عبد العزيز صالح ٥١.

G. Brunton, Mostagedda and the Tasian Culture, London 1937, pls XII, XXVI.

والأساور التي كانت تعد من الأصداف، كما كان الريش من عناصر الزينة عندهم. وعرفوا نسج القماش من الكتان، وصناعة السلال والوسائل التي عثر على بعضها تحت رؤوس الموتى. وكان أهل دير تاسا يدفنون موتاهم بعد أن يكفنوهم بالحصير أو بجلود الحيوانات أو بالكتان، ويرقدونهم على الجنب الأيسر في هيئة القرفصاء، ويجعلون وجوههم إلى الغرب، ويضعون معهم آنية أو أكثر من الفخار، وبعض الأدوات التي كانوا يستخدمونها في حياتهم وأدوات الزينة التي تخصهم، ولا سيما النساء منهم، تأكيداً لاعتقادهم بأن الموتى يحتاجون في دنياهم الثانية إلى أدواتهم ومتاعهم الدنيوي الأول. وكان القبر في دير تاسا حفرة صغيرة بيضوية الشكل، وقد يكون حجمها الصغير هو الذي حمل التاسيين على وضع موتاهم على هيئة الانثناء. وكانت الجبانة بعيدة عن مساكن الأحياء، بينما اعتاد أهل مرمدة بني سلامة على دفن موتاهم بالقرب منهم، بل في داخل أكواخهم(٣١).

وعاصر حضارة دير تاسا في الشمال حضارة حلوان العمري التي تختلف عن حضارة دير تاسا، لكنها أبدت مظاهر تشبهها في عدد من الخصائص العامة، كما تشابه فخارها مع فخار مرمدة بني سلامة، وشاركت هذه في طريقة دفن الموتى وإبقائهم قريبين(٣٢).

يختلف المختصون حول قدم الحضارات المذكورة في العصر الحجري الحديث. ولكن المقارنة بين إنجازاتها الحضارية على ضآلتها تقود إلى الاقتناع بأن حضارة دير تاسا المتقدمة نسبياً على حضارتي الفيوم ومرمدة بني سلامة كانت أحدث منها كليهما. وتأتي حضارة الفيوم (آ) في مقدمة هذه الحضارات(٣٣) نظراً إلى أن مجتمعها لم يتوصل إلى صنع فخار أملس وذي

---

(٣١) J. Baumgartel, The Cultures of Prehistoric Egypt I, Oxford 1955, p.14 - 20.

(٣٢) P. Bovier - La pierre, une nouvelle station neolitique el - Omari au nord d'Helouan, Congres International de Geographie, Le Caire 1925, p.276.

(٣٣) محمد بيومي مهران ٢٤٥.

J. Vercoutter, in Fischerweltgeschichte (= FW), 2,s. 213, 214.

أشكال فنية كالذي عرفته حضارة مرمدة ودير تاسا. ومنه فإن حضارة مرمدة بني سلامة التي تعد أكثر تطوراً من حضارة الفيوم تقع زمنياً بين حضارة الفيوم وحضارة دير تاسا التي تمثل الفصل الأخير للعصر الحجري الحديث (النيوليتي) في مصر، إذ انتقل أهلها بعده إلى العصر الحجري النحاسي الذي ظهرت فيه حضارات البداري، ونقادة الأولى، ونقادة الثانية.

حضارات العصر الحجري ـ النحاسي (الكالكوليتي Chalcolith):

شهدت مصر في فجر تاريخها تطوراً مستمراً في المجالين الصناعي والاجتماعي بعد معرفة الزراعة. ويمثل الخطوة الأولى من ذلك التطور التوصل إلى استخدام النحاس بعد استخلاصه من أخلاطه الطبيعية في صناعة أدوات صغيرة كالدبابيس التي استخدمت في شبك الأردية الجلدية والكتانية، وبعض المدى والأسلحة الصغيرة، إضافة إلى استخدامه في صناعة بعض من أغراض الزينة كالخرز الصغير، وفي صناعة المثاقب الدقيقة التي كانت تستعمل لثقب حبات الخرز الحجرية. ثم تطور استخدامه في صناعة الأدوات الأخرى في وقت لاحق بعد التوسع في الحصول على المعدن من مصادره في شبه جزيرة سيناء وفي بعض مناطق الصحراء الشرقية. ولكن استخدام الحجر في صناعة الأدوات المتنوعة لم يتراجع إلا بعد أن عم استخدام معدن النحاس وخلطه مع معادن أخرى تم اكتشافها مثل القصدير والرصاص في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.

وتوضحت في هذا العصر التجمعات البشرية في الوادي والدلتا، وظهرت المجتمعات القروية على حواف المناطق الزراعية وعلى الحواف الصحراوية، أو في المناطق المرتفعة ابتغاء الابتعاد عن الرطوبة وتحسباً لفيضان النهر. ثم ما لبثت أن اتصلت القرى المتباعدة ببعضها لاتصال أهلها واحتكاكهم السلمي لدواع تجارية أو اجتماعية، كالارتباط بالزواج وبالنسب، أو الاشتراك في المعتقدات الدينية. أو كان الاتصال بين أهالي القرى لأسباب قسرية تأتت من سعي بعض القرى إلى فرض نفوذها على القرى الضعيفة، فنشأت نتيجة لذلك قرية قوية تحولت إلى حاضرة لمجموعة من القرى، وإلى

مدينة تميزت بأسوار حصينة، وأسواق وصناعة متميزة استقطبت العمال والحرفيين والتجار، ما لبثت أن غدت عاصمة لمجموعة من القرى والمدن الصغيرة التي شكلت إقليماً ذا زعامة سياسية وإدارة اقتصادية في زمن لاحق من فجر التاريخ الذي لاحت تباشيره في مصر فيما يسمى اصطلاحاً بعصر ما قبل الأسرات، أو عصر ما قبل الكتابة. ويسمى كذلك بالعصر «الإينوليتي» أي العصر الحجري الأحدث.

وظهرت في العصر الحجري - النحاسي هذا حضارات استخدمت معدن النحاس وأبدت تقدماً ملحوظاً في صناعة الفخار والحجر وغيرها من المواد الطبيعية، وتطوراً في عقائد القوم الدينية. وتمثل حضارة هذا العصر آثار تم العثور عليها في موقعين هما البداري ونقادة.

البداري:

تقع البداري على الضفة الشرقية للنيل إلى الجنوب من أسيوط حيث أجريت حفريات أثرية بين عامي ١٩٢٢ و١٩٢٥ في المنطقة القريبة من دير تاسا التي لا تبعد كثيراً عنها في الشمال. غير أن الكشوفات الأثرية أثبتت اختلاف الحضارتين من الناحية الزمنية، إذ تأكد معرفة البداريين للنحاس دون التاسيين، ولوحظ اهتمام البداريين بمقابرهم وعنايتهم اللافتة بحياة موتاهم الثانية، ووضوح عقائد ما بعد الموت عندهم، فضلاً عن ارتقاء صناعة الفخار عندهم، ونجاحهم في تشكيل التماثيل الصغير من الفخار والعاج، واختلاف أهالي الحضارتين من حيث الجنس الذي ينتمون إليه[٣٤].

استخدم أهل البداري معدن النحاس في صنع بعض الأدوات الصغيرة التي ذكرنا أمثلة عنها لدى حديثنا عن العصر الحجري - النحاسي. وأبدوا عناية بموتاهم وبالأدوات التي توضع معهم، فظهرت لديهم بدعة جديدة

(٣٤) محمد بيومي مهران ٢٤٨؛ عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها ١١٢؛
J. Vandier, Manuel d'archeologie egyptienne, I, Paris 1952, P.192; G. Brunton - G Caton - Thompson, The Badarian Civilisation and Predynastic Remains Near Badari, London 1928, p. 27, 32, 41.

تتصل بوضع الميت على لوحة مسطحة، قد تكون بداية للتفكير في صنع التابوت، وبطنوا جوانب المقبرة بالحصير لتقويتها. ودفنوا موتاهم على هيئة القرفصاء في مدافن تقع شرقي مساكنهم، وكانت تلك المقابر شخصية وليست عائلية كمقابر التاسيين، وعثر على مقابر خاصة بالرجال دون النساء. كما تبين أن وجوه الموتى كانت تتجه نحو الغرب في غالبيتها اعتقاداً من القوم بأن ذلك مجيء الموتى لاستقبال أرواحهم من عالم الموتى الذي يقع في تلك الجهة غربي نهر النيل. وإذا وجدت بعض الحالات التي ظهرت فيها وجوه الموتى باتجاه الشرق فإنما يدل ذلك (برأي العالمة مرجريت مري M. Murry) إلى أن أصحابها من غير البداريين ممن عبدوا الشمس فحرص ذووهم على أن يستقبلوا الشمس عند شروقها[٣٥]. وزود البداريون موتاهم بالأدوات والقرابين إيماناً منهم باستمرار الحياة في العالم الآخر، ووضعوا معهم بعض التماثيل الصغيرة لبعض الحيوانات. وأظهروا الود للحيوانات ذات الصلة بحياتهم كالأبقار والخراف فدفنوا بعضها بعد أن كفنوها كما كفنوا بعض موتاهم بلفائف من الجلد أو القماش[٣٦].

وعني البداريون بأدوات الزينة، رجالهم ونساؤهم، من قلائد وأساور صنعوها من الأصداف والخرز والعاج والعظم، واستخدموا الأمشاط العظمية والعاجية، وصنعوا إبراً من النحاس، وخلفوا ملاعق من العاج بأشكال تشبه أشكال ملاعق اليوم. كما أبدوا اهتماماً بالتماثيل الإنسانية والحيوانية التي شكلوها من الصلصال والفخار أو العاج، وعملوا على زخرفة أوانيهم الفخارية كأسلافهم التاسيين وإن كان ذوقهم الفني أرقى وأبلغ تعبيراً، إذ تميز فخارهم بإتقان صناعته، وصلابة مادته، ورقة جدرانه. وعرف أهل البداري الملابس المنسوجة من الكتان، كما ارتدوا الجلود الصوفية وعرفوا الدباغة.

شغلت الحضارة البدارية مساحة واسعة من الصعيد، شارفت حدود

---

(٣٥) عبد العزيز صالح، المرجع السابق ١١٨؛
M.A. Murry, Burial Customs and Beliefs in the Hereafter in Predynastic Egypt, JEA 42, p. 89 (1956).

(٣٦) J. Vandier, Manuel d'Archeologie Egyptienne, p. 197.

مصر الوسطى شمالاً، ووصلت إلى النوبة جنوباً، وعاصرتها في الشمال حضارة الفيوم (ب) التي ظهر فخارها بأشكال أكثر تنوعاً من حضارة البداري، لكن صناعته كانت أقل براعة. كما استطاع أهل هذه الحضارة أن يطوروا صناعة الأواني الحجرية التي عرفت في مرمدة بني سلامة إلى أشكال أكثر جمالاً من تلك التي عثر عليها في مرمدة[٣٧].

حضارة نقادة الأولى:

نُسِبَت هذه الحضارة التي أعقبت حضارة البداري إلى موقع نقادة الذي كان مجرد جبانة لمدينة نوبت التي كانت تقع إلى الشمال منها (وقامت على أطلالها بلدة طوخ الحالية على الضفة اليسرى للنيل في محافظة قنا)، والتي عرف عنها أن معبودها المحلي كان ستخ أو ست الذي أصبح من بعد رباً للصعيد كله.

ظهرت الحضارة في هذه المنطقة بطابع محلي خاص سمي اصطلاحاً باسم عهد نقادة الأول، ثم اشتركت مناطق أخرى تمتد بين الصعيد بمختلف بقاعه وتصل إلى قلب الدلتا بمظاهر حضارية واحدة أخرى دعيت نسبة إلى الموقع نفسه باسم حضارة نقادة الثانية.

ويبدو أن أبرز مظهر حضاري في نقادة كان يتمثل في أوانيها الفخارية التي وجدت كميات كبيرة منها في مقابرها، والتي أظهرت تطوراً واضحاً في أشكالها وألوانها وزخارفها البارزة والغائرة، مما دعا العالم فلندرز پتري Flin-ders Petrie إلى الاستعانة بالفخار لتحديد التتابع الزمني Sequence of Dates لآثار المنطقة إلى تسع مجموعات رئيسية تشتمل كل منها على مجموعات فرعية، وانتهى إلى أن هذه المجموعات تمثل خمسين مرحلة من مراحل التطور، إلا أنه بدأها بالمرحلة رقم ٣٠ وانتهى إلى المرحلة التي أعطاها رقم ٧٩، وترك الأرقام ١ ـ ٢٩ لما يمكن أن يظهر من آثار أقدم من حضارة نقادة.

---

(٣٧) J. Vercoutter, FW, 2, S. 219.

ونخلص من ذلك إلى الترتيب التالي بعد اكتشاف حضارة البداري الذي تم بعد العثور على حضارة نقادة(٣٨):

٢١ - ٢٩ حضارة البداري.

٣٠ - ٣٩ حضارة نقادة الأولى (العَمْرة، وتقع إلى الشمال من موقع نقادة).

٤٠ - ٦٢ حضارة نقادة الثانية (عصر ما قبل الأسرات الأوسط، أو الجرزية).

٦٣ — ٧٦ عصر ما قبل الأسرات الحديث (أو الجرزية الحديثة).

٧٧ - ٧٩ بداية العصور التاريخية.

تميزت رسوم الفخار الأولى في نقادة بخطوط مستقيمة وأخرى مائلة، وبخطوط متقاطعة ملأت الفراغات، ذات لون أبيض. وكانت الأواني الفخارية على هيئات عدة، وبينها كؤوس متعددة القوائم، واستعان الصناع بتلك الخطوط لرسم طائفة من حيوانات بيئتهم، ونماذج من قواربهم، وصوروا بعضاً من نشاطاتهم، ومنها راقصون وراقصات، فرادى وجماعات، وهم يؤدون الحركات الحيوية، ويزين بعض الرجال منهم الرؤوس بالريش الطويل، من دون أن ينجحوا في تصوير هيئة الإنسان كما نجحوا في تصوير هيئة الحيوان. كما صوروا مناظر للصيد البري، ومارسوا فن النقش على الحجر. وظهرت هيئة تاج الوجه البحري لأول مرة في الآثار المصرية على وجه آنية، كما ظهرت صورة أخرى تمثل صقراً يقوم على إطار مستطيل يرمز في العصور التاريخية إلى واجهة قصر الملك الحاكم (السرخ)، وثالثة ترمز إلى ربة الخصب أو ربة مدينة نوبت. وظهرت على الأواني رموز تشير إلى أصحاب الأواني وربما إلى صناعها أيضاً، كما تفعل شركات اليوم.

وتطور فن صناعة التماثيل في حضارة نقادة الأولى من الصلصال

---

(٣٨) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford 1964, p. 389; FW, 2, S. 220.

عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ٥٤.

والفخار ومن العاج، وكانت أغلبها للنساء، إذ كانت توضع في المقابر اعتقاداً بفائدتها في العالم الآخر، إن كانت تمثل الزوجات أو الجواري اللائي يكفلن للرجل الأولاد، أو الربات اللواتي يتمنى أن يسبغن عليه الحماية(٣٩).

كما صنع أهل نقادة الخناجر التي لا تختلف عن خناجر العصور الحجرية، والسكاكين ذات الأشكال المختلفة، وغيرها من الأدوات والأواني للاستخدام اليومي.

ورأى بعض الباحثين شبهاً بين التماثيل العاجية النقادية وبين التماثيل المعروفة في فجر التاريخ في بلاد الرافدين، الأمر الذي يشير إلى توافر صلات بين أهل الحضارتين. وقد يؤكد ذلك العثور على صورة مراكب ذات مقدمة مرتفعة على آنية نقادية كالتي عرفت في بلاد الرافدين. ولا يستغرب ذلك إذ إن سبل الاتصال بين مصر وبين بلاد الرافدين كانت مفتوحة عبر شبه جزيرة سيناء بالنسبة إلى أهل الدلتا، وعبر وادي الحمامات والبحر الأحمر بالنسبة إلى أهل الصعيد(٤٠).

حضارة نقادة الثانية (أو عصر الحضارة الجرزية):

توسع أهل هذه الحضارة في استخدام النحاس في صناعة الأدوات المنزلية كالملاعق والمدى والأغطية لبعض القدور، وفي صنع الأدوات الزراعية من رؤوس الفؤوس والأزاميل وغيرها من الأدوات مما يستخدمه المقاتلون من خناجر ورؤوس الحراب. وتطورت زخارف الأواني الفخارية ورسومها التي احتوت على صور الأحياء والنباتات والمراكب. وملأوا الفراغات باللون الأحمر عوضاً عن الخطوط البيضاء التي اعتاد أسلافهم على رسمها على سطوح الفخار. وصوروا النساء والرجال على تلك السطوح في مجال الرقص الديني

---

(٣٩) عبد العزيز صالح، المصدر السابق ٥٧.

(٤٠) Winkler, Rock Drawing of Southern Upper Egypt 1938; Massoulard, Prehistoire et Protohistoire d'Egypte 1940, 93.

عبد العزيز صالح ٥٨.

والدنيوي بحركات حيوية، ظهرت من خلالها الأيدي في مستويات مختلفة فوق الرأس أو على الخصر، أو وهي تمسك بأيدي الآخرين. وظهرت الراقصات منفردات أو وهن يرقصن (أو وهم يرقصون) مع غيرهن (أو غيرهم)، بمصاحبة التصفيق أو من دونه.

كما ظهرت صور للحيوانات الداجنة والطيور الأليفة، وازداد ظهور صور المراكب على الأواني الفخارية، مما يشير إلى كثرة استخدام المراكب في نهر النيل وفي ترعه. كما نقش الرسامون على الأواني الحجرية صوراً تعبر عن أفكار أهل نقادة وأساطيرهم، وظهرت نماذج منها بأشكال فنية متميزة بهيئات متعددة، هندسية وعلى هيئة الطيور والأسماك وأفراس النهر والفيلة. ونقشوا صور الحيوانات الأليفة والبرية وصور النباتات على الأمشاط وعلى مقابض السكاكين العاجية، وتخيلوا كذلك أشكالاً لحيوانات خرافية كالأسود والفهود والثعابين مجنحة أو ذات هيئات مخيفة صوروها على اللوحات الحجرية[٤١]. ومن اللافت أن أدوات الزينة تعددت أشكالها باستخدام مواد متنوعة تشتمل على الأحجار الكريمة أكثر فأكثر كالفيروز واللازورد والعقيق والعقيق اليماني علاوة على النحاس والعاج، والذهب الذي يبدو أن استخدامه في هذا العصر غدا أكثر انتشاراً.

وتطور فن النحت الذي بدأ يعبر عن عقائد المصريين الدينية الأولى. فظهر تمثال حجري للصقر الذي يعد رمز أقدم إله مصري هو الإله حور (حوروس)، وآخر لرأس بقرة يمثل، كما هو معروف في العصور التاريخية، رمز الإلهة حتحور[٤٢].

كما تطور في هذا العصر بناء البيوت ومعه بناء المقابر، فظهر القبر على شكل حفرة مستطيلة، يشتمل أحياناً، ولا سيما إذا كان يخص أحد الأثرياء، على حجرتين أو أكثر، وما عاد النموذج البيضوي شائعاً. وصار الميت يوضع

---

(٤١) عبد العزيز صالح ٦٢.
(٤٢) FW, 2, S. 223.

في القبر بحيث يكون رأسه باتجاه الشمال، ووجهه باتجاه الشرق، وهو تقليد أصبح متبعاً في كل العصور اللاحقة(٤٣).

انتشر نفوذ حضارة نقادة الثانية، أو كما يسميها بعضهم «الحضارة الجرزية» نسبة إلى مستوطنة جرزة التي عثر على آثارها قرب الفيوم، بين الفيوم ومنف (ممفيس حيث تقوم القاهرة اليوم) في الشمال والصعيد في الجنوب. ويصعب على الأثاريين اكتشاف آثار هذه الحضارة في منطقة الدلتا، والوجه البحري عموماً، لأسباب تتصل بطبيعة أرضها التي تتصف بشدة رطوبتها، وانتشار السبخات المائية فيها، وكثرة الفروع المائية، وشدة طغيان الفيضانات عليها، وكثرة ترسيب الطمي فيها، مما ترتب عليه سرعة تحلل الآثار فيها، وتعذر الوقوع عليها، وتستوي في ذلك آثار فجر التاريخ مع آثار العصور التاريخية، مما يجعل مناطق الوجه البحري أقل حظاً من مناطق الوجه القبلي فيما بقي من آثارها الحضارية القديمة(٤٤).

ويختلف الباحثون حول أصل أهل حضارة نقادة الثانية وحول أصلهم. فيفترض فريق منهم أنهم وفدوا على وادي النيل من مناطق جبال البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء وشمالي الحجاز(٤٥)، أي من جهة الشرق. بينما يفترض فريق آخر منهم أنهم كانوا من أهل الوجه البحري، أي من أهل مصر نفسها(٤٦). ولا شك في أن أهل هذه الحضارة كانوا على صلة بجيرانهم من أصحاب الحضارات المعاصرة، إذ يشير العثور على نوع متميز من الأباريق الفخاري المعروفة في فلسطين في جرزة نفسها في هذا العصر إلى تلك العلاقات المؤكدة(٤٧).

---

(٤٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٢.

(٤٤) المصدر السابق، ص ٢٢١؛ عبد العزيز صالح ٦٥.

(٤٥) W. F. Petrie, Prehistoric Egypt, 16 f. 44 f.; The Making of Egypt 47; R. Weill, Recherches sur la Ier Dynastie et les temps des Prepharaoniques, le Caire 1967, Ii 27, F.

(٤٦) P. Newberry, in Liverpool Ann. of Arch. and Anthrop. V, 232; «Egypt as a field for anthropological research» 446; Ancient Egypt, 1914, 7 - 8; Loret, Rev. Eg. X1, 75f.; Moret, Des Clans aux Empires 142.
عبد العزيز صالح ٦٥.

(٤٧) FW, 2, 223.

الباب الثاني
العصور التاريخية

الفصل الأول
عصر بداية الأسرات الملكية ـ العصر الثيني

تمهيد بأقسام العصور التاريخية:

عاشت مصر في عصورها التاريخية التي بدأت باختراع الكتابة المصرية القديمة ثلاث دورات تاريخية رئيسة هي: عصر الدولة القديمة، وعصر الدولة الوسطى، وعصر الدولة الحديثة. كانت مصر فيها موحدة وقوية، وكان الاستقرار السياسي والازدهار الحضاري والاقتصادي سمة بارزة من سمات العصر، ومركزية الحكم تضفي على الملك هالة من الهيبة والاحترام. وتخلل هذه العصور عصران هما: عصر الانتقال الأول، ويقع بين عصر الدولة القديمة وعصر الدولة الوسطى، ثم عصر الانتقال الثاني، ويقع بين عصر الدولة الوسطى وعصر الدولة الحديثة. ويطلق عليهما كذلك اسم عصري اللامركزية الأول والثاني، لأنهما اتسما باضطراب سياسي وأمني، وانتقال من القوة إلى الضعف السياسي والإداري وغياب مركزية الحكم وانقسام البلاد وتفكك وحدتها. وأعقب عصر الدولة الحديثة عصور تسمى العصور المتأخرة (أو خواتيم العصور الفرعونية)، بدأت مظاهرها منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وانتهت بانتهاء الحكم الفرعوني القومي ودخول الإسكندر المقدوني مصر في خريف عام ٣٣٢ ق.م، كانت مصر في أثنائها تتغير أحوالها بين القوة والضعف، وبين المركزية واللامركزية، واختلطت فيها بعض العناصر الدخيلة بالمصريين اختلاطاً واضحاً، وتعرضت أرضها لأكثر من غزو أجنبي.

يعتمد المؤرخون التقسيم المذكور في دراستهم لتاريخ مصر، ويوزعون الأسر الفرعونية الحاكمة الثلاثين على العصور المختلفة، وهي أسر اختلفت أصولها ومواطنها، وتعددت العواصم التي اتخذوها لحكمهم الذي امتد حوالى ثلاثة آلاف عام.

١ ـ **عصر بداية الأسرات**: وهو العصر الذي بدأت به عصور مصر التاريخية، ويسمى أيضاً العصر العتيق، والعصر الثيني. ويبدأ هذا العصر في فترة ما من القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد، ويمتد إلى حوالى عام ٢٧٨٠ ق.م، وتمت في بدايته وحدة مصر التاريخية الأولى على يد الملك مينا الذي وحد مملكتي الوجه القبلي والوجه البحري، وكان أول ملك على مصر بكاملها ومؤسس الأسرة الأولى. ثم ظهرت الأسرة الثانية في هذا العصر الذي امتاز تاريخياً بمعرفة الكتابة منذ بدايته، وبظهور المصادر التاريخية المكتوبة. ويعد هذا العصر عصر التكوين لنظام الحكم والإدارة، والأساس الذي بنت عليه حكومات العصور اللاحقة.

٢ ـ **عصر الدولة القديمة**: وقد بدأ بالأسرة الثالثة في أوائل القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد، وانتهى بالأسرة السادسة في أواخر القرن الثالث والعشرين ق.م. وكانت عاصمة الدولة مدينة منف (ممفيس)، فدعي عصر الدولة القديمة نسبة إليها بالعصر المنفي، واتسم العصر بالاستقرار السياسي النسبي وبمركزية الحكم، وظهرت فيه أبرز المعالم الحضارية المصرية الباقية وهي الأهرام المنتشرة بين ميدوم ودهشور وسقارة والجيزة جنوبي مدينة القاهرة، وقد سمى بعضهم العصر لذلك «عصر بناة الأهرام».

٣ ـ **عصر الانتقال الأول (أو عصر اللامركزية الأول)**: وكانت بدايته بانتهاء الأسرة السادسة حوالى أواخر القرن ٢٣ ق.م، وامتد إلى نهاية حكم الأسرة العاشرة في أواسط القرن ٢١ ق.م، وكان عصر انتقال من مركزية الحكم الموحد إلى تعددية في الحكام ومراكز الحكم، وشاع فيه القلق والخلل السياسي والإداري، غير أنه شهد تحولاً اجتماعياً بانتعاش أحوال الناس من الطبقة الوسطى والبسيطة، وتغييراً في بعض العقائد الدينية والمبادىء السياسية.

٤ ـ **عصر الدولة الوسطى**: استغرق هذا العصر حوالى ثلاثة قرون من

النصف الثاني للقرن الواحد والعشرين ق.م، منذ منتصف الأسرة الحادية عشرة، إلى أوائل القرن الثامن عشر، إذ كانت الأسرة الثانية عشرة في نهاية عهدها. وتميز باستعادة المركزية والسلطة الملكية ووحدة البلاد، مع الإبقاء على مكتسبات عصر الانتقال الأول، واتساع العلاقات التجارية مع شعوب البلاد المجاورة. وكان العصر الذهبي للغة المصرية وآدابها التي بلغت درجة عالية من الكمال والنضج اللغوي والأسلوبي كما يبدو من قصة سنوحي التي كتبت في عهد الأسرة الثانية عشرة. وكانت طيبة عاصمة الدولة في عهد الأسرة الحادية عشرة، ثم انتقلت العاصمة إلى مدينة إثت تاوي (قرب الفيوم) زمن الأسرة الثانية عشرة.

٥ - **عصر الانتقال الثاني (أو عصر اللامركزية الثاني)**: وتميز بعودة مصر إلى الضعف بعد أن سادت البلاد الفرقة السياسية، وتعددت شخصيات الحكام، وانتقلت الأوضاع من الاستقرار إلى القلق وضاعت إمكانيات الدولة الاقتصادية وقلت مواردها بسبب فقدان الأمن وتوقف النشاط التجاري الداخلي والخارجي ثم بدخول الهكسوس البلاد. واستمرت مصر على هذه الأحوال منذ منتصف الأسرة الثالثة عشرة في أوائل القرن الثامن عشر إلى أواخر عصر الأسرة السابعة عشرة في النصف الأول من القرن السادس عشر ق.م. حين وفق المصريون في طرد الهكسوس الأجانب من بلادهم ونجحوا في تحريرها منهم.

٦ - **عصر الدولة الحديثة**: وتميز بالتوسع الخارجي بعد أن عادت الوحدة ومركزية الحكم إلى البلاد، وبالانطلاق الواسع في مجال السياسة العالمية والتبادل الحضاري والتجاري، وببلوغ الذروة في الرخاء العام وفي الفنون، وفي رقي المذاهب الدينية حتى مرتبة الوحدانية في عهد الملك أمنحوتب الرابع (أخناتون). وامتد العصر الذي بدأ بالأسرة الثامنة عشرة في النصف الأول من القرن السادس عشر ق.م. إلى بداية القرن الحادي عشر ق.م. بنهاية الأسرة العشرين، بعد أن استغرق أكثر من

خمسة قرون، وكانت طيبة عاصمة الدولة الأولى، ثم أصبحت أخيتآتون عاصمة للبلاد زمن أمنحوتب الرابع. وما لبث أن عادت طيبة عاصمة لمصر، ثم انتقلت العاصمة إلى مدينة بر رعمسو التي بناها رعمسيس الثاني شرقي الدلتا.

٧ - **العصور المتأخرة**: وكانت متأخرة فعلاً من حيث الزمن ومن حيث الإنجازات الحضارية. وقد بدأت ظواهر الضعف السياسي تلوح في الأفق منذ نهاية الأسرة العشرين في بداية القرن الحادي عشر ق.م. وتميزت بانتقال السلطة إلى الأغراب والمهجنين، بعد انتهاء عصر الأسرة الحادية والعشرين، من ليبيين ونوبيين، ثم خضعت مصر لحكم الأشوريين فترة من الزمن إلى أن تمكن مؤسس الأسرة السادسة والعشرين من طرد الأشوريين، فعاشت البلاد نهضة جديدة في عصر هذه الأسرة، دعيت باسم عصر النهضة الصاوي، نسبة إلى عاصمتها صا (الحجر)، الذي تميز بعودة المركزية والوحدة السياسية إلى البلاد، واستغرق حوالى قرن وربع القرن (بين ٦٦٥ - ٥٢٥ق.م). ثم ما لبث الفرس أن وضعوا نهاية لهذا العصر الصاوي في زمن ملكهم قمبيز. ولم يستكن المصريون للحكم الفارسي في عصر الأسرة السابعة والعشرين، حتى نجح مؤسس الأسرة الثامنة والعشرين في الانتصار على الفرس وتحرير مصر من ربقة سيادتهم. واستمر الحكم الوطني في عصر الأسرتين التاسعة والعشرين، والثلاثين - وهي الأخيرة - برد محاولات الفرس لاسترجاع الحكم في مصر، وقد نجحوا بذلك فعلاً في حوالي عام ٣٤١ ق.م. إلا أن الإسكندر المقدوني وضع حداً للحكم الفارسي والحكم الفراعنة المصريين معاً في عام ٣٣٢ ق.م، وألحقت مصر بالأمبراطورية اليونانية، ورزحت تحت حكم قائد الإسكندر بطليموس الذي أسس دولة البطالمة.

التطور السياسي فيما قبل الأسرات:

لم يتم توحيد مصر بأقاليمها الكثيرة الممتدة بين البحر الأبيض المتوسط

في الشمال وبلاد النوبة في الجنوب دفعة واحدة، بل استغرق وصولها إلى شكلها الوحدوي الذي عرفت به في الأدوار التاريخية الرئيسة زمناً طويلاً يصعب تحديده، ومرت مصر في خلال ذلك الزمن بتطورات اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية هيأت لأقاليمها الظروف المناسبة لقيام الوحدة، ونشأة الدولة المصرية التي تزعمها ملك مصري واحد لقب فيما بعد بالفرعون الذي أعطى مصر تسمية مميزة تعوّد المؤرخون على استخدامها لدى الحديث عن مصر في عصورها التاريخية القديمة إذ دعوها «مصر الفرعونية» أو «مصر الفراعنة» أو «العصر المصري الفرعوني»، ويقصدون بذلك تاريخ مصر القديم منذ قيام الأسر الملكية (الفرعونية) حتى سقوطها بمجيء الإسكندر المقدوني.

كان من نتائج استقرار الأفراد في مناطق الزراعة الأولى أن نشأت القرى التي اتصل سكانها ببعضهم لأسباب اقتصادية واجتماعية، تحدوهم الرغبة في تبادل المواد الأولية التي قد تتوافر في قرية دون أخرى، أو للحصول على منتوجات «صناعية» مبتكرة في منطقة لم تتوصل إلى إنتاجها منطقة أخرى، ثم أدى فائض الإنتاج إلى تصريف قسم منه في القرى المجاورة والسعي إلى مقايضته بسلع مختلفة. ونتج عن هذه الاتصالات علاقات مصاهرة وزواج بين تلك المجتمعات القروية. ثم ما لبث القرى أن كبرت وكثر سكانها، وبدأت بعض القرى تغدو مركزاً لنشاط اقتصادي أوسع، حتى أمست مراكز إقليمية، وحواضر لعدد من القرى التي اجتمعت في أقاليم متعددة، وحدت بينها المصالح المشتركة. فظهرت نتيجة لذلك الأقاليم، وكان كل واحد منها يضم عدداً من القرى، وأصبحت القرية الكبرى في كل إقليم حاضرة له ومركزاً يقيم فيه حاكم الإقليم الذي استطاع أن يفرض سيطرته وسلطته السياسية بقوته التي كان يستمدها من أنصاره وأهله على بقية القرى، فيخضع له سكانها ويدينون له ولمعبوده بالطاعة، ويتميز الإقليم نتيجة لهذا الوضع عن غيره من الأقاليم المجاورة بحاكمه ومعبوده الرئيس، ويصبح له رمز ذو صلة بالمعبود الأكبر الذي يكون مقره في عاصمة الإقليم، أو تكون له صلة بخصائص بيئة الإقليم النباتية أو بمهن الإقليم الغالبة في مجتمعه المحدود. ومن المحتمل أن عدداً من الأقاليم الصغيرة ما لبث أن ذاب في إقليم أكبر

بإرادة منه أو عن طريق القوة، وقامت ربما تحالفات واتحادات، فنشأت أقاليم كبيرة هيأت بدورها الظروف المساعدة لقيام ما يشبه الممالك الصغيرة التي وضعت حجر الأساس لدولة المستقبل الموحدة. ونستطيع أن نجمل التطور السياسي فيما قبل الأسرات بالخطوات التالية:

١ - اجتمعت أقاليم الوجه البحري الشرقية في مملكة كانت عاصمتها مدينة سميت (قرب سمنود الحالية وقرب فرع دمياط)، واتخذت شكل الحربة لواء لها، وجعلت عنجتي معبودها الأكبر الذي صور على هيئة إنسان يحمل ريشتين على رأسه، وبيده عصا معقوفة الطرف تعبر عن الحكم والسلطان.

٢ - كما اجتمعت أقاليم الوجه البحري الغربية في مملكة كانت عاصمتها تقوم مكان مدينة دمنهور الحالية، واتخذت الرب حور إلهاً أكبر لها رمزت له بهيئة الصقر وجعلت صورته على ألويتها.

٣ - اتحدت بعد ذلك مملكتا الوجه البحري في مملكة واحدة، كما يبدو، وأصبحت مدينة سايس عاصمة لها (حيث تقوم مدينة صا «الحجر» قرب فرع رشيد في غربي الدلتا)، واتخذ سكان المملكة المعبودة نيت حامية لهم، رمزوا لها بسهمين متقاطعين، أو بقوسين متشابكين، أو بجعبة سهام أحياناً باعتبارها من رعاة الحرب، كما جعلوا هيئة النحلة، واسمها بالمصرية القديمة بيت، شعاراً لدولتهم، وتقلد حكام المملكة تاجاً أحمر اللون.

٤ - اجتمع في تطور معاصر لما شهده الوجه البحري من تطورات شمل أكبر أقاليم الوجه القبلي في مملكة واحدة اتخذت مدينة نوبت في منطقة قنا عاصمة لها، وجعلت الرب ست إلهها الأكبر، وهو رب رمز له أتباعه بصورة حيوان أسطوري، وعدّوه من أرباب السماء والأمطار واعتقدوا بأنه يهز الأرض ويرسل العواصف، وله صريخ في السماء كأنه الرعد[1]. وقد ازدهرت حضارة نقادة الأولى في ظل هذه الدولة.

---

(١) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ٦٨.

٥ ـ بدأ الاحتكاك بين مملكة الشمال ومملكة الجنوب بعد ذلك يتطور إلى تنافس مكشوف على المناطق الواقعة بين أقاليم الوجه البحري وأقاليم الوجه القبلي الحدودية، كما يعتقد، بعد أن استقرت أوضاع المملكتين، وانتقلت عاصمة المملكة الشمالية من غربي الدلتا إلى شرقيّها، أي من مدينة سايس إلى مدينة عنْجة التي دعيت فيما بعد جدو، وأصبح أوزير (أوزيريس) إلهها الأكبر ونسبت المدينة إليه وصار اسمها «بر أوزير» الذي احتفظت به مدينة أبو صير الحالية[٢]. وقد يفسر انتقال العاصمة في الشمال من الغرب إلى الشرق غلبة مملكة الشمال على مملكة الجنوب بفضل أوزير الذي ساعد الشماليين في الحرب ومكّنهم من النصر، فاحتفظوا له بالإجلال وخصّوه بالتقديس والزعامة. ولعل ما يزكي هذا الاعتقاد ما تذكره الروايات الدينية القديمة عن تولي أوزير حكم البلاد بصفته أول ملك من البشر المؤلهين، أو أول الآلهة الأرضيين، حكم مصر، فصوروه على هيئة ملك متوج بتاج مزدوج يمثل تاج الشمال الأحمر وتاج الجنوب الأبيض، وفوقه ريشتان تشيران إلى رب مدينة عنجة عاصمة مملكة الدلتا الشرقية.

لم يستكن أهل الجنوب ويخضعوا لحكم الشمال، بل ثاروا عليه، وحققوا نصراً مكّنهم من إضعاف مملكة الشمال، كما تشير أسطورة أوزير وأخته إيسة (إيزيس) التي تحكي قصة الصراع الدموي بين أوزير وست الذي انتهى بمقتل أوزير على يد ست وست هو إله المملكة الجنوبية كما رأينا.

٦ ـ وحاولت مملكة الشمال في خطوة لاحقة أن توحد مصر بأقاليمها كلها، بعد أن وعى حكامها حقيقة ما يجب أن تؤول إليه الأحوال في مصر، فسعوا إلى بسط نفوذهم على الجنوب ثانية، واتخذوا عاصمة جديدة لهم على حدود مملكتهم الجنوبية في مدينة أونو (عين شمس الحالية) التي تتوسط بين أقاليم المملكة الشمالية في نهاية الدلتا وبين أقاليم مملكة

(٢) المصدر السابق، ٦٩.

الجنوب في نهاية الصعيد، وبقوا أوفياء لربهم أوزير، ولكنهم اعترفوا برب أونو القديم أتوم، وبرب آخر لها هو رع الذي آلت إليه الزعامة فيما بعد، وهو إله الشمس المعروف طوال عصور الدولة المصرية القديمة.

ولعل ظهور حضارة نقادة الثانية ووصول أصحابها من الشمال إلى الصعيد وصبغ حضارته بصبغتها في زمن الوحدة الثانية يؤكد قيامها وغلبة الشمال للمرة الثانية على الجنوب.

٧ - عاد الصراع بين الشمال وبين الجنوب بعد ضعف ألم بحكام الوجه البحري وضياع لنفوذ أربابه، وبعد أن انعقد لواء الزعامة للرب حور الذي يعدّه المصريون ابناً لأوزير من زوجته وأخته إيسة، وأطلق عليه لقب «المدافع عن أبيه» أو «المنتقم لأبيه»، كما تحكي الأسطورة التي ترمز إلى الصراع بين مملكة الوجه البحري بزعامة معبودها حور وبين مملكة الوجه القبلي بزعامة معبودها ست، إضافة إلى الرمز الأساسي للأسطورة إلى الصراع بين الخير والشر. وامتد تقديس حور في هذا الوقت إلى الجنوب حيث استطاع أن يجد لنفسه أتباعاً انتشروا في أقاليم متعددة.

٨ - لم يؤد الصراع بين المملكتين إلى انتصار حاسم لأي من الطرفين، بل عادت مصر إلى سابق عهدها بلداً ينقسم إلى مملكتين: مملكة للوجه البحري وعاصمتها مدينة «بـه»[٣] التي تقع أنقاضها شمال شرقي دسوق، اتخذ ملوكها المعبودة واجه إلهة حامية لهم، ورمزوا إليها بهيئة الحية التي وضعوها على جباههم إلى جانب اعتبار أنفسهم ورثة حور، ولبسوا التاج الأحمر، وانتسبوا إلى رمز النحلة «بيت» وتلقبوا بألقابها، وجعلوا نبات البردي شعاراً لهم. ومملكة في الصعيد قامت حاضرتها في

(٣) «بي» كانت تسمى جبعوت ، ثم سميت بالقبطية «بوتو»، وهو الاسم الذي أخذه الإغريق عنهم، قامت على أنقاضها قرية «أبطو» أو «تل الفراعين». وتعني التسمية بي «المقر» أو «العرش»، انظر: محمد بيومي مهران ٣٢٤.

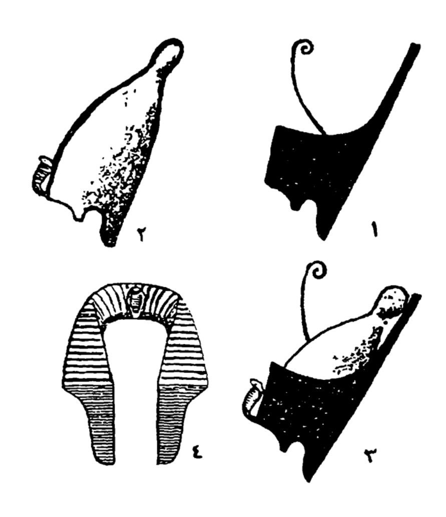
مدينة «نخن»[٤] في موقع قرية الكوم الأحمر الحالية شمالي إدفو، حيث تعبدوا كذلك للإله حور ورمزوا إليه بالصقر. ولبس حكامها تاجاً أبيض اللون، وجعلوا نباتاً يسمى «سوت» رمزاً لهم، وانتسبوا إليه وتلقبوا بلقب «سوتي» أو «نيسو». وأصبح زهر اللوتس شعاراً للدولة، واتخذ ملوكها المعبودة نخابة حامية لهم ورمزوا إليها بأنثى العقاب.

وقد قيض لمملكة الصعيد هذه أن توفق في توحيد مصر وحدتها التاريخية الكاملة، وأن يكتب لأحد ملوكها أن يكون الموحد الحقيقي الأول لمصر، وهو الملك نعرمر، أو مينا، كما اشتهر وتداول المؤرخون اسمه.

ولم يتخلف الفنانون المصريون القدماء عن التعبير عن روح العصر الذي عاشوا فيه، فاستعملوا ألواناً متعددة في رسم موضوعاتهم ذات الطابع الأسطوري، وصوروا مناظر قتال ومناظر صيد، وحيوانات بأوضاع مختلفة دلت على براعة الفنان وقدرته على التعبير بوضوح عما يجول في ذهنه من أفكار جسدها برسوم على جدران واسعة مكسوة بالملاط ولم يعد يكتفي بالرسم على سطوح الفخار. ومن بين تلك المعارك التي صورها أحد الفنانين معركة جرت على البر والماء بين فريقين مثّل أحدهما المصريون، ومثّل الثاني أناس على هيئة أهل الصحراء الغربية. وقد نقش الفنان وقائع هذه المعركة على مقبض سكين يعرف باسم سكين جبل العركي نسبة إلى الموقع الذي عثر فيه عليه تجاه نجع حمادي. ونقش الفنان على الوجه الثاني لمقبض السكين موضوعات مختلفة من بينها هيئة شيخ ملتح أشبه بهيئة الساميين القدماء وهو يرتدي رداء طويلاً، ويلبس عمامة فوق رأسه. ولعل في ذلك ما يدلل على وجود علاقات قديمة مع بلاد الرافدين وسورية منذ عصر الوركاء الذي سبق ظهور السومريين وقيام الدويلات السورية.

---

(٤) نخن أو نخن أي «الحصن»، أو «طفولة الرب»، ثم أصبح اسم المدينة عند الإغريق هيراكونبوليس، أي «مدينة الصقر» لصلتها بالمعبود حور. وقد عثر فيها على أهم وثائق قيام الملكية وتوحيد القطرين، ومن ذلك صولجان الملك «العقرب» ولوحة الملك نعرمر.



١ - التاج الأحمر (تاج الوجه البحري)
٢ - التاج الأبيض (تاج الوجه القبلي)
٣ - التاج المزدوج
٤ - لباس «النمس».

الواقعة على حواف الدلتا وشمالي مملكة الصعيد بادر الملك الصعيدي «العقرب» إلى التصدي لهم وردهم على أعقابهم، وأثبت حكام الصعيد بذلك قدرتهم العسكرية وأفصحوا عن عزمهم على جمع المصريين تحت زعامتهم بعد أن تهاون الشماليون في الدفاع عن تلك المناطق التي تعرضت لغزو سكان الصحراء؛ ولعل ما صور الفنان المصري على رأس صولجان الملك «العقرب»

المصنوع من الحجر الجيري ما يشير إلى محاولة هذا الملك فرض سيطرته على حواف الدلتا قبل الشروع في ضمها إلى ملكه، إذ تمثل نقوش الصف الأول من الصفوف الثلاثة التي نقشها الفنان على رأس الصولجان طيوراً ميتة معلقة في أعلام مقاتلي الصعيد، وترمز هذه الطيور بحسب الرأي السائد إلى ولايات الدلتا المتحالفة[٦]، مما يعني انتصار ملك الصعيد على منافسيه في الدلتا انتصاراً حاسماً شجّعه، وحفز خليفته نعرمر على المضي قدماً في طريق تحقيق الوحدة التاريخية.

لم يقيض إذاً للملك العقرب توحيد مصر، وإنما تمت الوحدة الفعلية والكاملة على يد الملك «نعرمر»، كما تسميه المصادر المصرية القديمة المعاصرة لذلك الحدث التاريخي العظيم، أو «مينا»، كما يدعى في المصادر المصرية التي تذكره بعد حوالى ١٧٠٠ عام على أقل تقدير[٧] من تلك المصادر الأولى. ويعني الاسم مينا «الراعي، الخالد».

ويبدو أن الملك نعرمر أو مينا كان له اسم ثالث تذكره المصادر التالية وهو «عحا»، وهو اسم حمله الملك ذاته بعد أن حقق انتصاره الحاسم على الشمال، إذ يعني «عحا» في المصرية القديمة «المحارب»، اعتزازاً منه بجهوده الحربية في سبيل السيطرة على الشمال[٨].

ويظهر الملك نعرمر على أحد وجهي اللوحة المشهورة التي تحمل اسمه وهو يتقلد تاج الصعيد (الأبيض)، المخروطي الشكل، بقوام فارع، وحجم كبير يميزه عن بقية المصورين معه، وقد أخذ بناصية أحد زعماء الخصوم، ويهم بضربه بمقمعته، بينما يرتفع في مواجهته صقر عظيم يرمز للمعبود حور، وهو يمسك بيده خطام رأس بشرية تخرج من أرض تنمو فيها سيقان نبات البردي، إشارة إلى أن المعبود يسلم الملك أرض الوجه البحري الذي يعد البردي

(٦) محمد بيومي مهران ٣٢٧.
(٧) J. Vercoutter, in FW 2, 234.
(٨) عبد العزيز صالح ٨٤.

شعاره، ويظهر تحت الملك صريعان مع اسم مدينة كل منهما. كما يظهر رسم الربة حتحور مضاعفاً في الأعلى بقرني البقرة المعكوفين.

أما على الوجه الثاني للوحة فيظهر الملك وعلى رأسه تاج الدلتا (الأحمر)، وهو يسير في موكب مهيب، يتقدمه أحد عظماء بلاطه، وأربعة من حملة الألوية.

وتتفق المصادر التاريخية القديمة، وفي مقدمتها بردية تورين، وقائمة أبيدوس، ومعهما المؤرخ المصري مانيتون على أن مينا هو الملك الأول في تاريخ مصر الفرعوني، ويؤكد ذلك تقلده تاج الجنوب وتاج الشمال. ويذكر مانيتون أن خلفاءه من الأسرة الحاكمة الأولى التي يعد مينا مؤسسها أيضاً، إضافة إلى أنه مؤسس دولة مصر الموحدة، يذكر ستة من الملوك، الذين خلفوا آثاراً تدل عليهم فعلاً في مدافن أبيدوس وسقارة، وهم: جر، وواجي، ودِن (أو أوديمو)، وعنجاب، وسِمِرخِت، وقاي عا.

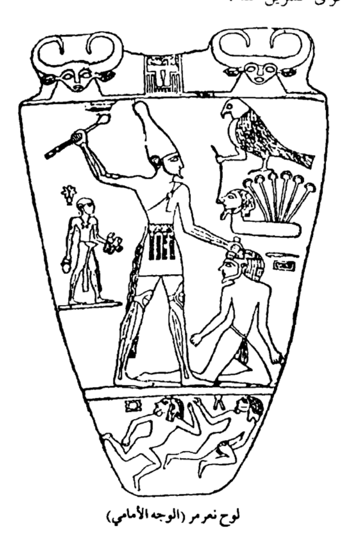
كما يذكر مانيتون أن مينا طال حكمه اثنتين وستين سنة. ويبدو من الآثار التي خلدت ذكر الملك عحا (أي مينا نفسه) أنه كان نشيطاً في محاربته لليبيين والنوبيين. وتنسب المصادر ذاتها إلى هذا الملك إقامته لأعياد دينية متعددة، وبناءه معبداً في مدينة ساو للربة نيت[٩] تأكيداً لاحترامه مقدسات المواطنين في الشمال، وتعبيراً عن ولائه لحامية مملكة الشمال السابقة، وأن الملك كان طبيباً وقام بكتابة عدد من المؤلفات الطبية. ثم يذكر مانيتون أن ابن مينا حكم من بعده سبعة وأربعين عاماً، وأنشأ قصراً ملكياً في مدينة ممفيس، وينسب إلى الملك واجي لقباً هو الملك «الأفعى»، وأنه قام بحملات عسكرية مثل سلفه جر خارج الحدود المصرية، كما أصابت البلاد في زمنه مجاعة[١٠] عصفت بأرواح الكثير من السكان. ومن الآثار الهامة التي تعود إلى زمن حكم خليفته على العرش دن لوحة صغيرة عثر عليها في مدفنه في

---

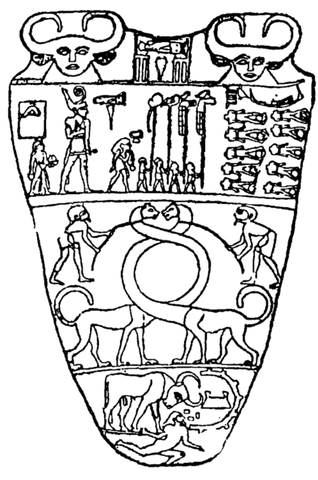
(٩) FW2, 238.

(١٠) المصدر السابق ٢٣٨.

أبيدوس تمثل الملك وهو يؤدي طقوس عيد السِدْ الذي كان يقام عادة بعد ثلاثين سنة من تسنم الملك تقاليد الحكم وجلوسه على العرش، أو من بداية اختياره لولاية العهد. ويعبر الملك بهذه الطقوس عن شكره للأرباب على ما وهبوه من عمر مديد وطول الحكم، ويعتقد هو، كما يعتقد الرعايا، أن الأرباب تجدد قوته، وتهبه القدرة والعزيمة اللازمتين لمتابعة الحكم إثر أدائه لهذه الطقوس والشعائر التي يشهدها الكهنة والمواطنون. وينسب إلى هذا الملك قيامه بحملات عسكرية كسابقيه، ويؤكد ذلك لوحة صغيرة تمثله وهو يقوم بضرب أعدائه الشرقيين. ويشير حجر بالرمو إلى احتفاله بأعياد دينية عدة وإلى أن إحصاء للسكان قد أُجري في عهده، وأن مدة حكمه للبلاد استغرقت حوالى عشرين سنة.



لوح نعرمر (الوجه الأمامي)

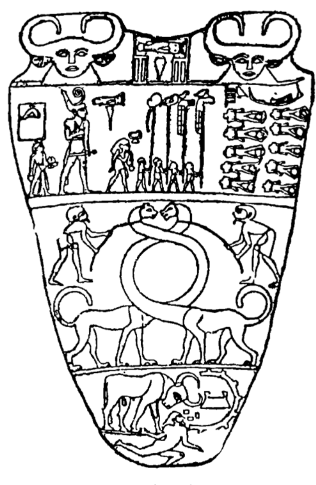


(الوجه الخلفي)

خلف دن الملكُ عنجاب الذي يحدد مانيتون حكمه بست وعشرين سنة؛ ويبدو أن قلاقل سياسية ألمت بالبلاد في عهده مما أدى إلى أن اسمه قد طمس من على أكثر من أثر خاص به. ويشير حجر بالرمو إلى قيامه بحملة عسكرية ضد البدو، كما يذكر تأسيسه عدداً من المدن. ثم خلفه الملك سِمِرْخِت الذي يبدو أنه اغتصب العرش ولم يخلف عنجاب بطريقة شرعية، وربما كان هو المسؤول عن طمس اسم سلفه، كما ذكرنا، وكما ينوه مانيتون الذي يقول: «في أثناء توليه الحكم حدثت معجزات كثيرة، وأصابت البلاد كارثة عظيمة»(١١).

---

(١١) المصدر السابق ٢٤٠.



(الوجه الخلفي)

خلف دن الملكُ عنجاب الذي يحدد مانيتون حكمه بست وعشرين سنة؛ ويبدو أن قلاقل سياسية ألمت بالبلاد في عهده مما أدى إلى أن اسمه قد طمس من على أكثر من أثر خاص به. ويشير حجر بالرمو إلى قيامه بحملة عسكرية ضد البدو، كما يذكر تأسيسه عدداً من المدن. ثم خلفه الملك سِمِرْخِت الذي يبدو أنه اغتصب العرش ولم يخلف عنجاب بطريقة شرعية، وربما كان هو المسؤول عن طمس اسم سلفه، كما ذكرنا، وكما ينوه مانيتون الذي يقول: «في أثناء توليه الحكم حدثت معجزات كثيرة، وأصابت البلاد كارثة عظيمة»[١١].

---

(١١) المصدر السابق ٢٤٠.

جلس سمرخت على عرش مصر ثماني عشرة سنة، ثم جاء من بعده الملك قاي عا آخر ملوك الأسرة الأولى الذي قام بطمس اسم سلفه من على آثاره، وألحق بمخلفات سلفه أضراراً كان الملك سمرخت نفسه قد أصاب بها آثار سلفه عنجاب. ولم يصلنا من عهده غير قيامه بالاحتفال التقليدي لعيد السِد. وانتهى حكم الأسرة الأولى بانتهاء حياة الملك قاي عا لأسباب غير معروفة، بعد قرنين ونصف من الزمن، كما يذكر المؤرخ مانيتون، ويقدر الباحثون أن وحدة مصر التاريخية التي تمت على يد مينا قد تزامنت مع تبلور مبدأ الكتابة المصرية القديمة، ووضوح طريقها في التعبير عن حاجات العصر، ولا سيما في تسجيل أخبار الحوادث الرئيسية، وتدوين بعض المعارف الدنيوية والعقائد الدينية، وذلك في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، أي في خلال القرن الثاني والثلاثين أو نحوه، حوالى عام ٣٢٠٠ أو ٣١٠٠ق.م.

الأسرة الثانية:

تبدأ الأسرة الثانية حكمها للبلاد بوصول الملك حوتب سِخِمْوي إلى العرش الذي يستدل من اسمه الذي يعني «أُصْلِحَتْ (أحوال) القوة المزدوجة» أن اضطرابات قد ألمت بالقطرين الشمالي والجنوبي في نهاية حكم الأسرة الأولى، فكان على حوتب سخموي أن يهدىء القلاقل، وأن يضع حداً لما يحدث في مناطق المملكتين السابقتين من مشاكل سياسية حالما وصل إلى الحكم. وخلف حوتب سخموي بحسب ما جاء في تاريخ مانيتون ثمانية ملوك، ولكن الآثار تكشف عن أسماء سبعة منهم حتى وقت قريب، وهم: نبي رع، وني نثر، وأونح، وسنج، وبر إبسن، وخع سخم، وخع سخموي.

ولما كان حجر بالرمو قاصراً عن تقديم المعلومات الوافية عن عهد الأسرة الثانية، وتعتور أخباره ثغرات كثيرة عنه، فإن المصادر التي تتحدث عن هذه الفترة التاريخية من عمر الدولة الفتية الموحدة شحيحة، ولا تلقي الأضواء الكافية على حوادثه الهامة. ولكن مانيتون يخبر عن أن الأرض قد انشقت في بوباسطة (شرقي الدلتا) وأن عدداً من الناس في زمن الملك الأول من الأسرة

الثانية الذي حكم البلاد ثمانية وثلاثين عاماً قد لقوا حتفهم في الزلزال المذكور. كما يذكر مانيتون أن السكان في ممفيس أخذوا بعبادة ثيران أبيس، ومْنيفيس في هليوبوليس (عين شمس/ أونو)، وتيس منديس (شرقي الدلتا) في عهد الملك الثاني نبي رع الذي حكم البلاد تسعة وثلاثين عاماً، مع أن طقوس عبادة أبيس (الثور المقدس) معروفة في مصر منذ بداية عصر الأسرة الأولى. ويشير حجر بالرمو إلى أن الملك ني نثر كان يحتفل بالأعياد الدينية، وأنه تم في عهده الذي طال سبعة وأربعين عاماً تعداد للسكان، ويضيف قائلاً: إنه تقرر منح المرأة حق ممارسة الحكم الملكي؛ ويعني ذلك أن المصريين كانوا لا يرون غضاضة في أن تحكمهم ملكة وحدها، أو تشارك الملك في الحكم، ولكنه يشير كذلك إلى الخلاف حول دور المرأة في الحكم، مما أدى إلى إصدار تشريع رسمي لحسم الموضوع.

ويحدد مانيتون سني حكم أونج بسبعة عشر عاماً، بينما يجعلها واحداً وأربعين عاماً للملك سنج، من دون ذكر لحوادث معينة تستحق الوقوف عندها في عهدي هذين الملكين. ولكنه يتحدث عن عهد بر إبسن الذي شهد، كما يبدو، خصومة دينية ـ سياسية بين الشمال والجنوب من جديد، إذ يغير هذا الملك لقبه ذا الصلة بالرب حور الذي اتخذه عند اعتلائه العرش إلى لقب ذي صلة برب الصعيد القديم ست، فشذ بذلك عن سنة أسلافه الذين كانوا يعتبرون أنفسهم خلفاء حور وورثته في حكم مصر. وتتضح مخالفته من سبقه من الملوك (ومن أعقبه كذلك) ليس من خلال تغيير اسمه من «حور سِخِمِ إب»، أي «الجسور» إلى «ست بر إبسن» فحسب، بل وتخليه عن عادة تصوير الصقر رمز حور فوق أشكال واجهات القصور التي تتضمن أسماء الملوك، وهو ما يسمى السرخ، والاستعاضة عنه بتصوير رمز المعبود ست، والسماح بتصوير ست وهو يلبس تاج الصعيد ويحمل الصولجان بهيئة شبه بشرية على الأختام الخاصة به. ويدل هذا على تعصب الملك للصعيد ولربه القديم ست وانتسابه إليه دون الرب حور، وليس من مسوّغ أو تفسير لهذا السلوك المخالف سوى أن خصومة عنيفة قد نشبت بينه وبين مناطق الدلتا في الشمال حملته على التعصب لرب الجنوب القديم؛ وذهب إلى

أبعد من ذلك فنقل مقر الحكم من ممفيس إلى الجنوب حيث أمر بدفنه في أبيدوس. ويرى بعض الباحثين أن تصرف بر إبسن كان نتيجة لوقوع الدلتا تحت نفوذ البدو الذين غزوها وتحللوا من الخضوع لسلطة الملك منذ عهد سلفه، فلم يجد بر إبسن بداً من محاربة قوى الشمال الغربية والاستنصار برب الصعيد القديم لدحر الأعداء والكفاح من جديد لفرض هيبة الدولة الموحدة، وتلقب بلقب يعني «الذي خرج للحق» أو معنى «انبعث النظام»[١٢]. غير أنه لم يوفق في ما اعتزم، بل قيض لخليفته خع سخم أن يعيد البلاد إلى ما كانت تنعم به من استقرار وأمن ووحدة. وخلف خع سخم ملك يشبهه في اسمه إلى حد كبير هو خع سخموي إلى درجة أن بعضهم يرى في الملكين ملكاً واحداً، اتخذ الاسم الأول في أثناء نضاله من أجل إعادة الأمن والوحدة المركزية للبلاد انطلاقاً من الجنوب، حيث عثر على آثاره فحسب، ثم حوّر اسمه إلى خع سخموي بعدما تحقق له النصر المؤزر على مثيري الاضطرابات والمناوئين له في الشمال.

يطلق على عهد الأسرتين الأولى والثانية اصطلاح «العصر الثيني» نسبة إلى مدينة ثيني Thinis الصعيدية (التي تقع إلى جنوبها جبانتها الملكية أبيدوس) والتي تعد مسقط رأس ملوك الأسرتين، وأكبر حواضرهم بعد مدينة نخن Hierakonpolis، وقبل اتخاذهم مدينة منف (ممفيس) Memphis عاصمة للدولة.

كما يدعى عهد الأسرتين الأولى والثانية باسم «عصر بداية الأسرات» لأن وحدة مصر التاريخية بدأت بملك هو مينا، خلفه ملوك ينتمون إلى أسرة حاكمة، ارتبط أفرادها بعضهم ببعض بروابط الأبوة والبنوة والقرابة، وافتتحوا بذلك عهداً جديداً يقوم على رأسه ملك واحد، توالت من بعده عهود اتسمت غالباً بطابع الحكم التقليدي الملكي الذي ينتسب أبناؤه عادة إلى أسر حاكمة معينة، وسلالات ملكية ذات مواصفات محددة، وإن شذ بعض الملوك

---

(١٢) عبد العزيز صالح، ٨٩، ٩٠.

أحياناً واغتصبوا الحكم، ولكنهم كانوا بدورهم يؤسسون أسراً حاكمة جديدة تتبع تقاليد الحكم الموروثة، ويسعى ملوكها إلى تثبيت شرعية حكمهم بالطرق المألوفة. ويسمي بعضهم العصر باسم «العصر العتيق» تنويهاً بقدمه البعيد وسبقه للعصور التاريخية التالية.

سياسة الحكم والإدارة:

استغرق العصر الثيني حوالى أربعة قرون ونصف إلى خمسة قرون ونصف من تاريخ مصر القديم، بحسب ما حدده حجر بالرمو والمؤرخ المصري مانيتون. ولكن تقدير الباحثين يذهب إلى أن هذا العصر لم يتجاوز القرنين من الزمان، وأن بدايته كانت في حوالى العام ٣٠٠٠ ق.م وليس في عام ٣٢٠٠ ق.م. ويذهب بعضهم إلى أن بداية حكم مينا كانت عام ٢٨٥٠ ق.م، بينما يميل آخرون إلى الاعتقاد بأن وصول مينا إلى الحكم كان في عام ٣٠٠٠ ق.م. ونستنتج من ذلك صعوبة تحديد تاريخ عصر بداية الأسرات، ومنه تحديد عهد ملوك الأسرتين الأولى والثانية، ولكن الواضح أن البداية كانت في فترة ما من نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.

ويُعَدّ عصر بداية الأسرات عصر تكوين نظم الإدارة في مصر القديمة، إذ تطلبت الوحدة منذ اللحظة التاريخية الأولى إدارة مسؤولة تنظم شؤون البلاد وتوسعها يقوم على رأسها حاكم لا ينازع، وعاصمة تكون مركزاً للحكم وإدارة البلاد، تقع في مكان مناسب في وسط البلاد المترامية الأطراف. وقد تنبه الملوك الأوائل إلى أهمية موقع العاصمة، فتم بناء مدينة منف (ممفيس) قرب العاصمة المصرية القاهرة اليوم، منذ زمن موحد مصر الأول مينا، التي أصبحت من دون شك العاصمة الإدارية للدولة ولا سيما في عهد الأسرة الثانية، إذ ما عاد الملوك في عهدها يدفنون كأسلافهم من ملوك الأسرة الأولى في أبيدوس، وقد يكون ذلك مسوغاً كافياً لمانيتون كي ينهي عهد الأسرة الأولى ويبدأ بذكر أسرة جديدة هي الأسرة الثانية[١٣]. ولكن

(١٣) FW 2, 240.

وحدة مصر كانت تقوم أساساً على الملك ذاته وتتجسد في شخصيته، وكان الموظفون الإداريون مسؤولين أمامه وحده عن أعمالهم، وعن تنفيذ أوامره مباشرة من دون وسيط.

وصلت مصر إذاً إلى الوحدة السياسية بعد أن توافرت لها مقومات الدولة الأساسية في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، وبعد أن غدت الحضارة فيها راسخة وسمة من سمات الدولة، وعنصراً رئيساً من حياة المصريين القدماء، طبع تاريخهم بصبغة الحضارة المتجانسة الظاهرة في كل بقعة من الأراضي المصرية، ودونما تمييز أو اختلاف بين الأقاليم الواقعة في مملكة الشمال سابقاً وفي مملكة الجنوب. واستمرت كذلك في تطور مطرد ومتجانس طوال عصر الفراعنة الذي استغرق حوالى ثلاثة آلاف سنة.

وفي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد كانت قد توافرت لمصر الوسيلة الضرورية لتسجيل أخبار الحوادث، والإفصاح عن الأفكار المختلفة، وعن العقائد الدينية، والمعارف الدنيوية، عوضاً عن اللجوء إلى طريق الرواية الشفهية التي تتعرض للتحريف والتشويه وضياع المعلومات بمرور الزمن وتعاقب الأجيال. ومنه فإن الكتابة المصرية التي استغرق تطورها زمناً طويلاً وصلت في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد إلى مرحلة مكنت للمصريين تدوين لغتهم التي اكتملت صورتها هي الأخرى آنئذ، فأضحت لغة مدونة واضحة البناء والتراكيب، وبقيت كذلك إلى نهاية العصر الفرعوني. وعندما قامت الدولة الواحدة كان على الملك أن يخلق لدى المصريين جميعاً شعور الانتماء إلى دولة واحدة، لا فرق بين شمالي وجنوبي، وكان عليه أن يسلك سياسة حكيمة تقوي هذا الشعور عن طريق توثيق الروابط بين الدلتا والصعيد بعد اتحادهما. وقد وعى ملوك الأسرتين الأولى والثانية هذا الأمر، وأولوه عنايتهم، فعمد بعضهم إلى مصاهرة أمراء الدلتا، فتزوج مينا من إحدى سليلات البيت الحاكم القديم في الدلتا، واسمها نيت حوتب. كما تزوج الملك دن بأميرة من الدلتا تدعى مريت نيت[١٤]، ودلت الآثار التي خلفتها الملكتان باسميهما على

---

(١٤) عبد العزيز صالح ٨٤.

مكانتهما الطيبة في البلاد وفي المجتمع المصري. وربما تزوج بعض الملوك من الأسرتين من أميرات شماليات لم يصلنا ذكرهنّ كتابة.

وعبد ملوك الأسرتين الأولى والثانية آلهة الدلتا وأقاموا لها المعابد، وانتسبوا إلى ربة الدلتا الحامية واجة، وإلى شعارها شعار النحلة «بيت»، جنباً إلى جنب مع انتسابهم إلى ربة الصعيد «نخابة» وإلى شعارها «سو». فكان لكل ملك منهم عدة ألقاب ومسميات تعقد الصلة بين شخصه وبين مقدسات مواطنيه في الشمال والجنوب، لتأكيد سلطانه الديني والدنيوي. وقد استقر من هذه الألقاب والتسميات في هذا العصر ثلاثة، وهي: الاسم الحوري الذي يؤكد صلة الملك بالإله حور ويجعله وريثاً له، فيحكم باسمه ويتجسد شخصيته. والاسم النبتي الذي يؤكد صلة الملك بالربتين الحاميتين القديمتين: نحابة ربة الصعيد وحاميته، كما ذكرنا، ورمزها أنثى العقاب، وواجة حامية الدلتا ورمزها الحية الناهضة. والاسم النيسوبيتي الذي يؤكد صلته بالشعارين المقدسين القديمين: «سو» شعار مملكة الصعيد القديمة. و«بيت» شعار مملكة الدلتا القديمة، ويؤكد بذلك أيضاً شرعية وراثة حكم كل من المملكتين القديمتين صاحبتي الشعارين مع اندماجهما في دولة واحدة.

وأبقى ملوك عصر بداية الأسرات للدلتا (الوجه البحري) شخصية متميزة في الإدارة تحت ظل التاجين، فخصصوا لها بيت مال خاصًّا عرف باسم «البيت الأحمر»، كان من اختصاصه جباية الضرائب وتحصيل الرسوم المقررة، كما كانت في السابق، وحصر الدخل والمصاريف، ولكن الملك وحده هو الذي يحدد أوجه الصرف. كما كان للصعيد بيت مال خاص سمي باسم «البيت الأبيض»، أو «بيت الفضة» يقوم على رأسه مسؤول يعينه الملك، اختص بشؤون الوجه القبلي (الصعيد) المالية. وكانت موارد بيتي المال تعتمد على تحصيل الضرائب العينية من المحاصيل الزراعية، ومن الإنتاج الصناعي، وإنتاج الماشية، وصيد الأسماك، إضافة إلى استثمارات الدولة في مناجم النحاس والذهب، وفي المحاجر، وما تغنمه جيوش الدولة في الحرب، ويحصل عليه رجال الدولة من التجارة الخارجية. وكان بيت المال يشتمل على

مخازن كبيرة لخزن المواد التموينية الأساسية، ولا سيما القمح، إذ إن الملك كان يعد نفسه مسؤولاً عن تأمين المواد الغذائية الضرورية للمواطنين في حال قصور فيضان مياه نهر النيل عن الوصول إلى المستوى المألوف واللازم. ولهذا كان ثمة إدارة مختصة مهمتها إعلام الملك بتقديراتها لكميات المحاصيل المرتقبة في الموسم الزراعي التالي استناداً إلى إحصاءات يقوم بها موظفون اختصاصيون، حتى يتخذ الملك الاحتياطات اللازمة لسنوات القحط العجاف، ويدرأ المجاعة عن البلاد.

واعتمد ملوك عصر بداية الأسرات على بعض الموظفين الذين تداخلت اختصاصات بعضهم ببعض، وعرف بعضهم اختصاصات محددة، كما يتبين من ألقابهم، ومنها: حملة الأختام، ورجال بيت المال، وحكام الأقاليم، ورؤساء الكتاب، ورجال الإحصاء. وقد خصص للوجه البحري حامل أختام، ومسؤول أهراء الغلال، ومسؤول لدور الوثائق إضافة إلى رجل بيت المال، حفاظاً على شعور المواطنين في الشمال، وصوناً لحقوقهم التي كان الملك حريصاً على تأمينها لهم، ودفعاً لأي شعور بأن ملك الصعيد قد احتل مملكة الوجه البحري، وأن الجنوب يستغل موارد الشمال لصالحه الخاص.

وانصب اهتمام الملك على شؤون البلاد الزراعية التي يتصل بها تأمين وصول الماء إلى الأراضي عن طريق الترع والأقنية المتفرعة عن نهر النيل، فكان منصب «عج مر» الذي يعني حرفياً «القائم على حفر الترع» من أهم المناصب الإدارية في الدولة، وكان صاحب هذا المنصب مسؤولاً عن تنفيذ سياسة الدولة في العناية بشؤون الري والزراعة في الأقاليم، وهو المنصب الذي تطور لاحقاً إلى منصب حاكم الإقليم.

وقد ساعد نجاح سياسة ملوك العصر الثيني الداخلية التي كانت تقوم، كما رأينا، على الحكمة وتوثيق الروابط الاجتماعية والاقتصادية بين الوجه البحري والوجه القبلي، وعلى استخدام السلاح عند الحاجة للحفاظ على وحدة البلاد، ساعد على ضمان الأمن والاستقرار في الداخل، ومكّن بعض الملوك من التوجه إلى خارج الحدود بغرض فرض الهيبة على الجيران، وردع

من تسوّل له نفسه التفكير في غزو الأطراف، أو التسلل إلى داخل البلاد، لذا فإن الملك عحا (أو مينا/ نعرمر) وخليفته جر كانا قد قاما بحملات عسكرية ضد القبائل البدوية في الصحراء الواقعة إلى الغرب من الدلتا التي كانت تغريهم بخيراتها، ولا سيما ضد الليبيين. وتوغل جر في أراضي النوبة حتى وصل إلى الشلال الثاني في الجنوب حيث عثر على لوحة تحمل اسمه وتنوه بانتصاره على «الشعوب الجنوبية». كما طرد الملك دن البدو الشرقيين، سكان الصحراء الشرقية من أطراف الوادي، وحقق الملك عنجاب انتصارات على البدو في الصحراء الجنوبية، والجنوبية الشرقية، والشرقية، الذين كانوا يهددون أمن الصعيد واستقراره. ويستدل من أخبار ملوك الأسرة الأولى أن الدولة كانت في عهدهم تنعم بالاستقرار أكثر من عهد الأسرة الثانية التي كان ملوكها مصرفين أكثر إلى شؤون البلاد الداخلية لظهور بعض الفتن والاضطرابات. ومع ذلك فإن سياسة الدولة العسكرية حتى زمن الأسرة الأولى كانت ذات طابع دفاعي، غرضها إرهاب الأعداء الخارجيين وتثبيط همم المتآمرين معهم في الداخل، ولا سيما الليبيين الذين كانوا يدعمون انفصاليي الشمال ويقدمون لهم العون العسكري من الغرب.

وكانت مصر في العصر الثيني تقيم علاقات تجارية مع الشعوب المجاورة، ولا سيما مع بلاد الشام، وفلسطين خصوصاً. وقد عثر على نماذج متعددة من الحلي والخزف وصلت البلاد من أنحاء مختلفة من سورية. كما وصلت مصر الأخشاب من الشواطىء السورية حيث عثر على كسرة من الفخار تحمل اسم نعرمر وقطعة من الحجر عليها اسم خع سخموي آخر ملوك الأسرة الثانية، مما يؤكد قدم العلاقات التجارية بين المصريين والسوريين ولا سيما مع فينيقية وفلسطين. كما كان المصريون في العصر الثيني يحصلون على العاج وخشب الأبنوس من الجنوب عبر وادي النيل.

وظهر في العصر الثيني تطور واضح في فن صناعة الأواني الحجرية الكبيرة، وتحل مطور عن زخرفة الأواني الفخارية. كما بدأ المثالون المصريون

القدماء بنحت الحجر الصلب وإنجاز الأعمال الفنية الراقية، ومنها تمثال للملك خع سخم، الملك قبل الأخير من الأسرة الثانية، ولوحة (الملك الأفعى) واجي. كما صاغ الفنانون تماثيل صغيرة من النحاس، وعمل سبّاكو الذهب على صنع نماذج جميلة من الحلي كالتي تخص الملك جر. وغدت المدافن أكبر حجماً في هذا العصر وأكثر تعقيداً في بنائها إذ ظهر شكل القبة في سقوفها، وزاد استعمال الحجر المنحوت والخشب في تجهيزها، وبدا الاهتمام واضحاً بالقبور لسبب عقائدي، وهو إيمان المصري القديم بأن القبر مسكنه الأبدي الذي ينبغي أن تتوافر فيه كل شروط الراحة اللازمة للحياة الأبدية، من أدوات ومواد غذائية يحتاج إليها، وكان الخدم يدفنون حول قبر سيدهم ليكونوا قريبين منه وجاهزين لخدمته دائماً. ولإيمانهم بالحياة الثانية بعد الموت في السماء وضعوا الزوارق إلى جانبهم لتمكنهم من مرافقة مركب الشمس.

لم يقصر ملوك العصر الثيني في بناء المعابد للآلهة الجنوبية والشمالية وفي صيانة القديم منها، وعبدوا كمواطنيهم الآلهة: حور، ورع، وأوزير، وإيسة (إيزيس)، ومين، وأنوبيس، ونَيْت. وقدسوا بعض الحيوانات كالثور أبيس وتيس منديس.

الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية):

ظهرت الكتابة في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، حوالى ٣٢٠٠ أو ٣١٠٠ ق.م، في منطقتين من مناطق الشرق الأدنى القديم، هما بلاد الرافدين ومصر. وهي كتابة اعتمدت طريقة واحدة للتعبير عن الأفكار أو العبارات التي كان «الكاتب» يريد أن يدونها، هي الطريقة التصويرية التي تعني تصوير الأشياء كما هي في حالتها الطبيعية، وكما يراها «الكاتب»، من غير اهتمام بجمالها أو بمظهرها الفني، فالصورة ليست الغاية، بل الشيء الذي تمثله الصورة نفسها. كانوا يرسمون صورة الإنسان، أو الحيوان، أو النبات، أو الأشياء الأخرى، كاملة في البداية، ثم اكتفوا برسم جزء هام من تلك الموضوعات التي يقصدون التعبير عنها بتصويرها، كأن يكتفوا برسم رأس الإنسان ليعبروا عن الإنسان أو الرجل نفسه، أو يصوروا رأس ثور ويقصدون

بـه الثـور، أو السنبلة ويـريـدون القمـح، أو يـرسمـوا دائـرة وداخلهـا نقـطة ويريدون الشمس.

ولم يقفوا عند رسم الأشياء المحسوسة، بل تعـدّوا ذلك إلى التعبـير عن المعاني المجردة، فعبّروا عنها بصور تنم عنها: فـرمزوا إلى «الـبرد»، مثلاً، بمـاء سائل، وإلى «القوة» بصورة الذراع، وإلى «الرؤية» بالعين، وإلى «الشيخوخة» برجل عجوز يستند إلى عكاز.

ولكن هـذه الطريقـة كـانت تعـبر عن المـاديـات وتقصر في التعبـير عن المعنويات عموماً. لذا كان لا بد من ابتداع أسلوب كتابي آخر مكمـل يساعـد على توضيـح ما تـرمز إليـه الصور من معـان متنوعـة أحيانـاً ومن دول لبس. فاستخدموا صوراً ذات معان معروفـة للتعبير عن كلمات تتفق من حيث اللفظ مع ما تدل عليه الصور المستخدمـة، كأن نقصـد عين المـاء ونصور «العـين»، ونريد الذهب ونصور ما يدل عليه الفعل «ذهب» من رسم رجلين مفتوحتين، ونقصد التعبير عن الرقم «سبع» فنرسم صورة «السبع» الحيوان. وهذا يعرف في اللغـة العربيـة بالتعبـير الاصطلاحي «مـا اتفق لفـظه، واختلف معنـاه». ولا ضرورة في هذه الحال أن يكون التطابق في اللفظ بين ما تدل عليه الصورة في الأصل وبين الكلمة المقصودة تاماً، بل يكفي تطابق أغلب الأصوات.

واستعـان الكاتب المصري بـالصور الـدالة عـلى الكلمات القصـيرة، أي ذات المقاطع القليلة المؤلفة من حرفين أو ثلاثة حروف، استعـان بها في كتـابة أجزاء من الكلمات الطويلة ذات الحروف الكثيرة. فقسم، مثـلاً، كلمة «أذن» التي تتـألف في المصريـة من الحـروف م س ذر إلى جزءين م س ذر، وصـوّر «المـروحة» التي تلفظ م س في اللغـة المصرية القـديمـة، وإلى جـانبهـا صـورة «السلة» التي تلفظ في المصرية القديمة ذر، فحلت صورة المـروحة محـل المقطع الأول، وحلت صـورة السلة محل المقـطع الثاني، ودلت الصـورتان معـاً عـلى كلمة «أذن» المصرية ذات الحـروف م س ذر. ويسمى هذا الأسلوب الكتـابي باسم «الكتابة المقطعية».

ولما كان ثمـة كلمات تتألف من مقـطع واحد فـإنه اجتمـع لدى الكتبـة

المصريين من هذه المقاطع أربع وعشرون صورة، أصبحت بمثابة الحروف الأبجدية. ولكن الكاتب المصري لم يفكر بهذه الطريقة، ولم يستخدم هذه الصور وحيدة المقطع، أو الحروف، استخدامنا لها اليوم، بل كان استخدامه لها استخدامه للصور ذات المقاطع المتعددة كذلك.

ثم تم ابتكار وسيلة كتابية أخرى لتوضيح المقصود من الصور التي تحتمل أكثر من معنى ودلالة، وهي المسماة بالرموز الدالة أو «المخصصة» التي تتألف من علامات ورموز، وظيفتها تخصيص معنى الصورة وتحديد معناها. ومثال ذلك من واقع الكتابة المصرية القديمة الكلمة المؤلفة من الحرفين (الصوتين) ي ب. فهذه الكلمة لها دلالتان: الواحدة تعني «جدي» والأخرى تعني «عطش». فإذا أراد الكاتب المصري المعنى الأول كتب الكلمة بالمقطعين ي + ب ثم ألحقهما بصورة الجدي. وإن أراد المعنى الثاني، وهو عطش، ألحق المقطعين بصورة رجل يمد يده إلى فمه.

ونخلص مما سبق إلى أن الكتابة المصرية كانت من حيث المبدأ كتابة تصويرية بكل أشكالها ورموزها، ثم تداخلت فيها الكتابة المقطعية التي تعتمد على الصور أيضاً ومعانيها، بخلاف الكتابة المقطعية السومرية التي تعتمد كلية على الأصوات وحدها، والتي يصح أن نقول عنها إنها تطور من المبدأ التصويري للكتابة إلى المبدأ المقطعي الصرف الذي يعتمد على الرمز الصوتي دون المعنوي، شأنها في ذلك شأن الحروف التي نكتبها اليوم والتي اصطلح على قرّاءتها بأصوات محددة لا تقبل اللبس ولا التأويل. وقد يرى المتأمل للكتابة المصرية أنها كتابة معقدة، ولكنها لم تكن كذلك عند الكاتب المصري، على الرغم من اختلاط الأشكال المعبرة عن الكلام بعضها ببعض، إذ كان غرضه الإفصاح بشكل واضح عما يريد تدوينه والتعبير عنه، فوظف في سبيل ذلك إمكانات التوضيح المتوافرة لديه جميعها.

امتازت الكتابة المصرية القديمة المنقوشة على جدران المعابد المصرية وعلى المسلات الحجرية خصوصاً بأشكالها المصورة الرشيقة، وبانسياب خطوطها، ووضوحها إذا ما قورنت بغيرها من الكتابات المصورة، كالسومرية

مثلاً أو الحثية أو الصينية، مما يدل على ملكة فنية رائعة لدى الكاتب المصري القديم، وعلى ذوق جمالي رفيع. وقد سماها الإغريق لشدة انبهارهم بما شاهدوا من آثارها الكتابة الهيروغليفية Hieroglyph، أي «الرسوم المقدسة»، ظناً منهم أنها رموز سحرية ولم يخطر ببالهم أنها كتابة تتحدث عن أمجاد الفراعنة وأخبارهم، وتخبر عن انتصاراتهم في الحروب، وعن إنجازاتهم في سبيل رفاهية شعبهم، وتتحدث عن أعمالهم الدينية لرفعة شأن أربابهم وتفانيهم في تقديم فروض الولاء والطاعة.

الكتابة الهيراطيقية (الكهنوتية)

لقيت الهيروغليفية التي يغلب عليها طابع التصوير المتقن انتشاراً واسعاً في نقش النصوص على جدران المعابد والمقابر والتوابيت، وعلى السطوح الحجرية عموماً، وعلى الخشب والعاج والمعادن، وفي تدوين بعض النصوص الدينية على صفحات البردي بالحبر الأحمر أو الأسود بقلم من القصب أو القش القاسي. ثم نشأ منذ نهاية الألف الثالث ق.م. عن الهيروغليفية نوع من الكتابة المبسطة، التي ظهرت فيها الأشكال المصورة متطورة بعض الشيء عن قريناتها في الأصل الهيروغليفية، وتبدو أسهل تناولاً في الكتابة، وتصلح لسرعة أدائها لتسجيل الشؤون الحكومية اليومية، ولكتابة الرسائل والعقود، والآداب، وغيرها من الأغراض الشخصية. ويبدو أن لكهنة المعابد دوراً في ابتكار وترويج هذا النوع من الكتابة فدعيت نسبة إليهم بالإغريقية باسم «الكتابة الهيراطيقية»، أي «الكتابة الكهنوتية». ازدهرت هذه الكتابة منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ولقيت انتشاراً واسعاً.

الكتابة الديموطيقية (الشعبية).

ما لبثت الأشكال المصورة في الهيروغليفية أن تابعت مسيرة التبسيط، واختصار الصور، بعد أن انتشرت الكتابة في أوساط الناس، ولم تعد حكراً على بعض المحترفين وعلى الكهنة، فظهر نوع آخر من الكتابة دعي باسم «الكتابة الديموطيقية»، أي «الكتابة الشعبية»، كما اشتهرت بالإغريقية، وهي كتابة يسيرة الاستخدام، وعملية للأغراض الكتابية اليومية.

وعندما اعتنق المصريون الديانة المسيحية اقتبسوا الخط الإغريقي (اليوناني)، واستعاروا منه أغلب أشكال حروفه لكتابة لغتهم المصرية، فسمي خطهم الجديد «الخط القبطي» نسبة إلى أصحاب الخط القبط وديانتهم المسيحية القبطية.

تتخذ الكتابة المصرية القديمة وجهة كتابتنا العربية، فتبدأ في اليمين وتسير باتجاه اليسار، أو كالصينية فتكتب من فوق إلى أسفل وباتجاه من اليمين إلى اليسار أيضاً. وتتوجه الأشكال المصورة دائماً إلى بداية السطر في اليمين، كصورة الساقين، مثلاً، التي يبدو فيها انفراج الساقين ورؤوس القدمين باتجاه اليمين.

يعود آخر أثر كتابي للكتابة الهيروغليفية إلى حوالى نهاية القرن الثالث الميلادي، أما تاريخ آخر أثر كتابي تم العثور عليه للكتابة الهيراطيقية (الكهنوتية) فيعود إلى القرن الثالث الميلادي، وآخر أثر كتابي للكتابة الديموطيقية (الشعبية) يعود تاريخه إلى عام ٤٧٦م.[١٥] واهتدى المصريون القدماء إلى ابتكار علامات للأعداد رمزوا بها للآحاد والعشرات ومضاعفاتها، أي المائة والألف، وعشرة الآلاف ومائة الألف والألف ألف (أو المليون)[١٦].

وترافق اختراع الكتابة مع تطور صناعة ورق البردي من لحاء نبات البردي، واقترن به استخدام الحبر وأقلام القصب الأمر الذي يسر الكتابة على ورق البردي وعلى لخاف الأحجار الرقيقة وكسر الفخار ولوحات الخشب الناعمة.

---

(١٥) لمزيد من التفصيل والاطلاع على نشأة الكتابة المصرية وغيرها من الكتابات نحيل إلى كتابنا «الأبجدية، نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب»، دار الحوار، اللاذقية ١٩٨٤.

(١٦) عبد العزيز صالح ٨٣.

K. Sethe, Von Zahlen und Zahlworten bei den Aegyptern, 1916. K. Vogel, Die Grundlagen der aegypt. Arithmetik, 1929.

الفرعون:

لُقِّبَ الملك المصري بالفرعون، وهي عبارة تلفظ في الأصل پرعو في المصرية القديمة، وتعني «قصر الملك»، أو «البيت العالي»، ثم أصبحت تطلق مجازاً على صاحب القصر، أي الملك نفسه(١٧) الذي يتربع على عرشه المقدس، ثم ما لبثت تعني «الملك» وحده وغاب المعنى الأساسي للفظة. وقد احتفظت اللغة العبرية في أسفار العهد القديم، ومنها أسفار التوراة باللفظ پرعو Parᶜo وعبرت عن الحرف الأول بالفاء كتابة، ومنها انتقلت اللفظة، كما يبدو، إلى اللغة العربية التي أضافت النون في النهاية أيضاً، فأصبحت «فرعون» وصار اللقب «فرعون» يستخدم مع الاسم الشخصي لكل ملك مصري منذ أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، وقد اقترن في اللغة العربية وفي اللغة العبرية بدلالة سلبية تعبر عن الاستبداد، والجبروت والطغيان، لما جاء من وصف «فرعون» موسى (عليه السلام) في القرآن والتوراة الذي طغى وتجبر وادعى الربوبية، وسام المؤمنين سوء العذاب، مع أن الكتابين المقدسين يشيران إلى طيب صفات الفرعون زمن يوسف (عليه السلام). ولا شك في أن الفرعون لم يكن يختلف عن غيره من الملوك والحكام من حيث جمع السلطات جميعها بيده، فهو رئيس الدولة الأعلى، وصاحب التشريع والحكم، وقائد الجيش، والكاهن الأول، ولكنه في مصر وريث الآلهة في الحكم كذلك، وابن لها، أو هو أحياناً إله، يؤله نفسه أو يؤلهه مواطنوه بحسب

---

(١٧) يبدو أن إطلاق مدلول «القصر الملكي»، أو «قصر الحاكم» على «الملك» وعلى «الحاكم» ذاته أمر تعرفه شعوب كثيرة قديماً وحديثاً. فاللغة السومرية تسمي القصر الملكي E. Gal، وانتقلت هذه التسمية إلى الأكدية ekallum ومنها إلى عدد من شقيقاتها السامية، حتى صارت هيكلاً في العربية، وكثيراً ما تستخدم عبارات شبيهة في العصر الحديث بهذا المعنى، فيقال «الباب العالي» كناية عن السلطان العثماني، و«البيت الأبيض» بمعنى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذي يقيم فيه، و«قصر الإليزيه» بمعنى رئيس الجمهورية الفرنسية. وقد شاع لقب فرعون مع الاسم الشخصي، كما شاع في العربية لقب «قيصر» لكل ملوك الرومان والبيزنطيين، ولقب «كسرى» لكل ملوك الفرس، ولقب «نجاشي» لملوك الحبشة.

شخصيته، وبحسب الظروف التي تمر بها البلاد، كما سنرى لدى الحديث عن الملوك المصريين (الفراعنة) وسياستهم في الحكم في عصر الدولة القديمة، والوسطى، والحديثة، حين كان الفراعنة في أوج قوتهم، والدولة في أزهى عهودها، ولكن بعض الفراعنة لم يكن مستبداً ولا طاغية، بل كان ملكاً يستميل الناس ويتقرب إليهم، ويسعى إلى تطبيق العدالة وإحقاق الحق، وفي العصور الانتقالية كانت هيبة الفراعنة تضيع، وسلطانهم يضعف، ولا يكترث الناس بهم وبدولتهم.

الفصل الثاني
عصر الدولة القديمة

يبدأ عصر الدولة القديمة حوالى عام ٢٧٨٠ قبل الميلاد، ويستمر إلى أواخر القرن الثالث والعشرين حوالى عام ٢٢٣٠ قبل الميلاد؛ ويطلق على هذا العصر أحياناً للتعريف به اسم «العصور المنفية» إشارة إلى عاصمة الدولة منف (ممفيس) التي كانت مقراً لملوك الدولة جميعهم، كما يطلق عليه اسم «عصر بناة الأهرام العظام» تنويهاً بأبرز الإنجازات المعمارية التي ظهرت في هذا العصر، والتي لا تزال شاهداً ماثلاً للعيان على كفاءة مهندسي الأهرامات الضخمة والمنشآت الملحقة بها، ومفخرة الحضارة المصرية منذ ذلك العصر القديم. ويتزامن هذا العصر مع حكم أسرات أربع، بدءاً بالأسرة الثالثة وانتهاءً بالأسرة السادسة.

كانت مصر في عصر الدولة القديمة دولة موحدة، تمتد أراضيها من الشلال الأول في الجنوب إلى البحر الأبيض المتوسط في الشمال، على الرغم من استمرار ملوكها بحمل لقب «ملك مصر العليا ومصر السفلى»، وكانت المؤسسات الحكومية التي قامت على أساس حكم ملكي يدعي الحق الإلهي في الحكم قد استقرت، وكانت العقائد الدينية قد توضحت خطوطها الكبيرة، وغدت التقنيات المختلفة، بما فيها تقنيات الكتابة والفنون المتنوعة والعمارة، متطورة وراسخة القدم[1].

الأسرة الثالثة (٢٧٨٠ ـ ٢٦٨٠ق.م):

بدأ عصر الدولة القديمة بوصول الأسرة الثالثة إلى الحكم حوالى عام

(١) FW 2, 245.

٢٧٨٠ ق.م، وكان مؤسس الأسرة أحد أبناء الملك خع سخموي آخر ملوك الأسرة الثانية من زوجة ثانوية، كما يبدو، حتى عده المؤرخ المصري مانيتون رأساً لأسرة جديدة هي الأسرة الثالثة، وسجلت بردية تورين اسم هذا الملك، وهو زوسر، بالمداد الأحمر تمييزاً له عن ملوك الدولة القديمة وتأكيداً لأهمية عهده. ومع ذلك فثمة ما يشير إلى أن الملك زوسر الذي طغت شهرته على بقية ملوك الأسرة الثالثة لم يكن الأول بين ملوك الأسرة، وبالأحرى لم يخلف خع سخموي مباشرة، بل سبقه أخ له يدعى سانخت ونب كا، كما تؤكد اللقى الأثرية التي عثر عليها حديثاً[٢]، ومن بينها قبره الذي يعد من دون شك الشكل الأول الذي تطور عنه الهرم المدرج.

كان الاسم الذي عرف به الملك زوسر هو «نثررخت»، كما تؤكد آثاره الكتابية في عصر الدولة القديمة ولا سيما في الهرم المدرج، ثم حل الاسم زوسر (أو جسر) الذي يعني ربما «المقدس» محل الاسم القديم وذلك في وثائق عصر الدولة الحديثة وفي العصور اللاحقة، فشاع هذا الاسم في الكتب التاريخية حتى أمسى الاسم الأول غير معروف.

وارتبطت بعهد الملك زوسر إنجازات حضارية أصيلة، تعد مجموعته المعمارية في سقارة وما يتصل بها من فنون وعقائد، وفكرة التقويم السنوي المرتبط بدورة نجم الشعرى، من أهم معالمها. كما ارتبطت هذه الإنجازات إلى حد كبير بشخصية فذة عاصر صاحبها الملك زوسر، وهو إيمحوتب الذي كان مهندساً معمارياً، وطبيباً، وكان موظفاً كبيراً في البلاط يحمل ألقاب أمين أختام الوجه البحري، وتالي الملك أو الأول لدى الملك، وناظر القصر العالي، ومسجل الحوليات، وكبير الرائين (أي كبير كهنة مدينة عين شمس)، ورئيس طقوس زوسر، ملك مصر العليا والسفلى، محاسب الحبوب الأول لملك مصر العليا والسفلى. وتدل الألقاب الكثيرة التي كان يحملها إيمحوتب على تنوع ثقافته وعلو مقامه الديني والدنيوي في عهد الملك زوسر. ولم يقتصر

---

(٢) عبد العزيز صالح ١٠٢ W.S. Smith, in: CAH, I, 1965 Ch. XIV, 4.

تقدير المصريين القدماء له في عهده، بل امتدت شهرته إلى العصور اللاحقة حتى جعله المتعلمون في عصر الدولة الحديثة على رأس أهل الحكمة والتعاليم، وعدّه المثقفون راعياً لهم، ثم ألّهه القوم في العصور المتأخرة واعتبروه ابناً للإله بتاح، رب الفن والصناعة، وشاد له مريدوه مقصورة فوق المسطح العلوي لمعبد الدير البحري، وخصوه ببعض المعابد، ومنها معبدا مسف وفيلة، وذكره الإغريق المتمصرون باسم إيموتس وقرنوه بالمعبود الإغريقي أسخليبيوس، راعي الطب والحكمة، وابن أبولو[٣].

كانت مقابر الملوك وكبار القوم تُبنى من اللبن على شكل المصطبة المستطيلة، ثم ألحقت بها من فوق إضافة أو اثنتان. وعندما شرع إيمحوتب ببناء مقبرة ملكه زوسر في منطقة سقارة عمد إلى زيادة الإضافات حتى جعلها ستاً. وكانت كل إضافة منها أصغر من سابقتها، كما كان شكل المقابر زمن بعض أسلافه، حتى غدا شكل الإضافات المدرجة على هيئة هرم مدرج ذي ست درجات. وكان الجديد في هذا البناء ليس زيادة طوابق المقبرة إلى ستة حتى اتخذ شكل الهرم المدرج فحسب، بل استخدام إيمحوتب الحجر في بناء المقبرة وتوابعها، بحيث يُعَدُّ هذا البناء أقدم أثر معماري في تاريخ الحضارة المصرية تم بناؤه كله من الحجر.

وصل ارتفاع الهرم المدرج إلى حوالى ثلاثة وستين متراً، وبلغ طول المصطبة الأساسية نحو ١٣٠ متراً وعرضها نحو ١١٠م، وكان جزءاً من مجموعة معمارية كبيرة أحاطت به، واحتلت مساحة تربو على ٢٥٠ ألف م^{٢}، أحاط بها سور كُسي بالحجر الجيري الأبيض. واشتملت المجموعة على ست عمائر دنيوية ودينية[٤]، يبرز منها في الشمال معبد الشعائر حيث كانت تقام فيه

---

(٣) تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعوني، المجلد الأول، تأليف نخبة من العلماء: محمد شفيق غربال وزملاؤه. منشورات وزارة الثقافة، القاهرة، ص ٥٣١ ـ ٥٣٢.
عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ص١٠٢ ـ ١٠٣.

(٤) عبد العزيز صالح ١٠٤.

الطقوس الدينية على روح الملك، وقد عثر فيه على تمثال للملك في حجمه الطبيعي، وهو التمثال الكامل الوحيد الباقي من تماثيله العديدة التي تم الكشف عنها في مجموعته المعمارية. أما في الجهة الجنوبية من الهرم فثمة فناء كبير مربع الشكل، يحيط به من الشرق والجنوب عدد من الحجرات والمقاصير، ومن بينها مقصورتان كبيرتان ترمزان إلى مملكتي الشمال والجنوب، أما المقاصير الأخرى الصغيرة، ويبلغ عددها حوالى الثلاث عشرة، فربما خصصت لعبادة أرباب الصعيد والدلتا. وكان للفناء والمباني المحيطة به وظيفة هامة تتصل بالاحتفال بعيد السد. وإنه لمما يميز مجموعة سقارة المعمارية أنها تمثل صورة طبق الأصل من الحجر لمجموعة معمارية من اللبن والخشب، إذ بنيت الأبواب من الحجر، وجعلت على هيئة الأبواب نصف المفتوحة، وصنعت أقفالها وإطاراتها وكل ما يتعلق بها من الحجر الجيري الصرف بدلاً من الخشب، فقلد إيمحوتب ورجاله في هندسة عمائر سقارة ما أرادوا تقليده من مظاهر العمارة النباتية واللبنية القديمة ولكنهم استخدموا الحجر في تقليدهم على نطاق واسع، وأقاموا فيها الأساطين ذات الشكل الشبيه بسيقان البردي بتيجانها وأوراقها، ولكن إيمحوتب لم يجرؤ على بنائها حرة منفردة بل جعلها بارزة في الجدار. كما ظهرت أساطين ذات أضلاع محدبة متجاورة تقلد هيئة سيقان الغاب المحزومة، وأساطين ذات أضلاع مقعرة متجاورة تقلد الأساطين الشجرية.

التقويم المدني (النجمي ـ الشمسي):

اشتهرت مدينة أونو (عين شمس) بعلمائها الفلكيين، وحظيت باهتمام الملك زوسر إذ كانت مقراً لعبادة الشمس. وكان إيمحوتب كبير مهندسي زوسر يشغل منصب رئيس كهنة إله الشمس فيها، كما نفهم من اللقب الذي كان يحمله، وهو «المتطلع إلى (رب الشمس) الكبير». كما كان رئيس الفلكيين في المدينة إذ كان يحمل لقباً يشير إلى أنه «كبير المتطلعين (إلى السماء)»، أي «من يرصد حركات الكواكب والنجوم». وقد أدى نشاط علماء الفلك في هذه المدينة، ولعل إيمحوتب كان في مقدمتهم، إلى ابتداعهم تقويماً سنوياً جمع بين



هرم الملك زوسر المدرج في سقارة

خصائص التقويم الشمسي والتقويم النجمي، سمي بالتقويم المدني(٥)، أخذ به المصريون منذ عام ٢٧٧٣ ق.م. على وجه التقريب بعد أن كانوا كغيرهم من الشعوب يعتمدون على التقويم القمري قبل عهد زوسر.

يستمد هذا التقويم مبدأه من فيضان النيل الذي كان المصريون يتلهّفون لرؤيته كل عام، ومن شروق نجم الشعرى اليماني الذي كان يسمى عندهم سِبِدِت Sothis. فقد لاحظوا أن مياه الفيضان تصل إلى المنطقة الواقعة بين عين شمس ومنف (قرب مصر العتيقة اليوم) التي كانت تسمى عندهم پر حعبي، أي «بيت إله الفيضان»، في الوقت الذي يسطع نجم الشعرى في الأفق ويتألق شروقه الاحتراقي حتى مطلع الشمس وكأنه يبشر بوصول مياه الفيضان الخيِّرة، بعد أن تتعذر رؤية النجم نحو سبعين يوماً. وقد عاودوا مراقبة هذه الظاهرة اللافتة للنظر سنوات طويلة حتى تأكدوا من تزامن وصول مياه الفيضان مع سطوع الشعرى المتألق في الأفق الشرقي عند الفجر إلى المنطقة ذاتها (بين ١٧ و١٩ يوليو/ تموز)، فأطلقوا عليها لقب «جالبة الفيضان»، ثم عدوا الأيام الواقعة بين ظهور النجم من عام لآخر فوجدوها ٣٦٥ يوماً. وبذلك أصبح بدء تألق الشعرى الذي يترافق مع بداية وصول مياه فيضان النيل أول يوم من أيام السنة المصرية، وأول يوم من أيام فصول السنة الثلاثة التي أصبحت تتشكل منها السنة، وهي: فصل الفيضان «آخِت»، وفصل خروج النبت (من الأرض) «پرِت»، وفيه تتم عملية البذار، وخروج النبات ونضوجه، وفصل التحاريق «شِمو» الذي تتم فيه عملية الحصاد وجمع الغلال وتخزينها. وقسموا كل فصل إلى أربعة أشهر، بحيث غدت السنة تعد اثني عشر شهراً، وجعلوا كل شهر منها ثلاثين يوماً، وقسموا الشهر ثلاثة أثلاث، ثم نسأوا خمسة أيام ليكملوا بها العدد ٣٦٥، واعتبروها أعياداً تحتفل فيها الدولة بموالد الأرباب: أوزيريس، وإيزيس، وست، ونفتيس، وحورس.

---

(٥) المصدر السابق، ص ١٠٩.

وتفوّق بذلك المصريون على معاصريهم من الشعوب القديمة التي كانت تعتمد التقويم القمري، وهو تقويم يقوم على الدورة القمرية الشهرية التي تعد سنتها أياماً أقل من السنة الشمسية بحوالى أحد عشر يوماً، ولكنهم أدركوا بعد ذلك بزمن طويل (حوالى عام ٢٣٧ ق.م) أن تقويمهم لم يكن دقيقاً كل الدقة(٦)، لأن السنة تتضمن ٣٦٥ يوماً وربع اليوم، ومن شأن هذا الربع أن يغدو يوماً كاملاً كل أربع سنوات، وشهراً كاملاً كل ١٢٠ عاماً، وأكثر من أربعة أشهر كل ٥٠٠ عام، وهذا يعني تأخر بداية السنة المدنية أو الفلكية المصرية عن بداية الفيضان الفعلية شهراً كل ١٢٠ عاماً، واتفاقها معها عندما يبلغ الفارق بينهما سنة كاملة بعد كل ١٤٦٠ عاماً. وقد توصل الباحثون إلى أن أول يوم من أيام السنة المصرية تطابق فعلاً مع تألق الشعرى الظاهر في سنة ٢٧٧٣ ق.م، وفي سنة ١٣١٧ ق.م، ثم في عام ١٣٩ ق.م(٧). أما عام ٢٧٧٣ فهو عام بداية العمل بهذا التقويم على الغالب، ويتطابق العام ١٣١٧ مع عام تولي الملك سيتي الأول (من الأسرة التاسعة عشرة) الحكم. وتشير الكتابات المصرية القديمة إلى أن تألق النجم بدا واضحاً زمن الملك تحوتمس الثالث في اليوم ٢٨ من الشهر الثالث من فصل شمو، وفي اليوم ٩ من الشهر نفسه زمن الملك أمنحوتب الأول، وأخيراً في اليوم ١٦ من الشهر الرابع من فصل پرت، في العام السابع من عهد الملك سنوسرت الثالث(٨). وتؤكد هذه الإشارات إلى دورة الشعرى في الوثائق المذكورة التي تعود إلى أزمنة متباعدة تأريخ المصريين بالفصول والشهور

---

(٦) أصدر مجمع الكهنة المصريين في العام ٢٣٧ق.م قراراً يقضي بإضافة يوم على أيام النسء الخمسة «حتى لا تأتي أعياد الشتاء في الصيف نتيجة لتغير الشمس يوماً كل أربع سنوات...».

(٧) سجل الروماني كنسورينوس في هذا العام أن تألق نجم الشعرى، واسمه في اللاتينية، سيريوس Sirius، توافق مع أول يوم من أيام التقويم المصري.

(٨) أفاد الباحثون من هذه الوقائع فحددوا ثلاثة تواريخ هامة بدقة هي: العام السابع لسنوسرت الثالث يتطابق مع عام ١٨٧٧ق.م. ± ٢، والعام التاسع لأمنحوتب الأول يقع في عام ١٥٣٦، وحكم تحوتمس الثالث يشتمل على العام ١٤٦٩ق.م. FW, 2, 249.

الاثني عشر بعد عهد زوسر واستخدامهم التقويم المدني دون غيره. وما زال الفلاح المصري يأخذ بهذا التقويم في السنة الزراعية، أو ما صار يدعى تجاوزاً باسم السنة القبطية، إذ يرى فيه فائدة عظيمة لتعيين مواقيت الحرث والبذر والري والحصاد اقتداء بأجداده القدماء.

نهاية حكم الأسرة الثالثة:

خلف الملك زوسر عدد من ملوك الأسرة الثالثة بلغ عددهم أربعة ملوك أو خمسة، تركوا آثاراً احتفظت بأسمائهم، بينما يذكر مانيتون ثمانية ملوك ينتمون إلى هذه الأسرة، ويحدد سني حكمهم فيجعلها ٢١٤ سنة. وتشير الكتابات الهيروغليفية التي عثر عليها في شبه جزيرة سيناء (في وادي مغارة) والتي تحمل اسم سانخت، وزوسر، وسخم خت إلى أن الحملات العسكرية الأولى التي قام بها الفراعنة في سيناء للحصول على الفيروز إنما كانت في عهد الأسرة الثالثة.

وانتهت أيام الأسرة بالملك حوني الذي تذكر الوثائق الكتابية أنه قام بتحصين جزيرة فيلة (إلفانتين)، مما يحمل على الاعتقاد أن بلاد النوبة السفلى كانت قد ضمت إلى مصر منذ عهد زوسر، وأن حدود مصر انتقلت في الجنوب إلى بلاد النوبة العليا[٩]. وتحدد بردية تورين سنوات حكم حوني بأربعة وعشرين عاماً، وقد بنى له مهندسوه هرماً مدرجاً في منطقة ميدوم يشتمل على ثماني درجات كاملة، وقاموا بكساء درجاته بأحجار جيرية بيضاء إلا أن موت الملك فاجأهم قبل أن يتموا مهمتهم، ثم عادوا لإتمام عملهم، ولكن بعد أن خطر لهم أن يجددوا في شكل الهرم بإذن من ولده سنفرو، مؤسس الأسرة الرابعة، الذي أوعز إليهم بإكمال هرم أبيه حوني، فقاموا بملء الفراغات بين درجات الهرم بالأحجار، وكسوا أسطحه ببلاطات جيرية حتى تصير جوانبه مستوية، ويتخذ شكل الهرم الكامل، ولكن آثار الهرم المتبقية

---

(٩) المصدر السابق، ص ٢٥٥.

التي تمثل اليوم نحو ثلث ارتفاعه الأصلي لا تفصح عن مدى نجاح المهندسين في تحقيق غايتهم[١٠].

الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ - ٢٥٦٠ق.م):

مهدت الأحوال الاقتصادية الحسنة التي وصلت إليها البلاد في عصر الأسرة الثالثة نتيجة لسياسة ملوكها الحكيمة، ونشاطاتهم العسكرية المحدودة، وإنجازات علماء العصر وفنانيه المثمرة، لعصر يعتبر بحق من أعظم العصور التي عرفتها الحضارة المصرية في التاريخ القديم، وهو عصر الأسرة الرابعة الذي اتسم بظاهرة بناء الأهرامات الكبيرة في منطقة الجيزة خصوصاً.

عهد الملك سنفرو:

بدأ عصر الأسرة الرابعة بعهد الملك سنفرو (نب ماعت، أي رب العدالة)، وهو ابن الملك حوني، آخر ملوك الأسرة الثالثة، من أم غير رئيسية. وقد اتسم عهده بنشاطات تجارية وعسكرية وعمرانية، إذ تذكر حولياته في حجر بالرمو إرساله الأساطيل إلى فينيقية مرات عدة لجلب خشب الأرز والصنوبر اللازم لبناء السفن، ولصناعة أبواب القصور وبعض الأجزاء الداخلية من هرمه، وفي أغراض البناء الأخرى، وتحدد الحوليات عدد سفن إحدى البعثات بأربعين سفينة من سفن البحر الكبيرة[١١]، وفي ذلك ما يدلل على ازدهار صناعة السفن واهتمام عهد سنفرو بالملاحة عموماً، وحرصه على الاتصال بمناطق التجارة المعروفة في زمنه عن طريق البحر حيث الأمان أوفر من طريق البر الذي يمر بمناطق لا تقع تحت سيطرة الفرعون غالباً، والمخاطر أكثر، ولا سيما على طريق التجارة مع بلاد الشام الذي يمر بشبه جزيرة سيناء حيث تجوبها قبائل بدوية تهدد أمن القوافل التجارية، بل ومناطق استثمار مناجم الفيروز والدهنج والنحاس التي تعود المصريون على الحصول عليها من

---

(١٠) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ١١٢.
(١١) F W, 2, 257.

تلك المناطق حتى غدت مورداً هاماً من موارد مصر الاقتصادية. وتذكر حوليات الملك سنفرو بالفعل، كما تشهد الكتابات والرسوم التي عثر عليها في وادي مغارة في سيناء، أنه أرسل عدداً من الحملات العسكرية إليها لردع القبائل البدوية أو لتأديبها وإرهابها حتى لا تفكر بمهاجمة عمال المناجم والتجار الذين يسلكون الطريق التجاري المؤدي إلى بلاد الشام والذي كان يحاذي البحر في شمال شبه جزيرة سيناء، لنهب مؤنهم وبضائعهم. وقد احتفظت صخور وادي مغارة بصورة للملك سنفرو وهو يؤدب شيخاً بدوياً ويكاد يحطم رأسه بمقمعته، على الرغم من عدم مشاركة الملك في تلك الحملة، إذ جرت العادة أن ينسب القادة العسكريون الانتصارات والإنجازات إلى ملوكهم الذين يعود إليهم الفضل في توجيههم. كما عده خلفاؤه من حماة سيناء واعتبروه من أربابها الذين يعنون بها ويرعونها، وظلت بعض نقاط الحراسة على حدود مصر الشمالية الشرقية تحمل اسم سنفرو حتى عصر الدولة الوسطى(١٢).

ولم يقتصر النشاط العسكري على تأديب القبائل البدوية في المناطق الشمالية الشرقية فحسب، بل امتد كذلك إلى المناطق الجنوبية، إذ يذكر حجر بالرمو أن الملك سنفرو قام بحملة عسكرية في بلاد النوبة مكّنته من أسر سبعة آلاف من الجنوب، وسوق مائتي ألف من المواشي، ثم أعقب ذلك بحملة ضد الليبيين في الشمال الغربي من البلاد حيث أسر أحد عشر ألفاً وغنم مئة وواحداً وثلاثين ألف رأس من الماشية. وتشير هذه الأرقام - إن صحت - إلى قوة جيشه وتنظيمه، كما تؤكد عزمه على تأمين حدود البلاد، وحرصه على ردع القبائل القريبة من الحدود والتي قد تفكر في مهاجمة الأطراف وتهديد أمنها. فكانت حملاته نوعاً من الضربات الوقائية، ولم تكن

---

(١٢) عبد العزيز صالح، المصدر السابق ١١٣ A. Gardiner, Peet and Cerny, Inscriptions of Sinai, Part II, P. 56 - 57; 140.

أحمد فخري، مصر الفرعونية، ص ٦٩؛ عبد القادر خليل عبد المنعم، علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة، ص ٢١ - ٢٣.

غـايتها تـوسيع ممتلكـات الدولـة واحتلال المنـاطق المجاورة بغـرض ضمها إلى مناطق مصر الأصلية.

وشهد عهد سنفرو مرحلة جـديدة من مـراحل العـمارة المصرية إذ اتخـذ الهرم شكله الحقيقي في عهده بعـد أن مر بمـرحلة الهرم المـدرج ذي المصاطب الست الـذي بنـاه إيمحوتب لملكـه زوسر، ومـا سبقـه من المصـطبـة ذات المسـطحات الثـلاثة، والمصـطبـة ذات المسـطحـين، والمصـطبـة ذات المسـطح الواحد، فغدا الهرم في زمنه ثمرة أخيرة للتطور المعماري الطويل الذي بـدأ في عصر بداية الأسرات بالمصطبة ذات المسطح الواحد، مائلة الجوانب.

أكمل المهندسون بناء هرم والده حوني في ميدوم، وحـاولوا أن يكسبـوه شكل الهرم الحقيقي من خلال ملء الفراغات الواقعة بين درجاته بالأحجـار، كما ذكرنـا، فأفـادوا من هذه التجـربة، كـما يبدو لنـا، في بناء هـرمين لملكهم سنفرو في دهشور، فشادوا له هـرماً أرادوا لـه أن يكون مكتمـل الشكل منـذ البداية، ولكنهم لم يوفقوا في إتمامه كما خططوا، بـل اضطروا إلى تغيـير مقدار زاوية الميل بعد أن وصلوا إلى ما يـزيد عـلى تسعة وأربعـين متراً من الارتفـاع حتى تتحمل القاعـدة ثقل البنـاء، فظهـر الهرم منكسر الـزاوية بعـد أن أكمل المهندسون بناءه حتى تجاوز ارتفاعه المئـة متر بقليـل، فدعي هـذا الهرم بـاسم «الهرم المنكسر». ثم عمد المهندسون إلى بنـاء هرم ثـان لملكهم، بلغ ارتفاعـه حوالى تسعة وتسعـين متراً، وهـو الهرم المصري الأول الـذي اتخذ هيئـة الهرم الحقيقي الكامل، والذي أصبح نموذجاً لكل الأهرامـات التي شادهـا الفراعنـة من بعد.

كما اتخذت المقبرة الملكية في عهد سنفرو شكلها النهائي الـذي حافـظت عليه فيما تلا من عصر الدولة القديمة، حيث كان الهـرم لا يشكل فيهـا سوى جزء من مجمع كبير يشتمل على معبد صغـير في الوادي، يصـل إليه القـادمون من النهر عن طريق قناة مائية وهم يحملون جثمان الفرعون في مركبه الخاص، ولذلك يدعى «معبد الـوادي». ثم تتعرج طـريق (مسقوفـة) بالارتفـاع لتصل المعبد الأساسي المسمى «المعبد الجنائزي» أو «معبد الشعائر» حيث كـانت تقام

الشعائر اليومية والموسمية، وتؤدى الدعوات للملك المتوفى، وتقدم القرابين باسم روحه لتنعم بها وتهنأ بالراحة والطمأنينة. وكان هذا المعبد يلاصق الواجهة الشرقية للهرم، وينفتح ناحية الشرق إما لاستقبال دنيا الأحياء في الشرق، أو لاستقبال الشمس عند شروقها تعبداً لرب الشمس، أو إيماناً من المصريين القدماء بأن روح الملك تصحب رب الشمس في تجواله في سماء الدنيا نهاراً، وسماء الآخرة ليلاً.

أما الهرم نفسه ذو القاعدة المربعة فتتجه جدرانه إلى الجهات الأصلية الأربع، ولما كان المثوى الأمين لجثة الملك ومقتنياته، فإنه يشتمل على حجرة دفنه المحفورة في الصخر أسفل الهرم. ويحاط الهرم عادة بسور يحميه وتقع بينه وبين الهرم حفرات طويلة تحتوي على المراكب الملكية.

يقع هرما سنفرو في دهشور إلى الجنوب من سقارة بحوالى ٧ كم، ويبعد الهرمان عن بعضهما مسافة تقل عن الكيلومترين، وكان المهندسون قد تعمدوا كساءهما بالحجارة الجيرية البيضاء الملساء حتى يعكسا نور أشعة الشمس على ما حولها، فدعي كل هرم منها باسم «خع سنفرو»، أي «شع سنفرو»، أو «تجلى سنفرو» تعبيراً عن النور المنبعث من الهرمين، ومن صاحبهما سنفرو ذاته.

أدى النشاط التجاري والعسكري في عهد سنفرو إلى تحسن أحوال البلاد والمواطنين باطراد، تبدّى في آثار الملك وآثار أسرته، وفي نصوص رعاياه الذين هيئت لهم الفرص المناسبة لتحسين أحوالهم المعاشية، كما يبدو من بعض ما وصل إلينا من آثارهم الكتابية، وكما يتأكد من خلال قيام رجال الملك ببناء هرمين للفرعون مع ملحقاتهما، الأمر الذي ما كان ليتم من دون توافر الإمكانات المادية الضخمة، وتحقق حياة الرفاهة والغنى في أوساط البيت الحاكم الذي كانت له نتائجه في بعض أوساط الشعب. ويبدو أن اسم سنفرو «نب ماعت»، أي «رب العدالة» لم يكن بلا تأثير في حياة الناس فقد احتفظ له الأدب الشعبي بذكرى عطرة، من ضمنها ثلاث روايات تصفه بالملك الفاضل، المتواضع الذي يميل إلى التزود بالمعرفة، وإلى مجالسة العلماء

وإكرامهم، وإلى السؤال عما لا يعرفه من دون حرج. وتذكر بردية تورين أن حكم سنفرو دام أربعة وعشرين عاماً.

ونشير أخيراً إلى أن منصب الوزير أنشىء رسمياً في عهد سنفرو الذي عهد به إلى أمير من أولاده، وبقي هذا المنصب حكراً على أحد أبناء الملك أو الأسرة حتى نهاية عصر الأسرة الرابعة.

عهد خوفو:

تولى الحكم بعد سنفرو ابنه وولي عهده خوفو «خنوم خوفوي»، أي "(الإله) خنوم يحميني» Cheops الذي دام حكمه ثلاثة وعشرين عاماً، كما تذكر بردية تورين، بينما يدعي مانيتون أنه بقي على عرش مصر ثلاثة وستين عاماً(١٣). وقد ورث مع العرش المهيب حكم بلد مستقر الأوضاع، فيه من الإمكانات المادية والكفايات الفنية ما لم يتوافر لشعب معاصر آخر. ولكن يبدو لنا أن خوفو، على الرغم من قلة الأخبار التي تتحدث عن أعماله، وعن سياسته ونشاطاته العسكرية، بل ندرة هذه الأخبار إن لم نقل غيابها الواضح، كان فرعوناً يمسك زمام الأمور بكلتا يديه، ويدير دفة الحكم بإحكام، ويعرف الإفادة من إمكانات البلاد الاقتصادية والفنية حين تسنم عرشها، كما يعي سبل تطوير تلك الإمكانات واستغلالها وإلا ما كان بمقدوره أن يخلّف أكبر منشأة معمارية عرفها تاريخ الإنسان، وهي الهرم الأكبر في الجيزة. وتشير الآثار الكتابية القليلة إلى أنه كان يسير على خطى والده في سياسته الداخلية والخارجية، فكان لا يتوانى عن استغلال ثروات مصر المتوافرة، إذ نقش اسمه على جزء من المحاجر الواقعة إلى الشمال الشرقي من «أبو سمبل» حيث جلب رجاله منها الديوريت ليصنعوا منها تماثيل لمولاهم لم يبق منها سوى واحد صغير، وليرصفوا بها أرضية معبده في الجيزة. وعثر على بقية من آثار معبد قديم في مدينة جبيل الفينيقية ظهر عليها اسم خوفو(١٤)، الأمر الذي يؤكد

---

(١٣) FW, 2, 257.

(١٤) عبد العزيز صالح ١١٧.

علاقته بفينيقية واهتمامه بالاتجار معها. ولكن الذي خلد اسمه وسلطانه إنما هو هرمه المشهور وحده.

يقوم الهرم الأكبر الذي يشهد على عظمة صاحبه الملك خوفو فوق هضبة الجيزة شمالي العاصمة القديمة منف (إنب حج)، قرب القاهرة اليوم، وينتصب على قاعدة مربعة، طول الضلع الواحد منها حوالى ٢٢٧م، بحيث يغطي مساحة قدرها ٥٢٩٠٠ م٢، أي ما يصل إلى أكثر من خمسة هكتارات، ويبلغ ارتفاعه الأصلي ١٤٦ متراً تقريباً، ولم يبق منه في الوقت الحاضر غير ١٣٨ متراً. وعلى الرغم من ضخامة الحجارة التي استخدمت في بنائه فإن تقدير عدد الكتل الحجرية الكلسية المستخدمة يبلغ حوالى ٢,٣٠٠,٠٠٠، يتراوح وزن الواحدة منها بين الطنين والنصف إلى ثلاثة أطنان، ويصل بعضها إلى ١٥ طناً. ويقدر بعضهم أنه لو كان بالإمكان تقطيع هذه الكتل الحجرية إلى مكعبات يبلغ طول الضلع منها ٣٠ سم وصفّها إلى جانب بعضها، المكعب إلى جانب الأخر، لغطت تلك المكعبات المصنوعة من حجارة الهرم ثلثي طول خط الاستواء. وثمة من يقول إن المساحة التي يشغلها الهرم تعادل المساحات التي تقوم عليها كاتدرائيات فلورنسة وميلانو (في إيطالية)، والقديس بطرس (في روما)، ووست مينستر والقديس بول (في لندن) جميعها[١٥]. وإننا إذ نسوق هذه الأرقام والمقارنات إنما نبغي إعطاء صورة تقريبية عن حجم هرم خوفو الهائل الذي جعل منه إحدى عجائب الدنيا السبع. وهو وإن شيد ليؤوي جثة الفرعون، إنما هو شاهد على ثرائه، وعلى سعة سلطانه، ودليل على رفعة شأنه في حياته الدنيا وفي الحياة الآخرة، ولكنه يمثل في الحقيقة نموذجاً فريداً للبناء والفن المعماري في تاريخ العمارة لم يصل إليه شعب معاصر للشعب المصري، إنه جبل صنعه الإنسان المصري من الحجارة يشهد على جبروت صاحبه، ولكنه كذلك عمل فني يشهد على كفاءة المهندس والفنان والعامل المصري، كما يشهد على إدارة المشرفين على بنائه الفذة، إذ كان عليهم تنظيم العمل فيه، وتأمين تموين آلاف العمال

---

(١٥)عبد العزيز صالح، ١١٨؛ FW, 2, 259.

وإسكانهم، والإفادة من طاقاتهم البدنية والعقلية؛ وليست ضخامة الهرم وكتله الحجرية وحدها المثيرة للإعجاب والدهشة فحسب، بل الكمال الذي حققه المهندس إذ وجّه أسطح الجوانب إلى الجهات الأربع الأصلية بدقة متناهية بحيث لا يصل انحراف أحدها الأعظم إلى خمس درجات، وجعل الزوايا تسعين درجة كاملة؛ ولم يستخدم أياً من المواد اللازمة لتثبيت الحجارة مع بعضها، فقد جعلها، وهي حجارة مصقولة بإتقان شديد، تلتصق ببعضها، كل حجر منها بالآخر، حتى قيل فيها إنها لا تسمح للشفرة بالنفاذ بينها للتعبير عن شدة التصاق الكتل الحجرية ببعضها.

لم ينجز العاملون في بناء الهرم هيكله فحسب، بل كان عليهم أن يجهزوا حجرة الدفن في داخله، وقد تم العثور فيه على ثلاث حجر عوضاً عن الواحدة، إحداها تحت الهرم، كما جرت العادة، والثانية في باطنه (عرفت باسم حجرة الملكة)، أما الثالثة فتقع في نصفه العلوي وهي الحجرة التي دفن فيها الملك في تابوته الجرانيتي. كما كان عليهم أن يكسوا الهرم بلوحات سميكة ضخمة من الحجر الجيري الناصع البياض، جلبوه من محاجر كانت تقع على الضفة الشرقية للنهر المقابلة للضفة التي شادوا هرم مولاهم على مقربة منها.

وكان الهرم جزءاً من مجموعة معمارية واسعة لا تختلف في عناصرها الأساسية عن مجموعة أبيه في دهشور: ثمة معبد الوادي، ومعبد الشعائر، والطريق الواصلة بينهما، وسور كبير يحيط بالهرم، وخمس حفر لإيواء المراكب الملكية تحيط بالهرم، يبلغ طول الواحدة منها ثلاثة وأربعين متراً. وظهرت على أرض المقبرة الملكية مبان أخرى، ومنها هرم صغير إلى الجنوب الشرقي من الهرم الكبير، وعدة أهرام لزوجات الملك، وعدد من مقابر كبار رجال الدولة، ممن كان حريصاً على أن يدفن حول هرم فرعونه تقرباً منه، وإرضاء له، في الحياة الأولى، وفي الحياة الثانية، وكانت المقابر على هيئة المصاطب، كما جرت العادة، ولكنها مبنية من الحجارة وليست من اللبن، وقد جعلت على نسق ورتبت في صفوف وكأنها جعلت ثمة بناء على تخطيط محدد شرقي الهرم وغربيه.

- لم يكتف خوفو ببناء الهرم الكبير وحده، بل أقام العديد من المعابد في أنحاء مختلفة من مصر، وأمر بترميم بعض المعابد الأخرى. وليس من معنى لنشاطه العمراني هذا غير أن سياسته لم تكن ناجحة من الناحية الإدارية فحسب، بل يؤكد كذلك توافر عهد من الرفاهية والرخاء الاقتصادي الذي كانت تتمتع بها الدولة في ظل حكمه، كما يؤكد أن خوفو كان، كما أسلفنا، فرعوناً استغل نظام الحكم المطلق الذي تيسر له في زمنه، والذي خوله صلاحية الهيمنة على موارد البلاد وإمكاناتها المادية والبشرية، كما استغل سلطانه الديني والروحي التقليدي، فهو يتمتع بالقداسة عند رعاياه ويعتبر رئيس الديانة ووريث الأرباب، فلذلك كانت كلمته نافذة بصفته ملكاً مطلق الحكم، وبصفته الدينية التي تجعله يتحكم في مصائر الناس في الدنيا وفي شؤون الآخرة، استغل ذلك كله في بناء هرم يخلد اسمه ويفخر به على أقرانه من الملوك. وعلى الرغم من إسرافه المفرط في بناء الهرم إلى حد المبالغة فإن صورته لم تكن قاتمة في أوساط الرعية، فثمة أديب مصري خلّف قصة عنه تظهره بمظهر الإنسان الذي يجالس أولاده، ويسامرهم، ويسمع منهم ما وصل إليهم من أخبار الماضين، ويحترم الحكماء ولا ينساق وراء كبريائه فيفتك بمن لا يلبي رغباته على الرغم من أن نصوصه الملكية ونصوص رجال الحاشية كانت تلقبه بلقب «نثرعا»، أي «الإله العظيم»، واشتهرت هذه القصة باسم «خوفو والحكيم جدي، أو قصة خوفو والسحرة»(١٦).

ورث خوفو ابن له اسمه جد فرع، لم يطل حكمه أكثر من ثماني سنين بحيث لم يتسن له إتمام هرمه المتواضع في شمال غربي الجيزة في منطقة أبي رواش.

عهد خفرع Chefren:

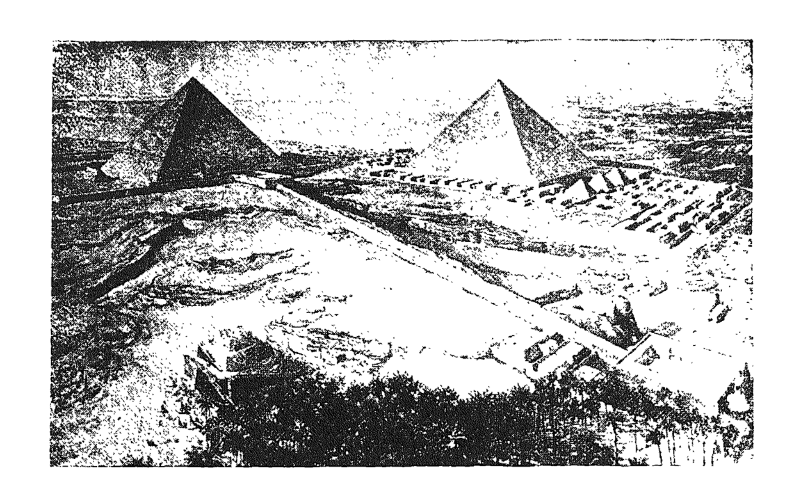
خلف خفرع أخاه جد فرع في الحكم، واشتهر كأبيه خوفو بهرمه الذي بناه في الجيزة، وهو وإن لم يكن يضاهي الهرم الأكبر في الحجم والارتفاع، إذ

(١٦)عبد العزيز صالح ٣٧٨.

بلغ ارتفاعه ١٤٣ متراً (بقي منه اليوم ١٣٦ متراً أو أقل)، وطول ضلعه ٢١٥ متراً، إلا أن مهندسه شاده على منطقة من هضبة الجيزة أكثر ارتفاعاً بقليل من المنطقة التي بني عليها هرم خوفو فغدا يبدو للناظر في مستوى الهرم الأكبر إن لم يكن أعلى منه. ويعد معبد الوادي الذي بني بأحجار هضبة الجيزة نفسها، وكسيت واجهته بألواح ضخمة سميكة من الجرانيت التي جلبت من محاجر أسوان وجبال البحر الأحمر، أكمل معبد من عصره تم الكشف عنه، وواحداً من روائع فن العمارة المصرية الأصيلة، كما عثر في داخله على تمثال للملك خفرع من الديوريت (هو في المتحف المصري الآن) من أصل ثلاثة وعشرين، نُحت بعضها من الألباستر الأبيض، وبعضها الآخر من الديوريت الأزرق، تهشم أغلبها، وبقي القليل منها سليماً، ومنها تمثاله المذكور الذي يظلل مؤخرة رأسه صقر يرمز إلى الإله حور وهو يفرد جناحيه حول رأس الملك وكأنه يخصه بالحماية والرعاية.

وثمة أثر فني رائع آخر من عهد خفرع طغت شهرته على شهرة هرمه ومعبده، وهو تمثال «أبو الهول» الذي يتشكل من جسم أسد رابض ورأس إنسان ناهض، بارتفاع يبلغ حوالى ٢٢ متراً، وطول يمتد إلى ٧٢ متراً، نحته الفنان من الصخر الطبيعي للهضبة حيث ينهض فوق قاعدة مرتفعة كسيت بالحجارة الجيرية الملساء. ويرجح أن الرأس يمثل رأس الملك حفرع نفسه، وقد تعمد الفنان أن يزينه بشارات الملك المعروفة، وهي عصابة رأس مخططة عريضة تصنع عادة من القماش المقوى لتغطي الرأس ومؤخرته، وحية ناهضة على الجبين؛ ولحية دقيقة طويلة مستعارة (وقد سقطت الحية واللحية من موضعها وتهشم الأنف). ويقوم في مواجهة أبي الهول معبد كبير كانت تقدم فيه القرابين وترفع الدعوات باسم صاحب التمثال. أصبح أبو الهول في اعتقاد المصريين حارساً لمدينة الموتى في منطقة الجيزة[١٧]، واعتبروه صورة من

(١٧) اسم «أبو الهول» في العربية يعبر عن طابع الرهبة، والهول، إشارة إلى مظهر التمثال الذي يمثل حيواناً أسطورياً يعرف في الإغريقية باسم Sphinx، ولعله جاء تحريفاً لاسم معبود كنعاني يدعى حورون، قربه بعض الكنعانيين الذي سكنوا مصر =



هرما خوفو وخفرع وأمامهما أبو الهول (رسم توضيحي)

صور إله الشمس في عصر الدولة الحديثة.

امتد حكم خفرع إلى حوالى خمسة وعشرين عاماً، ولم يرد عن عهده شيء من النشاطات العسكرية أو العمرانية لندرة الوثائق الكتابية والشواهد الأثرية، غير بناء مقبرته الملكية بما تتضمنه من الهرم وتوابعه وتمثال أبي الهول. ولكن من المؤكد أن لقباً جديداً للفرعون ظهر في عهده، هو لقب «سارع»، أي «ابن (الإله) رع»، أصبح الفراعنة من بعده يتقلدونه إضافة إلى الألقاب الملكية الأربعة السابقة. ويفهم من هذا اللقب أن الإله «رع» الذي هو رب الشمس عندهم كان يتمتع بنفوذ كبير وواضح في عصر الأسرة الرابعة، ولا سيما في عهد خوفو وأبنائه، إذ سمى خوفو ثلاثة من أبنائه بأسماء تداخل فيها اسم رع: جد فرع، وباد فرع، وخفرع. ولكن هذا النفوذ، وتلك المكانة المميزة لرع، بدأ في الحقيقة منذ عصر الأسرة الثانية إذ حمل أحد ملوكها اسم نبي رع، واستمر في عصر الأسرة الثالثة، ثم توضح أكثر في عصر الأسرة الرابعة.

عهد منكاورع (Mykerinos)، والنصف الثاني من عصر الأسرة الرابعة:

ورث خفرع على عرش مصر ابنه منكاورع صاحب الهرم الكبير الثالث في الجيزة، وإن كان لا يصل إلى نصف حجم هرم والده وهرم جده، إذ لا يصل ارتفاع هرمه إلى أكثر من ٦٦,٥٠ متراً، ولكنه لا يقل عنهما جمالاً. فقد بدأ العمال بكساء أسطحه بلوحات ضخمة من الجرانيت الأحمر (وما زال عدد من مداميكه السفلى مزداناً بها)، ولكن موته المبكر حال دون إكمال العمل في المقبرة كلها، حتى جاء ابنه شبسكاف فأمر بإتمامه ولكن ليس على الصورة التي كان رجال منكاورع قد رسموها. ولعل السبب في التراجع عن تقليد خوفو وخفرع فيما بذلا من أموال الدولة في سبيل بناء مقبرتهما ما آلت إليه أحوال البلاد المالية من قصور في عهد منكاورع، ويؤكد ذلك أيضاً ما خلف ملوك

= بالتمثال فعبدوه. ثم حرف المصريون الاسم إلى حورنا، وأخيراً إلى حول. وتعني لفظة «بو» في المصرية القديمة «مكان» و«با» أداة التعريف المذكرة المفردة.



[illegible]

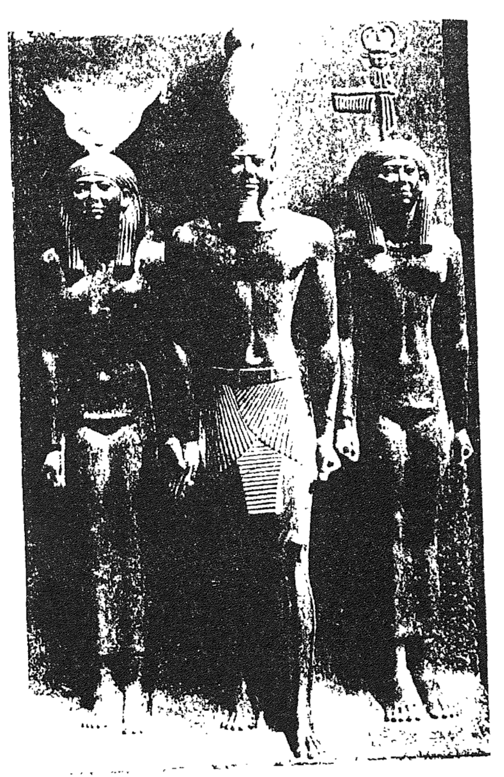


تمثال أبو الهول [illegible]

الأسره من آثار عمرانية وفنية تختلف في إمكاناتها عما سبقها في عهود أوائل ملوك الأسرة نفسها الذين اتسمت سياستهم الداخلية بالإسراف والإنفاق من دون حساب، ولا سيما في عهد خوفو وابنه خفرع، كما رأينا، لتوافر الإمكانات التي تسمح ببسط الكف كل البسط، ثم جاءت النتيجة المتوقعة، وهي قصور الإمكانات المادية، دون الفنية، بعد سنوات قليلة من وصول منكاورع إلى الحكم الذي استمر فيه حوالى واحداً وعشرين عاماً.

واختلف عهد منكاورع عن عصر والده وجده في مجال التعامل مع كبار الموظفين، فقد فتح قصره لأبناء المقربين منهم، وعهد بتربيتهم إلى كبار رجال القصر مع أبنائه. وهي سياسة جديدة كان الملك يهدف من ورائها إلى كسب ولاء كبار رجال الدولة وولاء أبنائهم من بعدهم، وليضمن من خلالها إخلاصهم له. ومن اللافت في هذا الصدد أن تماثيل بعض كبار الشخصيات في عهده أضحت تظهر بأحجام تفوق الحجم الطبيعي على غير المألوف من قبل، كما ظهرت مقابرهم مزدانة بالنقوش والمناظر وقد امتلأت بتماثيل أصحابها، ونحت بعض تلك المقابر داخل الجدار الصخري لهضبة الجيزة بدلاً من تشييدها من الحجر فوق الأرض.

وعندما خلف الملك شبسكاف أباه لم يحد عن سياسة التقرب من كبار رجال الدولة وضمان ولائهم عن طريق تربية أبنائهم في القصر الملكي، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فزوّج ابنته من أحد أبناء كبار الموظفين الذين رباهم أبوه في قصره، فصار منذئذ زواج الأميرات من خاصة أفراد الرعية، ومن غير الأمراء أمراً مألوفاً فيما تلا من عصور. واستمرت عواقب إسراف ملوك الأسرة الرابعة الأوائل تفعل فعلها في عهد شبسكاف، فلم يستطع إكمال بناء مقبرة أبيه بالحجر على النحو الذي خطط له مهندسوه في حياته، بل رأى نفسه مضطراً إلى القناعة باستخدام اللبن، والتخلي عن تشييد هرم خاص به، والاكتفاء بقبر على هيئة تابوت ضخم، مستطيل مائل الجوانب، يعرف الآن باسم مصطبة فرعون، بطول ١٠٠م، وعرض ٧٢ متراً، وارتفاع ١٨ متراً، شاده المهندسون في جنوبي سقارة. ولم يدم حكم شبسكاف أكثر من سبع سنوات كانت نذيراً بانتهاء حكم الأسرة منذ البداية، فآلت وراثة



الملك منكاورع بين المعبودة حتحور وربة إقليمية

العرش إلى الأميرة خنتكاوس التي يرجح أنها كانت بنتاً للملك منكاورع وأختاً غير شقيقة لشبسكـاف. وتلقبت خنتكاوس بلقب «ملكـة الصعيد والـدلتا، أم ملك الصعيد والدلتا، بنت الرب»، كما ورد في نصوص قبرها الذي يشبه قـبر أخيها، فقد دانت لها مصر، كما يبدو، فترة من الزمن، وعندما تزوجت أميـراً ينتسب إلى الأسرة نفسها هو أوسـركـاف بدأ عصر أسرة جـديدة، هي الأسرة الخامسة، وأنجبت ابناً هو ساحورع خلف أباه في الحكم. فكانت ملكـة، ثم غدت زوجة للملك، ومن ثم أماً لملك.

السياسة الداخلية والخارجية في عصر الأسرة الرابعة:

لم تقدم الوثائق المتوافرة من عصر الأسرة الرابعة القليلة الأخبار الـوافية عن أحداث العصر الذي استغرق حوالى مائتي عام. ولكن يتضـح من خلال الاكتشـافات التي تمت في النـوبـة السـودانيـة (عـام ١٩٦٢) أن خلفـاء الملك سنفرو حافظوا على نفـوذ مصر في جنوبي البـلاد، وسيطروا عـلى منطقـة بوهن القريبة من وادي حلفـا اليوم وضمـوها إلى أمـلاك مصر، ووصلوا بذلـك إلى مقربة من الشلال الثاني. ومن المتوقع أن يكـون اتصالهم التجـاري مع آسيـة الغربية قد ازداد، ولا سيما مع فينيقية لاستيراد الخشب بكميات أكـبر من ذي قبـل لحاجتهم المـاسة إليـه في مشروعاتهم العمـرانية الضخمـة، ومثـال ذلـك مراكب خوفو، التي بلغ طول أحـدها ٤٣ متراً من خشب الأرز الفينيقي، تم العثور عليها في عام ١٩٥٤. كما كـانت الحملات العسكـرية والبعثـات تتوالى على شبه جزيرة سينـاء، وعلى الصحـراء الشرقية والصحـراء الغربيـة بانتـظام لتـأمين منـاطق المناجم والمحـاجر، وبحثـاً عن المـواد الأوليـة فيهـا من معـادن وحجارة تتطلبها حاجة ورشات العمل الملكية. ولا بد أن الحملات العسكرية كانت لا تنقطع عن الحدود الغربيـة، لأن الليبيين كـانوا لا يـألون جهـداً منذ القـديم لإيجاد مـوطىء قدم لهم في منـاطق مصر الخصبة، ولا سيـما في مناطق الدلتا التي كانت تجتذب اهتـمامهم، وتبعث الأمل في نفـوسـهم، علهم يجدون فيهـا دار سكن وإقامـة دائمين في يـوم من الأيام، ولكن الفـراعنة كـانـوا لهم بـالمرصـاد، ويتحينون الفـرص المناسبـة لمهـاجمتهم ودرء خـطرهم عن الـوجـه القبلي.

ويبرز من بين إنجازات ملوك الأسرة الرابعة أمران، أولهما: تطوير إدارة البلاد والوصول بها إلى درجة الكمال بعد ابتكار منصب الوزير، وثانيهما: التقدم الرائع الذي وصلت إليه الفنون بمختلف أنواعها والتي ظهرت في العمارة الملكية ومحوياتها، كما توافرت بكثرة في أوساط كبار رجال الدولة، في المدافن والتماثيل والمناظر التزيينية، وفي الأثاث وفي صناعة الحلي، حتى وصلت الفنون إلى مرتبة رفيعة من الذوق والبراعة في التقنية، مرتبة استطاعت أن تبلغها فيما تلا من عصور، ولكنها لم تتجاوزها في يوم من الأيام.

الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ ـ ٢٤٢٠ق.م):

اتخذ أول ملوك الأسرة أوسركاف لقب «إر ماعت»، أي «واضع النظام» أو «محق الحق»، وكأنه يشير إلى جهوده المثمرة في سبيل إعادة الحق إلى نصابه، وإلى أنه يؤكد شرعية حكمه، وابتدع أسطورة نسبته وخلفائه من بعده إلى (روح) الإله رع رب الشمس الذي اعتبره صاحب الفضل في ارتقائه العرش وفي مؤازرته، وفي حمايته وحماية أفراد الأسرة[١٨]. وتعاقب من بعده ثمانية ملوك لا خلاف حول أسمائهم ولا حول ترتيبهم، وهم: أوسركاف، ساحورع، نفر إر كارع، شبسكارع، نفر فرع، ني وسر رع، من كاو حور، جد كارع إسيسي، أوناس. ولكن ثمة خلاف في عدد سنوات حكم كل واحد منهم، بل وعدد سنوات حكم الأسرة كلها بين بردية تورين والمؤرخ مانيتون. ففي الوقت الذي تذكر بردية تورين أن حكم أوسركاف دام سبع سنوات، نجد مانيتون وقد حدد سني حكمه بثمان وعشرين. وإذا حسبنا ما تورده البردية من سنوات حكم الأسرة نصل إلى مئة وست عشرة سنة، بينما يعطي مانيتون الأسرة الخامسة عدداً من السنوات يبلغ حوالى مئتين وثماني

---

(١٨) تحكي الأسطورة التي روجها ملوك الأسرة الخامسة في أوساط الشعب، وأشاعها الكهان ورجال البلاط، أن الإله رع أنجب الملوك الثلاثة الأوائل من أم تدعى رجدت كانت زوجة لكاهن أونو الأعلى وذلك في عهد الملك خوفو. وقد عثر على نسخة من صور الأسطورة المكتوبة يعود تاريخها إلى عصر الدولة الوسطى سجلت على بردية عرفت اصطلاحاً باسم بردية فستكار (Westcar) FW, 2, 265.

وأربعـين. ومن اللافت أن معـظم أسماء ملوك الأسرة يحتـوي على اسم الإله رع في تركيبه، الأمـر الذي يؤكـد نفوذ هـذا الإله وعـظم شأن كهنتـه واتساع آفاق ديانة الشمس في عصر الأسرة الخامسة، ويزكي ذلك اهتمام ملوكها بمعبد الشمس في أونو نفسها، ثم إقامة ستة معابد أخرى على شاكلته.

خصائص معابد الشمس:

يشتمـل معبـد الشمس الـذي بني في عهـد ني وسر رع، سـادس ملوك الأسرة في «أبـو صير»، وهـو اليوم أكمـل معابـد الشمس الباقيـة، عـلى مبنى ضخم يقـوم فوق الهضبـة، ويطل عـلى الوادي، ويعتـبر مـدخـلاً إلى منـطقـة المعبد، ويتصل بـه طريق صـاعد مكشـوف لأشعة الشمس ينتهي عنـد المعبد الرئيس الذي يتألف من بناء ضخم، يضم بهـواً رحباً، عظيم الاتساع، كيـما تغمره أشعة الشمس وتملأ أرجاءه، وتقوم فيه مسلّة حجرية ضخمة تنهض على قـاعدة بـارتفاع يبلغ حـوالى ٣٦ متراً. وتنتهي المسلة بقمـة عـلى هيئـة الهـرم الصغـير لترمـز برأسهـا المدبب إلى رفعـة مكـانـة الإله التي يحتلهـا في النـظام العالمي، في قمة الهرم. ويجاور المعبد من الخارج قـرب جداره الجنـوبي مراكب خشبية ترمز إلى مركب الشمس (لم يبق منها اليوم سوى هيئة المركب المبنية من اللبن).

ومن أهم خصـائص معبد الشمس الفنـاء الواسـع، وخلوه من تمـاثيـل الـرب، فهو واضـح ومـوجـود في السـماء، وليس ثمـة حـاجـة إلى أن يختفي داخـل تمثال أو خلف جدران وأستار.

أهرام الأسرة الخامسة، ومتون الأهرام:

حـرص ملوك الأسرة الخامسـة على بنـاء الأهرام التي هي بمثـابة بيـوت الخلود، ولم يقـل اهتـمامهم بهـا وبمعـابـدهـا عمن سبقهم من ملوك الأسرة الرابعة. ولم يقصروا كـذلك في بنـاء المعابـد للأربـاب. فتوزعت أهـرامهم في سقـارة «وأبو صير»، وكـانت أقـل كثيـراً عن أهـرام الأسرة الـرابعـة من حيث الضخـامة وكـبر الحجارة، ومن حيث الفخـامة، ومـرد ذلك إلى أن إمكـانات

البلاد المادية، وموارد الدولة، لم تكن قادرة على مجاراة أذواق الملوك وتلبية رغباتهم، وأن سيطرة ملوك الأسرة الخامسة على مقدرات الدولة لم تكن كتلك التي كانت للملوك الأسرة الرابعة الأوائل. ولكن الأسلوب الفني الذي اتبعه فنانو العصر في زخرفة المعابد الملحقة بالأهرام عوضها عن الضخامة التي اتسمت بها الأهرام السابقة، وتوضح ذلك في كثرة المناظر المنقوشة على جدران المعابد، معابد الوادي ومعابد الشعائر، التي صورت انتصارات الملوك، وصلاتهم بأربابهم، كما صورت جوانب من حياتهم الخاصة، وأظهرت أشكال السفن النيلية الكبيرة وهي تنقل على متنها الكتل الجرانيتية الضخمة من أسوان إلى منطقة المعابد، والسفن البحرية التي كانت تنتقل بين مصر وبين فينيقية وهي تحمل الرجال والبضائع والحيوانات الغريبة.

ولكن أجمل تلك النقوش ما حفلت به جدران حجرة الدفن والقاعة المؤدية إليها في هرم الملك الأخير من ملوك الأسرة الخامسة في سقارة، وهو هرم أوناس، بمتون دينية وأسطورية، وهي نصوص نقشها الفنانون بالكتابة الهيروغليفية (التصويرية) فبدت رائعة في أشكالها البديعة وصورها الحيوانية والبشرية، وبألوانها الممتعة المتناسقة، كما زخرفوا سقف الحجرة بأشكال النجوم حتى صار أشبه بالسماء التي تظلل جثة الملك الثاوي في حجرة دفنه(١٩).

وتعتبر متون الأهرام حصيلة عصور وقرون طويلة، ومذاهب دينية متعددة، ظل المصريون يرددونها مشافهة حتى نقشها الفنانون في هرم أوناس وفي أهرام ملوك الأسرة السادسة، فعبرت المتون عن عقيدة بعث الملك وخلوده، ورددت صيغاً كثيرة من التراتيل الدينية التي كانت تتلى عند تقديم القرابين، وذكرت أسماء كثير من الأرباب ونعوتهم، وصفات قدسية كان الكهنة ورجال الملك يطلقونها على الفرعون تقرباً منه والتماساً لبركته ورضاه.

---

(١٩) عبد العزيز صالح ١٤٠؛ J.H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, London 1912; S. Mercer, The Pyramid Texts; R. Faulkner, The Pyramid Texts, London 1970.

كما كان من الموضوعات الهامة للمتون رواية بعض القصص القومية القديمة، والتنويه برؤية بعض المفكرين لقصة الخلق ونشأة الوجود، والعلاقات بين أرباب التاسوع الأكبر: أتوم، جب، أوزير، ست، إيسة خصوصاً، إضافة إلى حور، ورع، والحديث عن تصورات الناس عن الحياة الآخرة وعن سلطان الفراعنة فيها.

سياسة الأسرة الخامسة الخارجية والداخلية:

توضحت علاقات مصر ببلاد البونت في عصر الأسرة الخامسة أكثر من قبل، وهي بلاد كانت تقع على السواحل الجنوبية للبحر الأحمر حيث تقع اليوم إريترية والصومال، وربما قصد بها المصريون كذلك ما يقابل هذه المناطق من الجنوب والجنوب الغربي من الجزيرة العربية، أي اليمن. وكانت بعثاتهم التجارية تصل إليها عن طريق البحر الأحمر الذي ينتهي عنده طريقان بريان رئيسان: أحدهما يمر من وادي الحمامات في الجنوب، والآخر يسلك وادي الطميلات ثم خليج السويس في الشمال. وكانت بلاد البونت التي لقبها المصريون بلقب «أرض الإله» أو «الأرض المقدسة» تشتهر بالبخور واللبان والمر والصمغ، وهي المواد اللازمة لطقوس العبادة اليومية في المعابد، وللتحنيط، وبعض طقوس دفن الموتى. كما كانوا يستوردون منها بعض المعادن والأحجار الكريمة والعاج، وخشب الأبنوس الثمين، ويحصلون منها على جلود الفهود والنمور. وقد جاء في حوليات ثاني ملوك الأسرة ساحورع أنه وصلت البلاد كميات هائلة من منتجات البونت، كما صور فنانو الملك أفراداً من تلك البلاد في مشاهد معبده المصورة في «أبو صير».

واتسعت اتصالات مصر التجارية في عصر الأسرة الخامسة بفلسطين عن طريق البر، وبفينيقية عن طريق البحر، كما تؤكد الصور المنقوشة على جدران معبد الملك ساحورع التي تظهر فيها الدببة المعروفة في الجبال السورية، والسفن البحرية المصرية وعلى متنها رجال ملتحون ذوو أصل آسيوي. ووصلت البضائع المصرية حتى بلاد النوبة العليا مع امتداد النفوذ المصري في الجنوب. ولم يتوان ملوك الأسرة عن حماية حدود الدولة من خطر

الغرباء، فقد ذكرت حوليات الملك ساحورع قيامه بحملات عسكرية ضد القبائل الليبية، وأن امرأة ملكهم وأولاده وقعوا أسرى بيده في إحدى الحملات. كما قاد حملات عسكرية أخرى ضد البدو في المناطق الشمالية الشرقية من البلاد حيث تقع شبه جزيرة سيناء. وتشير حوليات الملك في أوسر رع كذلك إلى أنه حارب القبائل البدوية في شبه جزيرة سيناء، كما يتبين من آثار آخر ملوك الأسرة أوناس أن سياسته الخارجية كانت تتسم بالحيوية والنشاط مع الشعوب المجاورة.

وسار ملوك الأسرة الخامسة على خطى أسلافهم من ملوك الأسرة الرابعة الأخيرين الذين حاولوا كسب ولاء كبار الموظفين من خلال رعاية أبنائهم، وتربيتهم في القصر الملكي، والإنعام عليهم بالأموال، وتكليف كبار رجالات الدولة بمنصب الوزير، أكبر مناصب الدولة، بعد أن كان حكراً على الأمراء منذ زمن سنفرو، مؤسس الأسرة الرابعة.

وما لبث مركز الوزير أن ازداد أهمية بعد أن نقل الملك إليه بعض سلطاته، فانتقل إليه معها نصيب من قداسة الملك ومهابته، وصارت أمور الدولة الهامة تعرض عليه، وهو الذي يتولى بعد ذلك عرضها على الملك، ومن مسؤولياته: رئاسة الديوان الملكي، والإشراف على المخازن وشؤون الري والزراعة، والمنشآت العامة، والإشراف على دور القضاء والمحفوظات الملكية ودور السلاح، وكان يحمل لقب «كبير خمسة دارتحوتي»، أي كبير القضاة منذ عصر الأسرة الرابعة، ثم حمل لقب «حم ماعت» في عصر الأسرة الخامسة، أي «كاهن العدالة»، أو «خادم العدالة».

ووصلت بعض الأسر الإقطاعية في الأقاليم منذ عهد الملك الأول أوسركاف إلى نفوذ واسع لم تعرفه من قبل، في تطور طرأ على المجتمع، حتى بات أهل الطبقة العليا، وربما كبار أهل الطبقة الوسطى ووجهاؤها، يبنون مصاطبهم حيث شاؤوا، وبأحجام لا تقل كثيراً عن أحجام مصاطب الملوك القدماء، وقد لا يميزها عن مدافن الملوك سوى شكلها المختلف عن الهرم الذي غدا ضئيل الحجم، أما من حيث تزيين مدافن علية القوم فكانت لا

تختلف في الكمية والنوعية عن الزخارف التزيينية التي كانت تملأ جدران المعابد الملكية نفسها.

الأسرة السادسة (٢٤٢٠ ـ ٢٢٣٠ ق.م)

أسس الأسرة السادسة ملك يدعى تتي حكم البلاد حوالى اثني عشرة سنة، بعد أن وصل إلى العرش عن طريق الزواج من ابنة الملك أوناس، الوريثة الشرعية للحكم. ويستدل من وثائق عهده أن علاقات مصر التجارية بفينيقية لم تضعف، حيث عثر في جبيل على عدد من الأواني الخزفية التي نقش عليها اسمه، كما تابع سياسة أسلافه القائمة على تثبيت السيطرة المصرية على أراضي النوبة السفلى بإرسال الحملات العسكرية بين الحين والآخر. وأقيم هرمه في سقارة، وفيه نصوص لا تختلف في مضمونها عن نصوص هرم أوناس، إلا أنها تلح على ذكر الإله أوزير وتشبيه الملك المتوفى به.

وتعاقب على عرش مصر من بعد تتي خمسة ملوك، وهم: أوسركارع، ببي الأول، مرنرع الأول، ببي الثاني، مرنرع الثاني[٢٠].

ويقدر الباحثون أن حكم ببي الأول طال حوالى ٤٩ سنة، لم يتوان خلالها عن متابعة سياسة الأسرة السابقة بإرسال البعثات التجارية إلى الشام والنوبة، والتقرب من كبار رجال الدولة، وإفساح المجال أمام زعماء الأسر الكبيرة في الأقاليم لتوسيع نفوذها، حتى قام الملك نفسه بالزواج من ابنتي أحد أولئك الزعماء الصعيديين، وأنجب منهما ولديه مرنرع الأول، وببي الثاني اللذين خلفاه في الحكم.

وكان ببي الثاني (الذي خلف أخاه وابن خالته في الوقت نفسه)

---

(٢٠) يذكر مانيتون أن ملكة اسمها نيتوكريس حكمت مصر بعد مرنرع الثاني، ويدعي أنها كانت «أنبل النساء وأجملهن». كما تورد بردية تورين ذكر هذه الملكة، ولكن ليس من وثيقة تاريخية أو أثر تاريخي يؤكد دعوى بردية تورين ومانيتون. ويروي هيرودوت أيضاً قصة عن هذه الملكة يقول فيها. إنها انتحرت بعدما انتقمت من قاتل أخيها مرنرع الثاني FW, 2, 289.

صاحب أطول عهد عرفه التاريخ المصري، إذ جلس حوالى ٩٤ عاماً على عرش مصر الذي انتهى إليه وعمره ست سنوات، وقد قيض له الاحتفال بعيد السد مرتين، وكانت والدته وصية عليه في البداية وإلى جانبها خاله الذي صار وزيراً له من بعد.

لقد كان من الواضح أن أوضاع مصر العامة في عصر الدولة القديمة لم يطرأ عليها من التبدلات الخطيرة حتى بداية الأسرة السادسة ما يشير إلى أنها ستسوء في مقبل الأيام، أو أنها ستنهار كلية في المستقبل المنظور، على الرغم من تراجع سطوة الحكم، وهيمنة الفرعون على مقدرات البلاد المالية والسياسية، وعلى الرغم من ازدياد نفوذ كبار الموظفين وولاة الأقاليم، واستفادة هذه الطبقة من المواطنين من سياسة الملوك تجاههم التي فتحت أمامهم فرص المشاركة الحقيقية في الحكم، إذ تزوج الملوك منهم، وسمح لبعضهم بالزواج من الأميرات، كما رأينا، منذ عهد شبسكاف. ولكن لم يصل الحكم إلى عهد ببي الثاني حتى بدأت الأوضاع تسوء فعلاً، وتظهر علائم واضحة على أن البلاد تسير إلى الهاوية، وإلى حال من الفوضى وضياع الأمن والاستقرار، وتردي الاقتصاد، وغياب الإدارة. لقد كانت مركزية الحكم واضحة منذ بداية الأسرة الثالثة وحتى بداية الأسرة السادسة، ولكنها ما لبثت أن بدأت تتحلل من مالكي زمامها الأساسيين، وتنفلت من أيدي أصحابها الرئيسيين، وهم الملوك الذين كان الناس يرون فيهم ورثة الأرباب، وأبناءهم الشرعيين، حتى تضيع وتنهار كلية في السنوات الأخيرة من حكم ببي الثاني الذي شاخ بعد أن امتد به العمر طويلاً، وكثرت المشكلات حوله، وضعفت حكومته وقلت هيبتها، وما عاد قادراً على تحمل مسؤولية الحكم ومباشرة مهامه بنفسه.

ومن الواضح أن سياسة التقرب من كبار رجال الدولة كانت لها نتائج سلبية على سلطة الملك بمرور الزمن؛ فعندما سلك أواخر ملوك الأسرة الرابعة طريقها لم يكن لها ضرر، وعندما غدت في عصر الأسرة الخامسة معروفة لم تظهر سلبيتها للعيان، ولكنها عندما أمست في عصر الأسرة السادسة سمة

العصر استفحلت نتائجها السلبية، إذ كان على الملوك أن يقدموا الهدايا الثمينة للخاصة منهم، وترافق ذلك مع إعفاء بعض المعابد ذات النفوذ الديني الكبير من الضرائب لضمان ولاء الكهنة واكتساب رضى الرعايا. فاكتسب كبار رجال الدولة نفوذاً برضى الملك ودراية منه، وقلّت موارد الملك المادية، وتدنت مظاهر الأبهة الملكية، وأصبح كبار الموظفين يتجرأون على مضاهاة الملك إلى حد كبير في حياته، وفي مماته في بناء المدافن وزخرفتها، وفي صنع التماثيل لأنفسهم، كما ذكرنا، بل وصارت مناصبهم وراثية، يتقلدها أبناؤهم من بعدهم. وتضخمت منزلة حكام الأقاليم الكبيرة، ولا سيما منصب والي الصعيد الذي أصبح يتمتع بسلطات واسعة في إقليمه المتميز، كما كان حكام الأقاليم الأخرى، كل بحسب شخصيته وشخصية الملك. فكان الوالي بصفته نائباً للملك في إقليمه قائد الجند، والمشرف على الأعمال العامة التي تخص الدولة ومنشآتها الحيوية، والمسؤول عن المخازن الملكية، ورئيس السلطة القضائي، والمشرف على المعابد وممتلكاتها. وما عاد الملك بقادر أحياناً على إقصاء الوالي وتولية غيره في المنصب في نهاية عصر الأسرة السادسة، وإن تظاهر الولاة وحكام الأقاليم بطاعة الملك، والخضوع لسلطانه ورد أوجه نشاطهم وإنجازاتهم إلى توجيهه لهم، والإيعاز إليهم بالتنفيذ، ولكن بعضهم كان حريصاً على أن يسجل أخبار مجهوداته الشخصية، ومآثره الفردية، في نقوش مدفنه الفخم، والتفاخر بأعماله ومنجزاته وهو يتحدث عن سيرته الذاتية في تلك النقوش التي فاقت في تفاصيلها ما خلف الملوك أنفسهم.

فأدى ازدياد نفوذ المقربين من الملك، وزيادة سلطات حكام الأقاليم خصوصاً ووراثة الأبناء لمناصب الآباء إلى التعجيل بسقوط الدولة، وانتهاء عصرها القديم. ولا نشك في أن حكم ببي الثاني الطويل كان مناسباً لتهيئة البلاد للسقوط فيما كان ينتظرها من فوضى، وضياع مركزية الحكم. ولكن سلطة الملك ـ على الرغم من ضعفها الواضح ـ كانت كافية للحفاظ على وحدة البلاد وتماسكها حتى حكم آخر ملوك الأسرة السادسة.

النشاط التجاري والعسكري:

كان للمصريين منذ قيام الدولة الواحدة اهتمام خاص بالجنوب حيث تقع بلاد النوبة، وبالمناطق الشمالية الشرقية حيث تقع بلاد الشام: فلسطين وفينيقية وما يتاخمها خصوصاً، كما اهتموا من بعد ببلاد البونت، قبل أن تتوسع دائرة اهتمامهم لتصل إلى كريت وسواحل آسية الصغرى والبحر الإيجي.

ولم تنقطع في عصر الأسرة السادسة صلات مصر بالجنوب الذي عبر عنه الكتّاب في عصر الدولة القديمة باسم واوات نسبة إلى أكبر أجزاء النوبة، فقد كانت هذه سبيلاً للوصول إلى أراضي السودان وثرواته النباتية والحيوانية، من خشب، ولا سيما الأبنوس، وماشية وجلود الفهود والنمور، والعاج، ولإيصال منتجات مصر إليها، من منسوجات ودهون وخزف، بل زادت الصلات بالجنوب عندما قامت بعثات استكشافية لموارد بلاد النوبة، ثم تبعتها رحلات تجارية أفادت من المعلومات التي توصلت إليها تلك البعثات الأولى. وكانت مهمة الاستكشاف تقع على عاتق والي الجنوب، ومقره أسوان، الذي كانت تحدوه الرغبة في توسيع نفوذه، ومد سلطانه على مناطق لم تكن تخضع لحكم الملك، علاوة على المكاسب المادية التي يجنيها إقليمه من التبادل التجاري مع الأسواق الجديدة. ولمعت أسماء عدد من رؤساء البعثات الاستكشافية من حكام الجنوب، ومنهم حرخوف حاكم إلفنتين، وببي نخت، إذ سجلت نصوص مصطبة الأول في أسوان قيامه بأربع رحلات إلى الجنوب في عهدي الملكين مرنرع، وببي الثاني. وكان رؤساء البعثات يقدمون في كل مرة تقريراً عن مشاهداتهم، ويحملون العينات المختلفة من المنتجات النفيسة لتلك البلاد الغريبة. ومن طرائف ما تتحدث النصوص عنه أن حرخوف جلب معه في رحلته الأخيرة قزماً حصل عليه من أسواق الجنوب فسُرَّ الملك ببي الثاني به كثيراً، إذ كان بعد طفلاً صغيراً وفي بداية حكمه.

ترافق النشاط التجاري في الجنوب بنشاط مشابه في الشمال والشمال الشرقي، مع سورية، ولا سيما مع فلسطين عن طريق البر، ومع فينيقية والميناء المفضل للمصريين جبيل. وتذكر نصوص العصر أن ملاحاً مصرياً

يدعى خنوم حوتب تردد على ميناء جبيل مع أصحاب المركب إحدى عشرة مرة، كما قصد سواحل البونت ما يوازي العدد نفسه[٢١] من المرات، ويؤكد هذا الخبر وغيره النشاط التجاري البحري الذي عرفته مصر في عصر الأسرة السادسة.

ويبدو أن النشاط التجاري كان بحاجة إلى حماية عسكرية تحمي القوافل التجارية، وتمنع الاعتداء عليها، ولا سيما في شبه جزيرة سيناء حيث كانت القبائل البدوية لا تتورع عن مهاجمة التجار وهم في طريقهم إلى سورية، أو على طريق العودة. فكانت الدولة حريصة على أمن تجارتها الخارجية، ولا سيما عندما شهدت سيناء في عهد ببي الأول تطورات خطيرة تمثلت في وصول هجرات بدوية متقطعة، سماها المصريون باسم «عامو حريوشع»، أي «بدو الرمال»، يحتمل أن تكون فرعاً من طلائع الهجرات الأمورية (العمورية) التي توافدت على بلاد الشام وبلاد الرافدين، فتصدى لها المصريون بقيادة وني الذي كان موظفاً بسيطاً في عهد الملك تتي، ثم ارتقى في وظائف البلاط الملكي حتى صار مساعداً للوزير وواحداً من قضاة المحكمة العليا في الدولة في عهد ببي الأول، وقائداً للجيش المصري في الحملات الخمس التي وجهها الملك ضد «بدو الرمال»، والتي تكللت كلها بالنجاح[٢٢]. وذكر وني في

---

(٢١) K. Sethe, Urkunden, I, 140 - 141; A.R. Schulman, JssEA, IX, 2 (March 1979), 79 - 104.

(٢٢) يعد وني مثالاً على سياسة الانفتاح لدى ملوك الأسرة السادسة على المواطنين، فقد تدرج وني من موظف عادي في عهد تتي، ثم ارتقى إلى محقق قضائي في عهد ببي الأول، عهد إليه الملك بالتحقيق في مؤامرة دبرتها إحدى زوجاته لاغتياله، ثم صار مساعداً للوزير، وقاضياً في دور القضاء الست، وقائداً للجيش. وعندما أصبح مرنرع ملكاً على مصر عينه حاكماً للجنوب من الشلال الأول حتى الفيوم، فغدا نائب الملك المسؤول عن كل ما يتصل بالجنوب من مهام. وقد دونت قصة حياته في نقوش مدفنه بأبيدوس، وهي الآن في متحف القاهرة، ويحتمل وصول قواته إلى فلسطين، كما يتبين من وصفه للمناطق التي توغل جيشه فيها وهو يطارد الأعداء، إذ يذكر مزارع التين والكروم ومنها منطقة باسم «أنف الغزال» التي يرى جاردنر أنها قريبة من جبل الكرمل. انظر: عبد العزيز صالح، المصدر السابق ١٥٠؛ FW, 2, 291; H. Frankfort, Egypt and Syria in the First Intermediate Period, 87.

نصـوص مصطبتـه أن الحملة الأخيرة كـانت تشتمل عـلى قوات محـاربة بـريـة وأخـرى جاءت عن طـريق البحر بحيث وقـع العدو بـين فكي كـماشـة، وأن الجند كانوا من حاميات المدن، وأهل الأقاليم الجنـوبية والشـمالية، ومن بعض أهل النوبة وقبائلها الموالية لمصر، وبعض سكان الواحات الغربية. وشـارك في هذه الحملات بعض من رجـال الدين والمـترجمين والمـوظفين، وكـأنه يـريد أن يبـين أهمية الحمـلات، وسبب ضخامـة الجيش الذي كـان تحت إمرتـه ويعـد عشرات الآلاف، فقـد كـان الخـطر، كـما قـدر الملك، حقيقيـاً، ويتـطلب إجراءات غير عادية لدفعه ودرئه. وعندما وصل ببي الثـاني إلى الحكم، وبقي فيه طويلاً حتى تجاوز التسعين سنة، لم يرد من عهده الـطويل خـبر ينبىء عن تحـركات البـدو في سينـاء، أو عن قمعـه لهم. حتى نقـوش «وادي مغـارة» لا تظهر هذا الملك في الوضـع المعتاد وهـو يعاقب عـدواً آسيويـاً (بدويـاً)، وهي النقوش التي تحفل بتصوير ملوك مصر منذ الأسرة الأولى (وعلى وجه التحديـد منـذ عهد الملك الخـامس فيها، وهـو أوديمو) وهم يهمـون بقتل أسـير آسيوي (بدوي) بالمقمعة حتى صارت تقليداً، وصورة مـألوفـة لكل الملوك ثم تـوقفت بدءاً من عهد ببي الثاني إلى عهد سنوسرت الثالث(٢٣).

ونخلص أخيراً إلى أن الحكم في عصر الأسرة السادسة كان يختلف إلى حد كبير عما سبقه في عصر الأسرتين الرابعـة والخامسـة، كما يتبـين من الوهلة الأولى ولدى التعرف إلى عدد نصوص السيرة الذاتية وحده الذي تم اكتشافـه حتى الآن، من مثـل نقوش وني، وحـرخوف، وببي نخت، وهنقـو من عهود الملوك الأخيرين، التي تمدنا بمعلومات هامة مفصلة عن التطورات السلبية التي لحقت بالأحوال السيـاسية للبـلاد في هذا العصر المتـأخر من الـدولة القـديمة. فبعد أن كان كل شيء يتمركز حول الملك في عصر الأسرتين السابقتـين، حتى الحياة الآخرة، إذ كانت المدافن الكبـيرة لا وجود لهـا إلا حول الهـرم الملكي،

---

(٢٣) W. S. Smith, The Old Kingdom in Egypt and the Beginning of the First Intermediate Period, in CAH, part I 2, P.195.
عبد القادر خليل عبد المنعم، علاقات مصر بشرق البحر المتوسط، ص ٣١.

إذا بالأحوال تتغير وتتساوى مراكز الأقاليم مع العاصمة منف، ويشيد حكام الأقاليم مدافنهم المستقلة على شكل المصطبات الملكية بعيداً عن المدفن الملكي القريب من العاصمة. ونجد أن مناصب الحكومة المركزية يزداد عددها إلى درجة لافتة، إذ صار للدولة وزيران، واحد للصعيد وآخر للوجه البحري في عهد الملك ببي الثاني، بل ويرى بعضهم أن عددهم يتعدى الاثنين(٢٤). ويحمل هذا الوضع على الاعتقاد الجازم بأن السلطة المركزية بدأت تعاني من الضعف في هذا العهد. وثمة ظاهرة أخطر على الوضع السياسي للبلاد ومستقبل المركزية الآخذة بالتراجع وهي سماح الملك للموظفين الكبار من أصحاب المناصب الحكومية العليا بتوريثها لأبنائهم، وهذا يعني إعطاءهم حق الوراثة لأبنائهم، ومنحهم صلاحية التصرف باستقلالية متزايدة، وأن ما كان يعتبر تشريفاً من الملك وتكرماً منه على الموظف المقرب، غدا حقاً مكتسباً له ولوريثه من بعده.

وأخيراً بلغت السلطة الحكومية في منف مرحلة متقدمة من الضعف في أواخر أيام ببي الثاني العجوز بحيث ما عاد ثمة بصيص من الأمل للعلاج، وزاد الطين بلة خلاف عائلي داخل الأسرة الملكية، لا تعرف أسبابه، وتفاقمت المظاهر السلبية والمشاكل في البلاد نتيجة الأوضاع السيئة وتردي الأحوال المعيشية للناس فقامت ثورة اجتماعية هزت البلاد وقادتها إلى ما يسمى بالعصر الانتقالي الأول.

(٢٤) عبد العزيز صالح ١٥٥؛ J. Vercoutter, in FW, 2, 293.

الفصل الثالث
عصر الانتقال الأول

(أو عصر اللامركزية الأول)

(من اواخر القرن ٢٣ ق.م إلى اواسط القرن ٢١ ق.م)

أعقب عصر الدولة القديمة عصر اتسم بضعف الدولة العام، وضياع هيبة الملك، واضمحلال السلطة المركزية، وازدياد سلطان حكام الأقاليم، وتفاقم المشكلات الداخلية، وهو عصر سبق عصر الدولة الوسطى الذي شهد عودة الوحدة السياسية، وقوة السلطة المركزية من جديد، فسمي باسم «عصر الانتقال الأول» أو «عصر اللامركزية الأول». وقد استغرق أكثر من قرن ونصف من الزمن، وتعاقبت على الحكم فيه الأسرة السابعة حتى الأسرة العاشرة، وجزء من الأسرة الحادية عشرة، ويعد أكثر العصور التي مر بها تاريخ مصر القديم غموضاً، وأعظمها اضطراباً. ولكي تسهل دراسته نرى تقسيمه إلى ثلاث فترات:

١ - **عهد الأسرتين السابعة والثامنة**: وهي فترة اتسمت بالانهيار السريع لكل ما تبقى من عصر الدولة القديمة من إيجابيات، وبظهور الاضطرابات الاجتماعية، وتوافد البدو الآسيويين إلى منطقة الدلتا. وقد استغرقت حوالى أربعين سنة، وكانت العاصمة منف.

٢ - **عهد الأسرتين التاسعة والعاشرة**: استطاع خلال هذه الفترة حكام منطقة أهناسية، غربي بني سويف حالياً (عند مدخل الفيوم) Herakleopolis، أن يمسكوا زمام السلطة بيدهم، ولا سيما في عهد الأسرة التاسعة إذ ساد مصر هدوء إلى حين، حتى جاءت الأسرة العاشرة فعادت المعارك الداخلية ثانية بين المتنافسين على السلطان، ولا

سيما بعد أن وقعت الدلتا تحت حكم البدو الآسيويين، فاحتدم الصراع بين الأقاليم المستقلة، حيث اعترف قسم منها بسلطان أهناسية، بينما اعترف القسم الآخر منها بسلطان طيبة.

٣ ـ الفترة الثالثة: وتغطي بداية الأسرة الحادية عشرة التي يعدها بعضهم بداية لعصر الدولة الوسطى، لأنها شهدت انتصار حكام طيبة الذين نشروا سلطانهم على مصر كلها، بعد أن كان محصوراً في الجنوب وحده، واتخذ هؤلاء عاصمة الجنوب طيبة عاصمة للدولة[١].

الأسرتان السابعة والثامنة، والثورة الاجتماعية:

أدى سوء الأوضاع التي آلت إليها أحوال الحكام والمواطنين في أواخر عصر الأسرة السادسة إلى قيام ثورة عارمة ضد الملك وأعوانه، وضد الأثرياء في العاصمة منف، ما لبثت أن انتقلت إلى الأقاليم. وقد عبر الثائرون على الأوضاع السياسية والاجتماعية عن سخطهم ورغبة التنفيث والانتقام بأنفسهم بطريقة عنيفة، إذ أباحوا لأنفسهم اغتصاب أملاك الدولة، واقتحموا الدواوين، فمزقوا وثائقها، وقلبوا العاصمة رأساً على عقب، فحطموا المؤسسات الحكومية، ونهبوا ممتلكات الأغنياء، ولم ينج من غضبتهم الأموات إذ امتدت أيديهم إلى المقابر والمعابد، فانتهكوا ما تبقى للملكية من قداسة وما كان للمقابر والمعابد من حرمات.

وقد صور الثورة وأحداثها حكيم مصري يدعى إبوور (أو إبو العجوز)، عاش في الأيام الأخيرة من عهد الملك ببي الثاني، أو عاصر الملك مرنرع، أو من خلفه من الملوك الضعاف[٢]، ولم يكتف الحكيم المخلص لبلده

---

(١) J. Vercoutter, Das Ende des Alten Reiches und die Erste Zwischenzeit, In: FW, 2, S. 293 - 294.

(٢) يحمل النص المدون على بردية محفوظة في متحف ليدن الهولندية (تحت رقم ٣٤٤) عنواناً أعطاه إياه العالم جاردنر الذي قام بنشره أول مرة «تنبيهات حكيم مصري»، وهو نسخة سيئة عن النص الأصلي، يعود عهدها إلى عصر الأسرة التاسعة عشرة.

A.H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage, Leyden 1909, Wilson, ANET 441f.

والداعي إلى الإصلاح بوصف الثورة وما جرّت على البلاد من دمار، وإنما يتوجه إلى الملك نفسه بالـلائمة، ويحمّله ويحمّـل حكومته نصيباً من تبعة ما وصلت إليه الأحوال الاجتماعية والسياسية من تـردّ وفساد فيتجـرأ على القـول له: «لديك الوحي والبصيرة و(أسباب) العدالة، ولكنك بعثت الفوضى في البلاد مع أهل الفتن»... «وليتك تذوقت بعض هذه المصائب، إذاً لرويت (خبرها بنفسك)». ويصور إيوور مجريات الأحداث وحالة البلاد قائلاً: «فُتِحت الدواوين وسُلِبت كشوف الإحصاء وأُتلِفت سجلات كتبة المحاصيل»... «ألقيت قوانين دار القضاء في العراء، ووطئت بالأقدام في الشوارع، ومزقها الغوغاء في الأزقة، وأخذ العوام يروحون ويجيئون في دور القضاء الكبيرة.. واحترقت البوابات والأعمدة والأسوار». «أصبح الرجل ينظر إلى ولده كأنه عدوه... وساءت الوجوه، وتأهب القواس، واستشرى النهب في كل مكان...»، «وغزا الوباء الأرض وسرى الدم في كل مكان، وأصبح مجرى النهر قبراً، وغدا مكان التطهر فيه بلون الدم، وإذا قصده الناس ليرتووا منه عافوا جثث البشر وظلوا على ظمئهم..» «وأفاض إله النيل الماء، ولكن ما من أحد يود أن يحرث...». انتشرت الفوضى إذاً في كل مكان، وعمت الجرائم، وتعطلت أعمال الناس، وأولها أعمال الزراعة والصناعة، وساءت أحوال البلاد الاقتصادية، كما يقول الحكيم: «أصبحت العاصمة في خوف من العوز، وأصبح الناس يأكلون الحشائش ويتبلّغون بالماء...»، و«أصبحت ربات البيوت يقلن أنّى لنا ما نأكله، وذبلت أجسادهن في الأسمال وهاضت قلوبهنّ من ذل السؤال»، ويقصد هنا نساء الأثرياء والأشراف، إذ يقول أيضاً: «غدا الأثرياء يولولون وغدا المحرومون مسرورين..»، «وأصبح ابن الناس نسياً منسياً، وغدا ابن سيدته كابن خادمته... وأصبح العوام من أرباب الرفاهة، ومن لم يكن منهم يتخذ نعلاً أصبح ذا ثراء عريض، ومن لم يكن يعرف الظل أصبح صاحب ظل ظليل، ومن كان رسولاً أصبح يرسل غيره.. ومن لم يكن له صندوق أصبح صاحب أثاث، ومن كانت ترى وجهها في الماء أصبحت ذات مرآة..». ويذكر تقصير حكام الأقاليم في إرسال الضرائب، واستئثارهم بثروات أقاليمهم وتفردهم

بخيراتها. وينوه بتوافد البدو الآسيويين إلى أراضي الدلتا، وعجز الدولة عن صدهم والحيلولة دون تدفقهم وتسربهم، ومشاركة المصريين في أقواتهم، إذ يقول: «تخربت الأقاليم، وتوافدت قبائل قواسة غريبة إلى مصر، ومنذ أن وصلوا لم يستقر المصريون في أي مكان..»، «وأصبح الأجانب مصريين في كل مكان...، وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا أغراباً وأهملوا جانباً...»، كما يقول: «والأجانب الذين كانوا يخشونها (أي مصر) والذين عرف الشعب (جبنهم) أصبحوا يقولون لن تستطيع مصر أن تأتي شيئاً، فالرمال (المحيطة بها) هي كل حماتها»، و«إن الجنود الذين جندناهم من أجل صالحنا أصبحوا ضمن الآسيويين..».

وعلى الرغم من مبالغة الحكيم إبوور في تصوير أحوال مصر أيام الثورة الاجتماعية، وتداخل الموضوعات والأحداث في بعضها من دون ترتيب فيما يروي ويصف، إلا أنه يشير إلى واقع الأحوال الداخلية المضطربة، وإلى تردي الأحوال الاقتصادية، وتوقف الحركة التجارية في الداخل ومع الجوار بحيث «ما عاد أحد يبحر اليوم نحو جبيل، فما الذي سوف نفعله إذاً بخصوص أخشاب الأرز (التي اعتدنا أن نصنع منها) توابيتنا، والزيوت التي يحنط الكبراء بها، وترد من هناك...»[٣]، كما يتبين من تنبيهاته وأقواله أن مصر تعرضت في أواخر عصر الأسرة السادسة وبداية عصر الأسرة السابعة إلى غزو أجنبي مصدره آسية الغربية عبر شبه جزيرة سيناء، كانت نتيجته وقوع أراضي الدلتا تحت سيطرة البدو الآسيويين.

يُقَدَّرُ حكم الأسرة السابعة بحوالى أربعين سنة، وبعضهم يرى، أنه لم

---

(٣) للاطلاع على مزيد من العبارات المقتبسة من بردية الحكيم إبوور: عبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، ج١، ص ٣٩٤ - ٣٩٩؛ وكتابه: الشرق الأدنى القديم، ص ١٥٧، ٣٩١ - ٣٩٤؛ سيد توفيق، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، ص ١٤٨ - ١٥٠؛ أ. جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٣، ص ١٣٠؛
J. Vercoutter, FW, 2, 295 - 296.

يستمر أكثر من إحدى وعشرين سنة، بينما يذكر المؤرخ المصري القديم مانيتون أن عدد ملوك هذه الأسرة بلغ سبعين ملكاً، وحكموا البلاد سبعين يوماً. وتوصل الباحث هيس إلى أنه قُدّر للأسرة السابعة أن تحكم مدة ثماني سنوات، تداول السلطة في أثنائها تسعة من الملوك(٤). ويتبين من الاختلاف الكبير حول المدة التي بقيت فيها الأسرة السابعة في الحكم مدى الغموض الذي اكتنف عصر هذه الأسرة التي يبدو لنا أن أفرادها لم ينتسبوا فعلاً إلى سلالة واحدة، بل كانوا مجموعة من كبار رجال الدولة وأشرافها، اتفقوا على تداول السلطة فيما بينهم، أو اغتصبوا الحكم لأنفسهم الواحد بعد الآخر، واحتفظوا بالعاصمة منف مقراً لحكمهم، على الرغم من انتساب بعضهم إلى ملوك الأسرة السابعة، من مثل الملك نفركارع الثاني الذي عثر على نصب له قرب مدافن الأسرة السادسة. ويُعْتَقد أنه أحد أبناء ببي الثاني من زوجته الرابعة والأخيرة.

واستمرت الأسرة الثامنة في اتخاذ منف مركزاً لممارستها الحكم، كما يبدو من العثور على هرم أحد ملوكها بالقرب من هرم ببي الثاني. ويؤكد ضعف الأسرة المتزايد عدد من المراسيم الملكية التي تتصل باتفاق أواخر ملوكها مع بعض حكام الأقاليم، ولا سيما مع حكام الصعيد الأقوياء، على إقامة اتحاد بين الطرفين، كما يتبين من الكتابات التي عثر عليها في منطقة قفط Coptos القريبة من مناجم ومحاجر الصحراء الشرقية وتجارة البحر الأحمر التي خلفتها إحدى الأسر النبيلة. ويتضح من هذه العلاقة أن سلطة الملك أصبحت تتساوى مع سلطة حكام الأقاليم، بل وربما كانت سلطة هؤلاء أرهب جانباً حتى سعى الملك نفسه إلى الاحتماء بها، ولا سيما عندما كان منصب حاكم الإقليم ينتقل بالوراثة إلى ابنه، أو إلى أحد أفراد الأسرة نفسها. ويستدل من تطور الأوضاع السياسية التي سادت في عصر الأسرتين السابعة والثامنة أن الملكية لم تعد باقية كما عرفها المصريون في عصر الدولة القديمة، إذ فقدت

---

(٤) K. Sethe in: Göttingen Gelehrte Anzeigen (1912), 705 f.; W. . Hayes, JEA (1946), 3 f.; FW, 2, 294.

هيبتها، وزالت سلطتها، فعادت البلاد إلى ما كانت عليه قبل وحدة القطرين، الشمالي والجنوبي، الوجه البحري والوجه القبلي على يد مينا. فقد استأثر الحكام الكبار بالسلطة في أقاليمهم من الناحية الإدارية والقضائية والدينية، وكوّن كل واحد منهم جيشاً محلياً، وأسطولاً خاصاً يناسب إمكانات الإقليم، لم يتورع عن استخدامهما في المعارك المحلية التي كانت تنشب بين الحكام نتيجة التنافس بينهم.

الأسرتان التاسعة والعاشرة:

استغل حاكم منطقة أهناسية خيتي ضعف الملك الذي لم يتعدّ حكمه حدود العاصمة منف، بعد أن استقلت الأقاليم نفسها، ووقعت الدلتا تحت سيطرة البدو الآسيويين، فأعلن نفسه ملكاً على مصر، مستفيداً من موقع إقليمه في مصر الوسطى الذي كان يعد واحداً من أغنى الأقاليم المصرية، واتخذ اللقب المعروف «ملك مصر العليا ومصر السفلى»، وجعل عاصمته أهناسية المدينة «نن نسوت» Herakleopolis الواقعة عند مدخل الفيوم، مدعياً خلافته الشرعية لملوك منف. وعلى عادة معظم الملوك المصريين المؤسسين لأسر جديدة اتبع خيتي، مؤسس الأسرة التاسعة، سياسة اتصفت بالشدة حتى وصفه المؤرخ المصري القديم مانيتون بالملك القاسي الذي فاقت قسوته كل من عرف من الملوك القساة، وأنه لقي جزاءه بأن أصابه الجنون في أواخر أيام حكمه، وافترسه تمساح. ويبدو من بعض أسماء ملوك الأسرة التاسعة، من مثل نفري كارع، ونب كاورع، التي تم الكشف عنها ومعرفتها، أن أولئك الملوك أرادوا السير على التقاليد التي اتبعها ملوك منف من تعظيم للإله رع. كما يبدو أن منف احتفظت بمكانتها عاصمة إدارية لملوك الأسرة التاسعة على الرغم من اتخاذهم أهناسية المدينة مقراً لحكمهم. ومن المؤكد أن مصر كلها ما عدا الدلتا التي سيطر الآسيويون عليها، كما ذكرنا، من أسوان في الجنوب حتى شمالي منف كانت تعترف بسلطان الملك خيتي الأول، كما دعا المؤرخون مؤسس الأسرة التاسعة، وإن احتفظ حكام الأقاليم المختلفة باستقلالهم الداخلي، إذ اتبع ملوك أهناسية سياسة مرنة معهم ابتغاء

الإبقاء على ولائهم، وكسباً لصداقتهم ومودتهم.

ثم أعقب ملوك الأسرة التاسعة الذين دام حكمهم حوالى مئة وثلاثين سنة فرع آخر من أسرتهم، عرف اصطلاحاً باسم الأسرة العاشرة، وهي أسرة حاول ملوكها السير على خطى ملوك الأسرة التاسعة، إلا أن الظروف تغيرت في عصرها الذي لم يكمل القرن، فقد بدأ حكام طيبة التي أصبح إقليمها من أقوى أقاليم الصعيد الجنوبية يتطلعون إلى اتخاذ ألقاب الملوك، وإلى انتزاع السلطان من حكام أهناسية بعد أن كانوا شديدي الحذر في تعاملهم مع ملوك الأسرة التاسعة. فاتبعوا سياسة التحالف مع حكام الأقاليم المجاورة لهم، أو لجأوا إلى استخدام القوة، واعتمدوا على حصانة مناطقهم الطبيعية، وعلى إذكاء روح الكفاح لدى مواطنيهم ضد أهناسية وحلفائها، وعلى إعلاء شأن إله الحرب عندهم مونتو إلى جانب الإله آمون. وعندما آنسوا من أنفسهم بأساً وقوة انتقلوا إلى طور التنافس العلني مع حكام أهناسية. وبدأ النزاع العسكري بين الطرفين في البر وعلى متن نهر النيل، وكانت المناطق الحدودية بينهما تنتقل السيادة عليها من طرف لآخر بين الحين والحين. ويبدو أن الكفة كانت في البداية راجحة لصالح أهناسية، إذ شجع انتصار الملك الأهناسي خيتي الثالث (واح تارع) على حاكم طيبة مونتو حوتب الأول الذي اتخذ لقب «الملك» في منطقة ثني على التوجه إلى الدلتا لطرد البدو الآسيويين منها. كما يبدو أن خيتي الثالث توصل إلى قناعة فرضت عليه القبول بالأمر الواقع، والتخلي عن فرض سلطانه «الصوري» على الجنوب، والاعتراف غير الرسمي بأن حدود مملكته تقع في الجنوب عند أبيدوس، كما يستخلص من نص ينسب إلى الملك المذكور، يتضمن تجاربه في الحرب ضد حكام طيبة، وضد البدو الآسيويين، وخلاصة تجاربه في الحكم والسياسة الداخلية، جعله خيتي الثالث على هيئة تعاليم ونصائح يوجهها إلى ولي عهده مري كارع، وهو الملك قبل الأخير من ملوك الأسرة العاشرة(٥).

---

(٥) ثمة ثلاث نسخ يعود تاريخها إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة لهذا النص مكتوبة على =

بـدأت أهناسيـة تفقد بعـد عهد خيتي الثـالث نفوذهـا، وتقنـع بتقلص سلطانها لحساب سلطان البيت الحاكم في طيبة الذي أسس أسرة حاكمة، هي الأسرة الحادية عشرة، التي بدأت بثلاثة من الملوك، كان كل منهم يحمل اسم إنتف، ثم خلفهم عدد من الملوك باسم مونتو حـوتب. فحاول مـونتو حـوتب «نب حبت رع» الـذي عاصر آخـر ملوك الأسرة العـاشرة إخضـاع أهنـاسيـة لحكمه، حتى نجح في مسعاه وأعاد الوحدة إلى مصر فيـا يسمى باسم «عصر الدولة الوسطى»، وانتهى بذلك عصر الانتقال الأول الذي مثـل عصر انتقال من وحـدة سياسيـة ومركـزية إلى تفـرق وانفصال ولا مـركزيـة، ثم إلى وحدة سياسية أخرى.

لم يكن عصر الانتقــال الأول عقيـاً كله، فهــو وإن غـابت الــوحـدة السياسية، وضعف شأن الملوك وقلت الإمكانات المادية والاتصالات الخـارجية فيه، إلا أنه عرف تطوراً في العلاقات الاجتماعية، وفي بعض العقائد الدينية. فقـد نمت روح الفرديـة في المجتمع المصري، واضمحلت نـظرة القدسيـة إلى الملك، ونمت فرص التقارب بين الملك والرعيـة بعدمـا أحس الحاكم بحـاجته إلى إخـلاص الناس جميعهم، لا فـرق بين غنيهم وفقـيرهم، أو مـوظف كبـير ومواطن عادي. وقـد عبر الملك خيتي في نصـائحه لمري كارع عن ذلـك، إذ قال: «لا تفرق بين ابن النبيل وبين ابن فقير الأصل، وتخيّر الفـرد بكفايتـه». وقال له: «ألزم العدل تخلد على الأرض، واحذر أن تعاقب خطأ، فـالقتل لن يفيـدك، ولكن عاقب بـالضرب والحبس»، «البشر رعايـا الإله، خلق الســاء والأرض بما يشتهون، وأجرى المياه دافقة من أجلهم.. هـم أشباه له، صدروا عن بدنه، وهو يتجلى في السماء ليلبي ما يرغبون...».

كما تشجع بعض المصريين في عصر الانتقال الأول على إعلان عقائدهم

البردي، تحتفظ بها متاحف لينجراد (بطرسبرج) وموسكو في روسية، وكوبنهاجن في الداغرك.

Papyrus Petersburg 1116 A; Gardiner, JEA, I, 20 f.; A. Scharff, Der historische Abschnitt der Lehre Für Kōnig Merikare, 1938; Smith, C A H, ch. XIV, XX 1964 - 65; W. Helck, Die Lehre Für Kōnig Merikare 1977.

الخاصة وآرائهم في المعتقدات السائدة والقديمة، إذ ظهر اتجاه شك أصحابه في عقيدة الخلود التي حملت أسلافهم على بناء الأهرام والمقابر من أجلها، وأقاموا الشعائر وقدموا القرابين لصالحها. كما ظهر اتجاه آمن بعقيدة الخلود ولكن أصحابه لم يروا ضرورة لبناء المقابر الفخمة وتقديم القرابين وترتيل الدعوات من أجل الوصول إلى تحقيق سعادة الإنسان في الحياة الآخرة.

وشهد العصر انتعاشاً للأرباب المحليين ترافق مع نمو سلطة حكام الأقاليم وازدهار التنافس بينهم، من مثل الإله خنوم (في إلفنتين)، ومونتو (في طيبة). وفاق عودة أولئك الأرباب المحليين ظهور عبادة أوزير من جديد بزخم لم تعرفه مصر من قبل. فهو وإن كان معروفاً منذ القديم، وغدا «ملك الأموات» في نصوص الأهرام في عصر الأسرتين الخامسة والسادسة، وكانت عبادته منتشرة في مصر كلها، إلا أن مكانته المقدسة لم تصل إلى المكانة الرفيعة التي كان يتمتع بها المعبود رع عند رجال الدين في منف وأونو (عين شمس)، وعند المصريين عموماً. ولكن أهمية أوزير بدأت تتعاظم في نهاية العصر الأهناسي، إذ أخذت قوافل الحجاج تتوجه إلى أبيدوس حيث كان مدفن أوزير الرئيسي، بدلاً من التوجه إلى أونو، حتى صارت أبيدوس المركز الديني الأول في مصر كلها. وانتشر الاعتقاد بأن أوزير الذي كان يحكم شكلياً على أعمال الملوك، ويطرح عليهم الأسئلة للتأكد من استحقاقهم العبور بسلام إلى العالم الآخر، أصبح رئيساً لمحكمة حقيقية تتشكل من أرباب عواصم الأقاليم المحلية، مهمتها محاكمة الناس جميعاً من دون استثناء، والتأكد من أن الميت كان إنسان عدل وطهارة بعد أن يوضع قلبه على كفة ميزان، ويوضع على الكفة الثانية ريشة ترمز إلى المعبودة «ماعت» وهي ربة العدالة والحق، ويحضر العملية توت، رب الكتابة، وحور، وأنوبيس أنصار أوزير[٦].

ويعود إلى العصر الأهناسي أثر أدبي يعرف باسم «بردية القروي

---

(٦) FW, 2, 307f.

الفصيح»[٧]، يفصح عن الأوضاع الاجتماعية والفوارق بين الطبقات في هذا العصر، ولكنه يقدم صورة عن جرأة المواطنين ومطالبتهم بمحو الظلم وحماية الفقير من الغني المتنفذ. وتتلخص قصة القروي في أنه قصد العاصمة أهناسية المدينة ليبيع بعض السلع التي حملها على حميره، فاعترضه موظف جشع، ادعى أن حمير الفلاح داست الزرع في حقله، فسلبه أحد الحمير. ولكن القروي لم يسكت على الضيم بعدما تأكد من أن الموظف سد عليه الطريق الأساسي الذي يسلكه كل المارة بقطعة من القماش، ومنع القروي من المرور فوقها، وهدده برفع شكواه إلى صاحب الضيعة وهو رئيس نظارة الخاصة الملكية. فتمادى الموظف بالظلم واستولى على بضاعة القروي وحميره كلها، فولول هذا وصاح شاكياً، فضربه الموظف بعنف. ولكن القروي لم ييأس، بل ظل عشرة أيام بلياليها يستعطف الموظف السارق ويشكو منه من دون طائل. فتوجه أخيراً إلى العاصمة حيث كان صاحب الضيعة القاضي رنسي يقيم، وقابله ذات صباح وقص عليه ما جرى له من الموظف، فأعجب القاضي بفصاحة القروي، وبأسلوب الاستعطاف الذي استخدمه في سبيل حمله على الاستماع لشكواه، فأسرع إلى الملك الذي رد على القاضي بقوله: «(أستحلفك) بحق ما تحب أن تراني مُعافىً، أن تؤخره ها هنا، ولا تعقب على شيء يقوله، عساه يواصل الحديث، ثم يؤتى إلينا بحديثه مكتوباً فنسمعه، بشرط أن تتكفل برزق زوجته وعياله (في نواحي الفيوم حيث يقيمون)... وعليك أن تتكفل بمعاشه (طوال بقائه هنا) بشرط أن تصرف له (رزقه) دون أن تشعره بأنك أنت معطيه». ولما طال رد القاضي على القروي، تحول هذا إلى الشكوى المرة، وتوجه إليه بثماني شكايات بعد الاستعطاف الأول، ولم يتخل عن طلبه وإصراره على إنصافه من الموظف الظالم على الرغم من تعرضه لأذى الحجاب وإهانة الحراس الذين كانوا يحولون دون وصوله إلى القاضي

---

(٧) F. Vogelsang - A.H. Gardiner, Die Klagen des Bauern 1908; Gardiner, JEA, IX, 5f.

تتوافر نسخ عدة عن هذه البردية، ثلاث منها في متحف برلين. انظر أيضاً: عبد العزيز صالح المرجع السابق، ص ٣٩٤-٣٩٧.

رنسي. فعرض في شكاياته مبادىء العدالة الاجتماعية، وواجبات الحكام لتحقيقها في أسلوب مقنع حمل الفرعون على إحقاق الحق، وعلى تعويض القروي ما أصابه من إجحاف، وتجريد الموظف الخبيث من ممتلكاته.

ونقدم فيما يلي بعضاً مما جاء في قصة القروي الفصيح من عبارات لافتة:

يقول القروي مخاطباً القاضي: «ها أنت رئيس وبيدك ميزان. إذا اختل الميزان فأنت مختل، ولسانك هو لسانه الصغير..»، «أقم العدل لرب العدل الذي عدل عدالته موجود، ويا قلم تحوتي (رب العدل والحق)، وقرطاسه ولوحته تنزهوا عن عمل السوء، فإنما الخير بالخير. والعدل خالد إلى الأبد يهبط مع صاحبه إلى الجبانة، فإذا دفن احتوته الأرض معه.. فمن يكن سنداً لا ينبغي له أن يميل، ومن يكن ميزاناً لا ينبغي له أن يتذبذب. وسواء جئت أنا أم أتى غيري وجب عليك أن تتحدث ولا تنصت إليّ كما لو كنت أحادث شخصاً أخرس...» وقال بعد ضربه على أيدي الحجّاب مخاطباً القاضي: «أصيب (القاضي) بالصمم، وضل ضميره.. إنك أشبه بقرية بغير عمدة، وجماعة لا كبير لها، ومركب لا ربان فيها، وعصبة لا هادي لها. أنت نبيل نهاب، وحاكم مرتش، وكبير لمنطقة كان ينبغي أن يمنع الاختلاس، ولكنه أصبح نموذجاً لمن يود أن يختلس...». ثم يستعطفه وينسب إليه الصفات التي ينبغي للفرعون أن يتحلى بها، فيقول: «أنت رع رب السماء، وسط حاشيتك، ومنك قوام الخلق جميعهم. وأنت كالفيضان، بل أنت حعبي صاحب الفيضان الذي يسبغ الخضرة على الحقول ويعمر البراري، فاقطع إذاً دابر النهب وأوقفه وأكرم البائس، ولا تكن فيضاناً ضد الشاكي، واحذر قرب الآخرة..»، «إذا كنت حقاً أباً لليتيم، وزوجاً للأرمل، وأخاً للمطلقة، ورداء لمن لا أم له فشجعني على أن أنشر سمعتك في هذه الأرض بما يتفق مع كل قانون قويم. وعساك تكون حاكماً بريئاً من الجشع، ونبيلاً منزهاً عن الدنيّة. تزهق الباطل وتحق الحق وتلبي نداءه. وها أنذا أقول وأنت تسمع: أقم العدل أمدحك ويمدحك المادحون. أزل معاناتي فقد ثقلت، واحمني فقد ضعت...».

الفصل الرابع

عصر الدولة الوسطى

(النصف الثاني من القرن ٢١ ـ الربع الاول من القرن الثامن عشر ق.م حوالى ٢٠٦٠ ـ ١٧٨٦ ق.م)

الأسرة الحادية عشرة (٢١٣٣ ـ ١٩٩١ق.م):

تعاقب على الحكم في مدينة طيبة (الأقصر اليوم) في عصر الأسرة العاشرة (التي كان مقرها أهناسية المدينة) ثلاثة (أو أربعة) من الأناتفة، إذ كان كل واحد منهم يدعى إنتُف. فغدت طيبة عاصمة لإقليم واسة الجنوبي بعد أن كانت مدينة أرمنت، مسقط رأسهم، حاضرة الإقليم. وكانت سياستهم تتسم بمهادنة ملوك أهناسية، والحذر من الصدام المباشر معهم، حتى أحسوا أن قواهم أصبحت قادرة على مقارعتهم في عهد مونتو حوتب الأول ابن إنتف الثالث. فتخلوا حينئذ عن سياسة الحيطة والحذر، وانتقلوا إلى إعلان نيتهم في بسط سلطانهم على الشمال، بعد أن خضع الجنوب لهم، وتم على يد مونتو حوتب «نب حبت رع» لملوك طيبة ما خطط أوائلهم منذ عهد إنتف الأول، مؤسس الأسرة الحادية عشرة، وما سعى لتحقيقه خلفاؤه من مد سلطتهم الفعلية على مصر كلها، وتوحيد البلاد من جديد تحت سيادة ملك واحد.

حاز الملك مونتو حوتب «نب حبت رع» إعجاب مواطنيه المعاصرين وتقديرهم، وترددت شهرته بعد وفاته بقرون طويلة، إذ جعلت وثيقة يعود تاريخها إلى الأسرة التاسعة عشرة اسمه في صف واحد بين اسم الملك مينا باعتباره رأس العصور التاريخية وموحد مصر الأول، وهو باعتباره رأس الدولة

الوسطى وموحد مصر الثاني، وبين اسم الملك أحمس باعتباره رأس الدولة الحديثة وموحد مصر الثالث[1].

حمل مؤسس الدولة الوسطى مونتو حوتب «نب حبت رع» ثلاثة ألقاب حورية في أثناء حكمه الذي امتد حوالى واحداً وخمسين عاماً (٢٠٦٠ - ٢٠٠٩ق.م): «سعنخ تاوي»، أي «محيي قلب الأرضين» في بداية حكمه حوالى عام ٢٠٦٠ ق.م، ولمدة عشرين سنة قضاها في قيادة قواته ضد حكم أهناسية وحلفائها، واضطر في العام الرابع عشر من حكمه (حوالى عام ٢٠٤٦ق.م) أن يقضي على أنصار أهناسية الذين استرجعوا منه مدينة ثني. ولكن ذلك حفزه على التصميم للقضاء على سلطان أهناسية قضاءً مبرماً. فبدأ حينئذ فترة جديدة من حكمه تحت لقب «نب حبت رع» بمعنى «سيد دفة رع، أي موجه دولة رع = مصر» حوالى عام ٢٠٤٠ق.م، ثم كان عليه بعد الانتصار على أهناسية والسيطرة على الدلتا أن يخمد بعض الحركات المناوئة التي واجهت حكمه في الشمال، فعمد بعد أن اطمأن إلى استتباب الاستقرار والأمان في أرجاء مصر كلها وخضوع الأقاليم كافة لسلطانه عمد إلى اتخاذ لقب «سما تاوي» بمعنى «موحد الأرضين»، وذلك تعبيراً عن توحيد القطرين ثانية ولمّ شمل الوجه البحري والوجه القبلي.

اتبع مونتو حوتب الأول أسلوب الحاكم المحنك في إعادة النظام إلى الدولة الموحدة، فاستخدم القوة أحياناً، كما اتبع سياسة اللين أحايين أخرى. فقد أطاح بحاكم أسيوط القوي، ولكنه ثبت حاكمي بني حسن وهرمو بوليس، وهما من الأقاليم الوسطى التي كانت تتسم بأهميتها الخاصة، في منصبيهما وأبقى ما لهما من صلاحيات. ولكن جل اعتماده في الإدارة كان يقع على عاتق مواليه من الطيبيين، ما دامت طيبة أصبحت عاصمة الدولة. فقد استعان بثلاثة وزراء طوال مدة حكمه اختارهم من أهل طيبة، الواحد بعد

---

(١) Sauneron, Chr, d'Egypte 1951, 46f.; H. Goedike, JSSEA, XII, 4 (1982), 157 - 164; FW, 2, 310.

الآخر؛ كما شغل منصب المستشار، وهو منصب جديد ابتكره مونتو حوتب الأول، مؤسس الدولة الوسطى، أربعة من أشد المخلصين له في طيبة. وتأكيداً لحرصه على مسك زمام الإدارة بيده عيّن أحد أشراف طيبة المقربين حاكماً على الجنوب، وهو منصب خطير وذو أهمية خاصة، كما أوكل إلى واحد من الموالين له من طيبة حكم إقليم أهناسية ذي الوضع المميز إذ كان مركز حكم خصومه من الأسرة العاشرة.

ولم يكتف الملك مونتو حوتب الأول باختيار حكام الأقاليم من المخلصين له من أهل العاصمة طيبة، بل كان حريصاً على أن يحد من سلطاتهم كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، حتى استرجعت البلاد مركزية الحكم الذي افتقدت إليه في عصر الانتقال الأول إذ حلت الفوضى وساد الاضطراب وضاعت هيبة الحكام. ويؤكد عودة الهيبة والقداسة للملك وتبعية حكام الأقاليم وكبار رجال الدولة له نحت أغلب مقابرهم حول مقابر الملك في غربي العاصمة طيبة.

وشاد مهندسو الملك ضريحاً له ومعبداً للشعائر يليقان به وبمكانته المتميزة بين الملوك، على طراز جديد ومبتكر، اختاروا لهما حضن جبل من جبال طيبة الغربية حيث شادوا مسطحين ضخمين، يعلو الواحد منهما الآخر، ويقوم فوق المسطح الأعلى هرم صغير. ويحيط بالقاعدة بهو للأعمدة، ويؤدي إلى الضريح طريق طويل يبدأ عند حافة الأرض المزروعة في الوادي تحيط به من الجانبين تماثيل الملك برداء عيد السد وهو واقف أو جالس. وكان الطريق ينتهي بفناء فسيح تم العثور فيه على التمثال المعروف للملك مونتو حوتب المحفوظ الآن في المتحف المصري. وتنتشر حول الضريح الملكي مدافن سيدات العائلة المالكة، وإلى الشمال منه تقع مقابر رجال القصر الكبار. وما زالت أطلال الضريح باقية إلى اليوم جنوبي معبد حتشبسوت في الدير البحري.

خلف مونتو حوتب الأول «نب حبت رع» ملكان من أسرته حملا الاسم مونتو حوتب نفسه الذي يعني «مونتو راض»، تأكيداً لوفاء هؤلاء الملوك «المناتحة» لرب مسقط رأسهم أرمنت، وهو «مونتو» إله الحرب عندهم الذي

نصرهم على أعدائهم ومكّن أولهم من توحيد مصر، كما كانوا يعتقدون.

كان مونتو حوتب الأول قد جعل ولاية العهد لابنه إنتف، ولكن هذا مات قبل والده فآلت ولاية العهد إلى ابنه مونتو حوتب الثاني «سعنخ كارع» الذي كان قد بلغ الخمسين من عمره فلم يُقيِّض له أن يجلس على العرش طويلاً (٢٠٠٩ ـ ١٩٩٨ق.م)، ولكنه كان مولعاً ببناء المعابد في أرجاء الوجه القبلي، وفي تعمير البلاد، كما تدل آثار عهده المنتشرة في طول البلاد وعرضها، ولكن من المستغرب أن ملكاً بمثل ذلك النشاط العمراني يترك قبره الخاص ومعبده ناقصي البناء وينشغل بأعمال عمرانية أخرى.

وارتقى العرش من بعد مونتو حوتب الثاني الملك مونتو حوتب الثالث آخر أفراد الأسرة الحادية عشرة الذي كان يحمل لقب «نب تاوي رع» ولم يدم حكمه سوى سبع سنوات (١٩٩٧ ـ ١٩٩١ق.م)، وهي المدة التي انقضت بين موت مونتو حوتب الثاني ووصول الملك أمنمحات الأول إلى الحكم في حوالى عام ١٩٩٠ق.م، كما تشير بردية تورين التي تعتبر الملك مونتو حوتب الثاني آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة، ونهاية حكمه نهاية الأسرة الحادية عشرة.

النشاط الداخلي والخارجي في عصر المناتحة:

ما إن تم لمونتو حوتب الأول توحيد مصر، وإعادة الاستقرار والنظام إلى أرجاء البلاد كافة، حتى بادر إلى إعادة الاتصال الواسع مع الجيران في الجنوب، ببلاد النوبة وماوراءها، وببلاد البونت، وإلى استعادة استثمار موارد الصحراء الشرقية والصحراء الغربية من الأحجار والمعادن. ففي العام التاسع والثلاثين من حكمه (حوالى عام ٢٠٢٠ق.م) وهو العام الذي سقطت فيه أهناسية، أرسل الملك حملة عسكرية إلى واوات (النوبة الشمالية)، ثم أتبعها بحملات أخرى، مفتتحاً سياسة توسعية في الجنوب سار عليها خلفاؤه، وملوك الأسرة الثانية عشرة من بعد. فقد كانت النوبة منطقة حيوية لمصر، كما رأينا منذ عصر الدولة القديمة. ولكن ضعف الدولة في عصر الانتقال الأول أدى إلى قيام مملكة مستقلة في شمالي النوبة، كان لها دور سلبي في تجارة مصر

مع الجنوب، فقرر الملك مونتو حوتب الأول وخلفاؤه غزو المنطقة والقضاء على سلطتها، ويبدو أنه وفق في تحقيق هدفه، ولكنه لم يقم باحتلال واوات بكاملها، وإنما حصل منها على جزية معلومة فرضها على أهلها، وتعهد حكامها بالتوقف عن مضايقة البعثات التجارية المصرية المارة في أراضيها، وبتقديم الجنود المرتزقة للانخراط في جيش طيبة.

كما أرسل إلى منطقة حمامات المؤدية إلى البحر الأحمر والغنية بمحاجرها في العام الثاني لتوليه الحكم حملة لتوطيد الأمن فيها، وأعاد إلى مناجم الفيروز في شبه جزيرة سيناء النشاط، كما يستدل من إقامة الملك سنوسرت الأول، وهو ثاني ملوك الأسرة الثانية عشرة، تمثالاً لمونتوحوتب الأول في معبد سرابيط الخادم، تكريماً له واعترافاً بفضله في تأمين الطريق إلى المناجم والعودة إلى استثمارها، إذ إن استثمار مناجم الفيروز في سيناء يتطلب السيطرة من جديد على القبائل البدوية المقيمة هناك التي تهدد أمن العمال في المناجم وسلامتهم، مثلما تهدد القوافل التجارية التي تعبر سيناء في طريقها إلى فلسطين وجنوبي سورية. ويحتمل أن القوات المصرية تجاوزت حدود سيناء إلى فلسطين، ولكنها لم تتوغل فيها كما فعلت في عصر الأسرة السادسة[٢].

ووجه مونتو حوتب قواته إلى القبائل الليبية في الشمال الغربي من البلاد حيث كانت تمثل عامل تهديد وإزعاج دائم لمصر منذ عصر الدولة القديمة. وتذكر حولياته أن زعيماً من قبيلة ثحنو الليبية لقي مصرعه في إحدى حملاته تلك. وأرسل حملات أخرى إلى واحات الصحراء الجنوبية الغربية لفرض سيطرة الدولة عليها، وكان حريصاً على مراقبة تحركات بدو المناطق الجنوبية الغربية، والجنوبية الشرقية المتاخمة لبلاد النوبة الشمالية[٣]، الذين ينتمون إلى قبائل المجاي المحاربة، ويفتخر في كتاباته بانتصاره عليهم.

وبرز في عهد الملك مونتو حوتب الثاني موظف كبير يدعى حِننو قاد في

---

(٢) Vercoutter, FW, 2, S. 312.

(٣) Weigall, Antiquities of Lower Nubia, pl. XIX; Saeve Soderbergh, Ägypten und Nubien, 1941, S. 58.

العام الثامن من حكمه بعثة بلغ تعداد أفرادها ثلاثة آلاف رجل، مدنيين وعسكريين، كان هدفها توطيد الأمن وتأكيده في طرق القوافل، وتعمير تلك الطرق، وقطع الأحجار اللازمة لتماثيل الملك الضخمة، والإشراف على إنزال السفن التي كانت البعثة تنقلها معها في البحر الأحمر لتحمل كتيبة من الرجال، يبحرون بها إلى بلاد البونت لجلب البخور الطازج منها لقاء البضائع المصرية التي يحملونها معهم. وقد احتفظت كتابة منقوشة على إحدى الصخور في وادي حمامات بأخبار هذه البعثة، إذ تحدثت عن تحركاتها بدءاً من قفط باتجاه البحر الأحمر عبر الصحراء، وأشارت إلى أن البعثة بدأت «بتطهير الطريق من أعداء الملك» بمساعدة من بدو المنطقة الذين كانت مهمتهم استطلاع الطريق ورصده، وإرشاد البعثة، ومدها بالمعلومات الضرورية. وأن حننو كان قد زود كل رجل بقربة ماء، وأعطى كلاً منهم يومياً «إناءين من الماء وعشرين رغيفاً من الخبز»، وكانت الحمير تحمل الأمتعة. وقام في طريقه إلى البحر الأحمر بالعمل على تنظيف أو حفر اثني عشر بئراً. وبينما كانت السفن في بلاد البونت تجلب البخور، انشغل الباقون من الرجال بقطع الأحجار الضخمة ذات اللون الأخضر لتماثيل المعبد. وعندما رجعت السفن من بلاد البونت عاد الجميع برئاسة حننو، ووصلوا إلى قفط من دون حوادث.

وترأس وزير يدعى أمنمحات في العام الثاني من عهد الملك مونتو حوتب الثالث بعثة قوامها عشرة آلاف رجل، بين مدني وعسكري، كما تتحدث نقوش وادي حمامات، جاؤوا من «أقاليم الجنوب، ومن مصر الوسطى، ومن مصر السفلى (الإقليم ١٦ الذي كانت مِنْدِس عاصمته)». وكانت مهمة البعثة إحضار كتلة حجرية من وادي الحمامات يصنع منها التابوت الملكي وغطاؤه، وفي الوقت نفسه توطيد الأمن وإعمار بعض المناطق المهجورة في الوادي التي عرفت بأهميتها في عصر الدولة القديمة. ويذكر رئيس البعثة أمنمحات في نقشه في وادي الحمامات بعد أن أنجز المهمة الموكلة إليه قائلاً: «عاد رجالي إلى بلدهم من دون خسائر، لم يهلك أي منهم، ولم تختف أية دورية، ولم يمت حمار واحد، ولم يمرض عامل واحد». ويضفي على

شخصيته ألقاباً لافتة، إذ يقول: «الأمير بالوراثة، الكونت، حاكم طيبة والوزير، أمير النبلاء كلهم، المفتش على كل ما تهب السماء، وتقدم الأرض، ويحمل النيل (من خيرات)، المفتش العام في هذه البلاد، أمنمحات». ويبدو أن البعثة إلى البونت وإلى وادي حمامات كانت تشغل اهتمام الوزير وكان لها تأثير فريد في حياته، إذ خصها بأربعة نقوش أفاضت بالحديث عنها، فهو يحكي فيها قصتين حدثتا خلال قيام البعثة بقطع التابوت الملكي وغطائه من محاجر وادي حمامات، أو بالأحرى معجزتين، الأولى: «أن حيوانات الصحراء جاءت إليه، وبينها غزالة كانت على وشك الولادة، فاتجهت إلى معسكر رجاله، ولم تهرب. وعندما وصلت إلى مكان بعينه من المحجر وضعت وليدها، ورجال الجيش ينظرون إليها، (وكأنها) تدلهم على الموضع المناسب الذي ينبغي أن يقطعوا منه غطاء التابوت». وبعد ثمانية أيام من هذه المعجزة حدثت الثانية: «عندما كان العمل جارياً لقطع الحجر اللازم للتابوت من ذلك الجبل حدثت معجزة جديدة: هطل المطر فجأة، وظهر الإله (مين رب الصحراء الشرقية)، وتجلت كرامته للرجال، وتحولت الصحراء إلى بحيرة، وارتفع منسوب المياه إلى مستوى المحجر. ثم انكشفت أخيراً بئر بعمق اثني عشر ذراعاً وبعرض اثني عشر ذراعاً (٦,٥٠ × ٦,٥٠م) ممتلئة بالماء الصافي حتى حافتها، لم يتنبه إلى وجودها البدو من قبل ولا الحيوانات».

إن حديث الوزير أمنمحات السابق عن المعجزتين وتسجيله على صخور وادي حمامات، وإشاعته بين الناس من بعد، كان له فعل السحر في نفوس المصريين الذين تأكدوا من أن إرادة الرب وعنايته الربانية هي التي مكنت الملك مونتو حوتب (الثالث) واختارته دون غيره لحكم البلاد وقيادة دفتها، إذ تجلى الرب بنفسه للعباد، وأفاض عليهم بكرامته ونعمته حين أرسل إليهم المطر مدراراً، ويسر لهم بئراً صافية الماء لإرواء عطشهم بعد أن عز عليهم العثور على الماء في الصحراء القاحلة وأوشكوا على الهلاك عطشاً. كما جعل الحيوانات في الصحراء تسعى من أجل صالحه بدلاً من الهرب من وجه الجيش وصخبه، وحتى الغزالة الحبلى تقصد الرجال المحاربين، فتلد أمامهم من دون خوف، حتى يفهموا من تلقاء أنفسهم أنها تدلهم على الموضع الذي

عليهم أن يقطعوا منه حجر تابوت ملكهم، بتوجيه من الرب نفسه. ويؤكد أمنمحات نفسه ذلك، إذ يقوله نقشه: «الناس في مصر كلهم كانوا يتحدثون عن ذلك في كل مكان. من الجنوب وحتى الشمال كان الناس يخرون سجداً وهم يمجدون اسم ملكهم ويمتدحون شمائل جلالته وهم يقولون إلى الأبد، إلى الأبد»[٤]. ولا نشك في أن الوزير أمنمحات نفسه أفاد من ترويج الحديث عن المعجزتين، وعن تدخل الإله نفسه لتأكيد شرعية الملك ورعايته له، لأنه كان يسعى، وربما بموافقة الملك ورضاه، إلى الوصول إلى العرش وتنصيب نفسه ملكاً على مصر، كما سنرى لاحقاً لدى الحديث عن تأسيس الأسرة الثانية عشرة.

ويعود إلى عصر المناتحة عدد من الكتابات التي تصور بعض جوانب الحياة في المجتمع، والتي خلفها بعض أفراده من الشخصيات البارزة. ومنهم رجل يدعى إرتيسن عاصر الملك مونتو حوتب الأول الذي يصف نفسه بأنه كان بارعاً في فنون التصوير والنحت بمختلف المواد، من فضة وذهب، ومن عاج وأبنوس؛ وأنه ابتدع مواد للطلاء لا تحرقها النار، ولا يزيلها الماء. كما ينسب لنفسه المعرفة باللغة وبطقوس الدين وطرق السحر، ويعتز بمعارفه وبخبرته التي لم يصل إليها سواه، هو وابنه سنوسرت[٥].

وخلّف موظف كبير من عهد الملك مونتو حوتب الثاني يدعى حقانخت بضع رسائل كتبها إلى ولده الأكبر مرسو، تم العثور عليها في أحد قبور طيبة حيث كانت مرمية، ولكنها احتفظت برونقها بأعجوبة. ويفهم من سياق الرسائل أنه كان كاهناً يُعنى بمقبرة أحد وزراء مونتو حوتب الأول، وكانت له أملاكه الخاصة. وأنه ارتحل في مهمة إلى الجنوب فخط عدداً من الرسائل إلى ابنه، وهو يؤدي المهمة، يوجهه ويذكره بمتابعة واجبات أبيه في أثناء غيابه

---

(٤) المرجع السابق، ص ٣١٦ - ٣١٧.

(٥) M. Baud, Le Métier d'Iritisen, Chr. d'Egypte 1938; H.E. Winlock, The Rise and Fall of the Middle Kingdom 32.

عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ١٧٦.

المتصلة بالعناية بقبر الوزير، وبالأعمال الخاصة بممتلكاته الشخصية. ويبلغه في رسالتين متتاليتين أوامره وتعليماته الصارمة للعناية بأرضه والحفاظ على مخازن غلاله ومحتويات داره، ويحمله مسؤولية الاهتمام بأفراد الأسرة، ويحدد له ما يتوجب إعطاؤه لكل واحد منهم، ويبين له كيفية التصرف مع الخدم. وتشير إحدى الرسائل إلى انتشار المجاعة في بعض المناطق الواقعة إلى الجنوب من طيبة حيث «بدأ الناس يأكلون أنفسهم»[٦].

الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ - ١٧٨٦ق.م):

أسس الوزير الأخير **أمنمحات** حوالى عام ١٩٩١ق.م أسرة ملكية هي الثانية عشرة، وظهر اسمه الحوري «سِحْتِب إب رع» في النصوص التي تعود إلى عهده، ويبدو أنه كان مغتصباً للعرش الذي وصل إليه بالاعتماد على قوة رجاله، وباستغلال الظروف السيئة التي ألمت بمصر في نهاية الأسرة الحادية عشرة. فهو لا ينتمي إلى الأسرة الملكية ولا يمت إليها بصلة القربى، ولكنه كان مقرباً إلى الملك مونتو حوتب الثالث، ويحتمل أن يكون الأخير هو الذي اختاره لخلافته بنفسه بعد أن اطمأن إلى كفاءته، وإلى إخلاصه للأسرة الحاكمة. ويؤكد اغتصابه للحكم أمران هامان، أولهما إثبات شرعية حكمه عن طريق ترويج نبوءة عرفت باسم «نبوءة (أو تنبؤات) نفرتي» بين المواطنين، وهي قصة وضعها بإيحاء منه دعاة أمنمحات ومريدوه في زمنه، ولكنهم نسبوها إلى كاهن سَمّوه نفرتي، ادعوا أنه عاش في عهد الملك سنفرو، البعيد، مؤسس الأسرة الرابعة، وقد تنبأ له أنه سيأتي زمن (بعد سنفرو) «تشيع فيه الفوضى، حتى يصبح الولد عدواً، والأخ خصماً، ويقتل الرجل أباه... وتعاني البلاد من الفقر المدقع، ويكثر عدد الحكام..»، ولكن العناية الإلهية سترسل ملكاً من أهل الجنوب «اسمه أميني، وهو ابن امرأة من (إقليم) تاسيتي (أي إلفنتين)، من مواليد مصر العليا، سيتسلم التاج الأبيض (تاج الصعيد)، وسيتقلد التاج الأحمر (تاج الدلتا).. وسيعود الحق إلى نصابه بعد

---

(٦) Vercoutter, in FW, 2, S. 314.

أن يُطْرَد الظلم»(٧). وواضح هنا أن أمنمحات وأنصاره ابتغوا من هذه النبوءة الموضوعة إظهاره لأفراد الشعب المصري في هيئة المنقذ المنتظر، وأن العناية الإلهية هي التي اختارته منذ الأزل لحكم مصر. فالاسم «أميني» الذي يحمله المخلّص الموعود هو اختصار لاسم أمنمحات. كما اتخذ الملك أمنمحات لقباً يفيد بأنه «معيد النهضة، أو معيد الولادات»، وهو «وحم مسوت» ليؤكد أن عهده هو عهد جديد في تاريخ البلاد، وليبشر بنهضة جديدة يشهدها الشعب تحت حكمه.

والأمر الثاني الذي يؤكد اغتصابه للعرش هو المعارضة الشديدة التي وقفت في وجهه في بداية حكمه، والتي دعته إلى نقل العاصمة من طيبة بعد سنوات قليلة من حكمه إلى مدينة جديدة شمالي الفيوم أطلق عليها اسم «إثت تاوي» بمعنى «رابطة الوجهين، أو القابضة على الأرضين»، ونضيف إلى ما سبق اغتياله في العام الثلاثين من حكمه تنفيذاً لمؤامرة حيكت ضد شخصه، مما يشير إلى وجود منافسين له في الحكم من أبناء الأسرة الحادية عشرة.

جاء الملك الذي اشتهر باسم أمنمحات الأول إلى الحكم بعد فترة قصيرة من الاضطرابات التي بدأت منذ العام الثاني لحكم مونتو حوتب الثالث، وكان عليه في بداية توليه السلطة أن يعمد إلى اتخاذ إجراءات صارمة لإعادة النظام، ووضع حد للفوضى التي أشارت إليها النبوءة. ومنها محاولات أقدم عليها حكام الأقاليم في نهاية حكم الأسرة لتوسيع مناطق حكمهم، فلجأ إلى تحديد مساحات كل إقليم على حدة، كما يقول نص من منطقة بني

---

(٧) H. Goedicke, The Protocol of Neferyt, 1977; A. H. Gardiner, in JEA, I (1914), 106 - 166; Vercoutter, FW, 2, 318.

عُرِف نص النبوءة في أرجاء مصر كلها، وكانت له شعبية كبيرة حتى انتشرت نسخ كثيرة من نصه الأصلي، فقد عثر على نسختين منه في عصر الأسرة ١٨، وثماني عشرة نسخة في عصر الرعامسة، وثمة بردية منها الآن يحتفظ بها متحف لينينجراد (بطرسبرج) في روسية.

حسن: «لقـد عمل عـلى أن تعرف كـل مدينـة حدودهـا مع المـدينة الأخـرى (المجـاورة لها)، بحيث جُعلت الحـدود راسخة كـالسماء»(٨). ثم أعـاد لمدينـة منف دورها كمركز لإدارة البلاد، وهو الدور الذي لعبته طـوال قرون طـويلة منذ عصر بداية الأسرات، حتى أمست المقر التقليدي لكتبة الدول المتمرسـين بشؤون الإدارة، بينما كانت طيبة حديثة العهد كعاصمة للبـلاد، ومقر لـلإدارة يفتقـر إلى العـاملين ذوي الخـبرة، وإلى المؤسسـات الحكـوميـة التي تستـطيـع استيعاب شؤون الدولة المترامية الأطراف. وكان موقع طيبة في قلب الصعيـد، وفي جنوب البلاد، يجعلها جغرافياً غير ملائمة كعـاصمة لمصر كلهـا. ولكنه لم يتخذ منف مقراً لحكمه، بل آثر، لأسباب يصعب التعرف عليها، اتخاذ مدينة إثت تاوي عاصمة للبلاد، وهي مدينة قـريبة من منف، وتقـع في مكان وسط بين الدلتا والصعيد، حيث يسهل عليه السيطرة على الأقاليم كافـة، وقد شـاد بالقرب منها هرمه ومعبده ليؤكد إصراره على إبقاء إثت تاوي عـاصمة للدولـة في عهود خلفائه. ولعل شعوره بأن أهل طيبة، وأنصـار البيت المالـك السابق قد يخلقون له المتاعب، هو الذي حفزه إلى نقل العـاصمة. وكي يضمن ولاء حكام مصر الوسطى القريبين من العاصمـة الجديـدة وإخلاصهم لـه عمد إلى تقويتهم، واستعان بزعماء الأسر المصريـة في تلك المناطق لإضعـاف منافسيـه، وعـين أنصاره حكـاماً عـلى الأقاليم والمـدن، ولكنه كـان حريصـاً، في الوقت نفسه، على مراقبتهم وتحديد صلاحياتهم، كما ذكرنا، وإقامة حـدود ثابتـة بين أقاليمهم ومدنهم، وسن قانوناً نظم به طريقة الانتفاع بميـاه نهر النيل، وحـدد كمية المواد الغذائية، وعدد السفن اللازمـة للأسـطول، وعدد الـرجال الـذين يقدمهم كل إقليم. كما سعى إلى إنشاء جهاز إداري حديث في العـاصمة عن طـريق تدريب جيـل جديـد من الموظفـين الذين شجعهم عـلى الانخـراط في سلك الوظائف الحكومية، وحمل بعض الكتبة المجـربين عـلى تأليف مصنفـات خاصة بهذه المهنة. فظهر «كتـابان» في عهـده سمي أحدهمـا «كيميت»، بمعنى «المجموع»، قام بتأليفه صاحب «نبوءة نفرتي» نفسه كما يبدو، في بـداية حكم

(٨) FW, 2, S. 319.

أمنمحات الأول، يشتمل على قسم عملي يتصل باختيار أسلوب الرسائل المناسب للأغراض المطلوبة، وعلى جمل إنشائية جاهزة، تصلح للأغراض المختلفة، ويشتمل كذلك على قسم عام: نصائح حكيمة، فوائد الدراسة.. وغيرها مما يفيد الموظف المجتهد. أما المصنف الثاني الذي يحمل عنوان «سخرية المهن» فإنه يتوجه إلى موظفي المستقبل الدارسين في المدرسة المتخصصة بتأهيل العاملين في الدولة بالنصائح والإرشادات، ويوضح لهم فيه مكانة الموظف السامية بين المهن المختلفة، فيرفع من شأنها، ويمتدح مزاياها، ويصنف منزلة الكاتب في مرتبة أعلى حتى من مرتبة الكاهن نفسه الذي قد يُساق إلى أعمال السخرة على الرغم من علو مكانته في الدولة، بينما يعفى الموظف وحده من تلك الأعمال(٩).

وكان على الملك أمنمحات أن يعيد للملكية هيبتها التي عانت كثيراً من قبل، ولا سيما في عصر الانتقال الأول، وحتى في بداية عصر الدولة الوسطى. ويبدو أنه وفق في مسعاه، ولكن منزلة الملك في المجتمع وسموها لم تصل إلى ما كانت عليه من قداسة وإجلال تصل إلى حد التأليه في عصر الدولة القديمة. ولم يتمتع الملك منذ ذلك العصر بصلاحيات مطلقة كالتي كانت لفراعنة الأسرة الرابعة الأوائل خصوصاً حتى عهد الملك سنوسرت الثالث (١٨٧٨ ـ ١٨٤٣ق.م)، وهو الملك الخامس من ملوك الأسرة الثانية عشرة، كما سنرى لدى الحديث عنه. ولكن الوثائق الأدبية المتوافرة من عهد أمنمحات الأول لا تتضمن أياً من النقد المبطن للملك، ولا تطال الذات الملكية إلا بما يليق بها من احترام وتبجيل، على غير ما كانت عليه الحال من قبل.

وأشرك أمنمحات الأول في العام العشرين من حكمه ابنه، وولي عهده، سنوسرت في حكم البلاد لتجنب مشاكل وراثة العرش التي قد تظهر بعد موت الملك، وحتى يعوّده على تصريف أمور الدولة تحت إشرافه، كما

---

(٩) المرجع السابق، ص ٣٢٠.

جعله قائداً للجيش الذي بدأ حينئذ بالتحرك والنشاط الخارجي. فقد كان الملك مشغولاً في النصف الأول من فترة حكمه بتوطيد حكمه، وقهر أعدائه ومنافسيه، إذ تتحدث حولياته عن إخماد حركة من التمرد على حكمه في بداية عهده قام بها مناوئوه في إلفنتين (قرب أسوان)، فجهز بمعاونة حاكم بني حسن أسطولاً من عشرين سفينة توجه بها إلى المنطقة ووضع نهاية لها. ثم قام بحملة في الشمال الهدف منها طرد بقايا الغرباء الآسيويين من الدلتا الذين كانوا يتسربون إليها من شبه جزيرة سيناء كلما وجدوا إليها سبيلاً؛ وبنى ليدرأ خطر أولئك الغرباء، حصوناً في سيناء نفسها سميت باسم «أسوار الأمير»[١٠]، كانت تتمركز فيها قوات دائمة لمراقبة تحركات البدو الآسيويين وحراسة الحدود الشمالية الشرقية من خطرهم الدائم، كما أقام على الحدود الليبية مراكز حراسة مماثلة. ثم تبدلت سياسة أمنمحات في النصف الثاني من فترة حكمه، وانتقل من الدفاع إلى الهجوم الحذر بدءاً من العام الرابع والعشرين من حكمه، وبعد أن تولى ابنه سنوسرت قيادة الجيش. ففي العام الرابع من حكم الملك وولي عهده المشترك توغل الجيش المصري في فلسطين، وبعد عام كان سنوسرت في واوات حيث أسس بوهن وغزا النوبة «فقهر أهلها.. وسبى قبائل مجاي البدوية»، كما يذكر أمنمحات نفسه في وصية لابنه سنوسرت. ثم توجهت حملة أخرى إلى بلاد النوبة في العام التاسع والعشرين من حكمه، ولحقتها حملات أخرى إلى الصحراوات الشرقية والجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية، كانت الغاية منها تأكيد سيادة الدولة في تلك المناطق، وكبح جماح قبائلها البدوية. ويستخلص من أخبار تلك الحملات أن حدود مصر الجنوبية وصلت إلى المناطق القريبة من الشلال الثاني.

وبعد أن خضعت هذه المناطق للحكم المصري المباشر توجه ولي العهد، وشريك الملك في الحكم، سنوسرت على رأس جيشه، في العام الثلاثين من حكم أبيه، لتأديب قبائل التمحو الليبية، وبينما كان عائداً، وقد

---

(١٠) J. Vercoutter, The Near East, The Early Civilisations, 350; FW, 2, 322.

كللت مهمته بالنجاح، وصلته أنباء من العاصمة تفيد بنشوب ثورة في القصر الملكي أودت بحياة أبيه الملك أمنمحات الأول.

ويحكي نص، يُعرف باسم «تعاليم أمنمحات»، أحداث المؤامرة التي دبرت لاغتياله من حراس القصر وأقرب الناس إليه، فيقول: «كان الوقت بعد طعام العشاء، والليل قد أرخى سدوله، وكنت قد انسحبت إلى مخدعي واضطجعت في سريري. لقد كنت تعباً، فغرقت في النوم. (وفجأة) صدر صوت قعقعة سلاح (بعيد)، وكأن أحداً يناديني باسمي. فصحوت من جلبة الصراع. لقد كنت وحيداً (في مخدعي)، ورأيت الحراس وهم يتقاتلون. وأنا وإن قُيّض لي أن أهب بسرعة، وسلاحي في يدي، وأن أحمل الجبناء على الهرب من أمامي، فإنه ما من شجاع بليل، ومن من إنسان استطاع أن يحارب وحده، وما من أحد استطاع أن ينتصر من دون حلفاء (يساعدونه). فقد حدث الهجوم ـ مع الأسف ـ عندما كنت وحدي ولم تكن (إلى جانبي)..». إنه نص كتب على لسان الملك نفسه، يخاطب به ابنه سنوسرت ويصور له فيه المؤامرة، ويقدم له النصائح، بعد أن يعدد له في المقدمة ما قدم للبلد وأهله من خدمات جليلة، ثم يتحدث عن أعماله الإدارية والسياسية. ويبدو لنا أن سنوسرت نفسه هو الذي أوحى إلى أديب من معارفه أن يؤلف هذه القصة على لسان أبيه، وكأن أباه حكاها له قبل أن يسلم الروح، أو صدرت عنه وحياً من السماء.

ويذكر سنوحي، وهو ضابط في جيش سنوسرت وصديق له، كان يرافقه في أثناء الحملة، وفي طريق العودة، أن اغتيال الملك أمنمحات الأول كان «في العام الثلاثين، في الشهر الثالث من فصل الفيضان، في اليوم السابع»، أي حوالي ١٥ شباط/ فبراير ١٩٦٢ ق.م.

ويقول سنوحي متابعاً القصة: «أرسل أصدقاء البيت الملكي مبعوثين.. لإبلاغ ابن الملك بما وقع من أحداث في القصر. وقابله المبعوثون في الطريق حيث وصلوا إليه في الليل. فلم يتردد لحظة واحدة. وطار الصقر (رمز الملك الجديد) في الحال مع حاشيته من دون أن يعلم الجيش». ولما كانت الظروف

غامضة، ويحتمل حدوث مضاعفات للحادثة قد تؤدي إلى نشوب أزمة في الحكم، فإن سنوحي فضّل الانسحاب بعيداً عن المشاكل، وقرر الفرار إلى آسية كما يقول: «لم أفكر بالتوجه إلى القصر الملكي حيث ستدور المعارك، كما بدا لي»[11].

تولى سنوسرت الأول (خبر كارع) الحكم منفرداً بعد اغتيال أبيه، وبقي على عرش مصر ثمانية وثلاثين عاماً علاوة على السنوات العشر التي شارك فيها أباه الحكم (١٩٧١ - ١٩٢٣ ق.م)، وأشرك ابنه أمنمحات الثاني في الحكم قبل موته بسنتين.

وتميز عهد الملك سنوسرت الأول بنشاط سياسي داخلي، ترافق مع سياسة توسعية في الجنوب، وعلاقات تجارية وثيقة مع المدن السورية الداخلية والساحلية، ومع بلاد النوبة وما وراءها.

فقد تابع سنوسرت الأول سياسة والده الداخلية مع حكام الأقاليم الذين كانوا في بداية حكمه أبناء أولئك الحكام الذين عينهم والده، ووقفوا إلى جانبه بعد موت أبيه، ووضعوا تحت تصرفه القوات التي طلبها منهم. وقد أثمرت سياسة والده وإدارته الحكيمة فيما يتصل بالهيبة الملكية في عهده، ويشهد على منزلة الملك ونظرة الرعية إليه ما قال سنوحي في قصة عن سنوسرت الأول «إنه حقاً إله، لا مثيل له، ولم يعش إله آخر قبله يشبهه. إنه معلم الحكمة (فيما) يأتي من خطط تتصف بالكمال (وما يصدر عنه) من أوامر متميزة..». ولكنه يستخدم ألفاظاً أخرى يصف بها مولاه تجعله أقرب إلى الإنسان غير العادي، على الرغم من حرصه على تسميته له بالإله كلما أشار إلى شخصه. وعاد في زمنه اللقب القديم «نثر نفر» إلى رونقه، وهو يعني «الإله الحسن، الطيب»، بحيث اقترب مفهوم الفرعون من المفهوم الذي كان سائداً في عصر الدولة القديمة، والذي كان يرتبط بصلاحيات الملك التي

---

(١١) Papyrus Millingen; G. Maspero, Les enseignements d'Amenmehait Ier, 1914; Erman, Die Literatur der Agypter, 108 f.; FW, 2, S. 325.

تتجاوز طبيعته الإنسانية إلى الطبيعة الربانية، وقد جاء ذلك نتيجة لنفوذ الديانة الأوزيرية السائدة.

لم يعتمد سنوسرت الأول كثيراً على الوزير في تصريف شؤون البلاد وإدارتها، كما فعل والده من قبل، إذ كانت ثقته بوزرائه ضعيفة. وقد يفسر ذلك تعاقب خمسة وزراء في عهده، بل لجوؤه إلى تعيين وزيرين اثنين في آن واحد: واحد للشمال، وآخر للجنوب. وقد تمتعت مصر في عهده بسياسة اقتصادية ناجحة بدأت في عهد أمنمحات الأول، واستمرت خطواتها المتطورة في عهد سنوسرت الأول الذي عرف منذ بدايته اهتماماً خاصاً بمنطقة الفيوم التي كانت تقع فيها بحيرة تستمد مياهها من نهر النيل؛ لكنها لم تكن تعطي من الخيرات الزراعية ما كان مرغوباً فيه لقصورٍ في استثمار إمكاناتها الحقيقية التي كانت تنتظر من يعي واقع المنطقة ليعمل على تطويرها، وهو ما حصل لاحقاً.

ويشير إلى التطور الاقتصادي الفعلي الذي شهدته البلاد في عهد سنوسرت الأول عدد المنشآت العمرانية التي أقيمت في زمنه أو تمت صيانتها. فقد كُشِف في حوالى خمسة وثلاثين موقعاً عن أطلال آثار عمرانية يعود تاريخها إلى عهده، وشهدت أغلب المناطق المأهولة الممتدة بين الإسكندرية شمالاً وأسوان جنوباً آثار نشاطه العمراني فلم تخل بقعة فيها من أثر بني في زمنه. ويبرز من بينها ترميمه لمعبد أونو (هليوبوليس) الخاص بإله الشمس رع.

وقد جاء اهتمامه بهذا المعبود وبمعبده ليحقق فائدتين لنفسه وللأسرة الحاكمة، الأولى: دينية، إذ كانت عبادة الإله رع ذات انتشار واسع في كل الديار المصرية، وصيانة معبده الرئيس في أونو والاهتمام بكهنته يعني كسب رضى عباده الكثر، والإفادة من نفوذ كهنته في كل مكان. أما الفائدة الثانية فهي فائدة سياسية، فقد كان الإله رع «راعي» فراعنة العصر القديم الذين كانوا يتخذون لقب «ابن رع» تأكيداً لشرعية حكمهم، وتعزيزاً لسلطانهم المطلق. وعندما قام سنوسرت بصيانة معبده الرئيس إنما فعل ذلك ليظهر نفسه أمام رعاياه في صورة الفرعون الحريص على الانتساب إلى رع، كما كان

يفعل ملوك الدولة القديمة، فيصل ما انقطع من ذلك العرف، وكأنه واحد من أولئك الفراعنة الشرعيين، بل وريثهم الشرعي. وقد توصل سنوسرت، واسمه عند الإغريق، سيزوستريس Sesostris فعلاً إلى ما كان يصبو إليه من مجد ورفعة، فأعاد إلى الفرعون هيبته كاملة، وأعاد إليه سلطانه غير منقوص، ولا غرو إذا قدّس بعد موته كواحد من الآلهة، وروى الناس قصة حياته، كما صورها المؤرخ ديودور الصقلي من بعد في القرن الأول قبل الميلاد، فلم يكن ذلك إلا صدى لما قام به ذلك الملك من إنجازات حقة[١٢].

أما النشاط العسكري في عهد سنوسرت الأول فقد كانت نتيجته توسيع سلطة الدولة في الجنوب لتمتد إلى ما بعد الشلال الثاني، وتشمل النوبة العليا نفسها حيث كانت تقوم مملكة كوش التي اخترقتها القوات المصرية في العام الثامن عشر (حوالى عام ١٩٥٤ق.م) من حكم سنوسرت الأول، وهي منطقة تقع إلى الجنوب من مدينة سِمْنه. ولم يكتف سنوسرت بغزو النوبة العليا، بل سعى إلى الحفاظ على النفوذ المصري فيها، وذلك بإنشاء عدد من الحصون كنقاط للمراقبة على طول نهر النيل، كما فعل والده من قبله في الحدود الشمالية الشرقية والغربية، ولكي يحول دون تسرب المهاجرين الزنوج والسودانيين من الجنوب. كما عين حكاماً مصريين على المدن الكبيرة في النوبة ليضمن إلحاق بلاد النوبة بمصر، ومنها مدينة كرما، كبرى مدن النوبة، كما يتبين من النصوص التي خلفها أحد ولاة النوبة، واسمه حعبي جفاي، الذي تلقب بلقب الرئيس الأعلى للجنوب، ورئيس زعماء الجنوب[١٣].

كان اهتمام مصر في عصر الدولة القديمة ببلاد النوبة يعود إلى سببين،

---

(١٢) ثمة خلط بين سنوسرت الأول وسنوسرت الثالث، وأعمالهما عند المؤرخين الإغريق والرومان، ومبالغة لما قام به سنوسرت من فتوحات واسعة في آسية الغربية وأوروبة الشرقية، وفي بلاد العرب والحبشة، وفي الهند، كما يذكر ديودور نفسه (Diodorus, I, 53f.).

انظر FW, 2, S. 232.

(١٣) Sethe, Urkunden des Mittleren Reiches, Nr. 212;
عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ١٩٤.

الأول حماية مصر من خطر جيرانهم الجنوبيين الإفريقيين، والثاني ضمان حرية التجارة ووصول السلع الأجنبية الغريبة عن مصر عن طريقها من دون عوائق. ولما جاء عصر الدولة الوسطى زاد اهتمامها بذهب بلاد النوبة الذي بدأ استثماره لصالح الدولة، حتى صار الذهب في بلاد النوبة يشكل المادة الأولى في قائمة الواردات المصرية منها.

أما في آسية فقد اتبع سنوسرت الأول منذ البداية سياسة ودية تؤكدها الكتابات والنقوش في شبه جزيرة سيناء، كما تتحدث عنها قصة سنوحي. فقد عاد استثمار مناجم الفيروز والنحاس في شبه جزيرة سيناء، كما كان في عصر الدولة القديمة، وبعد أن توقف في نهاية عهد ببي الثاني، آخر ملوك الأسرة السادسة المعروفين من دون أن يلقى أية مقاومة من السكان. ويبدو أن بدو سيناء جنحوا في عصر الأسرة الثانية عشرة إلى السلم، ووطنوا أنفسهم على التعايش مع عمال المناجم المصريين، والقوافل التجارية، بل وعلى مرافقة البعثات المصرية، والتعاون معها بانضمام بعض رؤساء البدو وأتباعهم للعمل ضمن أفرادها(١٤) حتى لم يظهر أي من ملوك الأسرة الثانية عشرة في الوضع الذي صوره الرسامون من قبل وهم ينهالون بالمقمعة على بدوي آسيوي راكع في سيناء، وهو المنظر المألوف بوادي مغارة في شبه جزيرة سيناء.

ويؤكد سنوحي في قصته المشهورة قيام علاقات سلمية بين المصريين والآسيويين في عهد سنوسرت الأول. فهو يذكر أنه هرب إلى آسية حتى لا يتورط في المؤامرة التي جرت في عام ١٩٦٢ ق.م والتي ذهب الملك أمنمحات الأول ضحيتها. وكان عليه أن يعبر الحدود في شبه جزيرة سيناء من دون أن يكتشف حراس «أسوار الأمير» وجوده. وبعد أن تجاوز المخاطر في سيناء ساقته قدماه إلى رحلة طويلة حتى بلغ رتنو العليا، وهي منطقة تقع وسط سورية أو في شرقي لبنان، فبقي فيها عشرين سنة، حيث أقدم على مغامرات

---

(١٤) J. Cerny, Semites in Egyptian Mining Expeditions to Sinai, in Journal of the Czechoslovak Oriental Institute, Prague, VII (1935), P. 384; Smith, Introductions in the Ancient Near East 11.

كثيرة، وتزوج ابنة أحد رؤساء القبائل الذي أكرم وفادته بعد أن سمع قصته، ووهبه أرضاً وقطعاناً من الماشية. ولكن ذلك أثار حفيظة بعض الحساد الذين كادوا له، فتحرش به أحدهم، واستطاع سنوحي أن يهزمه في النزال الذي دار بينهما. ثم غلب عليه الحنين إلى الوطن بعد طول الغياب، واستأذن سنوسرت الأول في العودة، فرق لحاله، وبعث يستدعيه. وعندما استقرت به الحال في مصر سجل قصته نثراً شائقاً، حتى غدت مثالاً يحتذيه المعلمون والطلبة لما تضمنته القصة من صيغ التراسل، ولباقة الاستعطاف، ورقة الاعتذار، وعاطفة الحنين إلى الوطن وتقديس الدفن تحت ترابه[١٥]. ويفهم من القصة وتفاصيلها أن علاقات مصر في عهد سنوسرت مع سورية كانت سلمية، فلم يذكر في سياقها أن حرباً وقعت بين مصر وبين أي من ممالكها، كما يستدل من حديث سنوحي أن أمراء سورية كانوا مستقلين على الرغم من علاقاتهم الوثيقة بمصر؛ وأن جاليات مصرية كانت تقيم في مواطن عدة منها، وأن كثيراً من التجار المصريين والسفراء كانوا يفدون إلى سورية، ويترددون عليها، ويتجولون في بقاعها دون أن يتعرضوا لأية مضايقة من السوريين. ويفهم من القصة أن اللغة المصرية كانت معروفة لدى بعض أهل سورية، وأن حكامها كانوا على بينة بما يجري في مصر من أحداث، ويودون أن يستزيدوا من أخبارها. ويذكر سنوحي أنه شارك في صد جماعات يدعى رؤساؤهم باسم «حقا خاسوت»، أي «حكام البراري»، وهو الاسم الذي أطلق من بعد على زعماء الهكسوس.

وتؤكد اللقى التي تم العثور عليها في بعض المدن السورية العلاقات السلمية والتجارية بين مصر وسورية في عصر الدولة الوسطى، ومنها طوق من الرقائق المعدنية واللؤلؤ، يحمل اسم الملك سنوسرت الأول، تم العثور عليه في أوغاريت (رأس الشمرة)، وكثير من القلادات التي تحمل اسمه والتي

---

(١٥) A. M. Blackman, Middle Egyptian Stories, 1932, 1f; Gardiner, Notes on the Story of Sinuhe, 1916; H. Goedike, in JEA, 1957, 77f.; 1965, 29f.
عبد العزيز صالح، المصدر السابق ١٩٥؛ إرمان ورانكه، مصر والحياة المصرية القديمة، القاهرة ١٩٥٢، ص٤٠٩ وما بعدها.

عثر عليها في مواقع عدة من فلسطين (في غزة، ولخش، وجزر، وبيسان، ومجيدو). ويدل العثور على مثل هذه اللقى الثمينة، ومنها تماثيل صغيرة وأوان وأختام، في سورية، على عمق الصلات بين المصريين والسوريين على المستويين الحكومي والشعبي. ويبدو لنا أن سنوسرت الأول اتبع سياسة الإهداء إلى أمراء سورية وغيرها من البلاد، ومنها جزيرة كريت، وقبرص، ولكن عن طريق الموانىء السورية. كما عثر في مصر نفسها على بعض المنتوجات السورية (والكريتية) التي جلبها التجار السوريون أو مبعوثو الحكام السوريين إلى ملوك الدولة الوسطى، أو إلى زملائهم وأصدقائهم في مصر. وقد أصبحت سياسة الإهداء سنة اتّبعها خلفاء سنوسرت الأول مع أمراء سورية الموالين لهم في مقابل ما كانوا يتلقونه من هداياهم تعبيراً عن أواصر الود والتعاون التي تربط بين الطرفين.

احتفظت طيبة في عهد سنوسرت الأول وفي عهود خلفائه من ملوك الأسرة الثانية عشرة بمركز العاصمة الدينية، وقد ابتنى فيها سنوسرت الأول لنفسه مقصورة في رحاب معبد آمون بالكرنك، لا زالت تعتبر من أجمل آثار الدولة الوسطى الباقية، كان قد خصصها، كما يبدو، للاحتفال بعيد يوبيله الثلاثيني.

تابع الملك **أمنمحات الثاني** (١٩٢٩ - ١٨٩٥ق.م) سياسة والده سنوسرت الأول الذي أشركه في السنتين الأخيرتين من حياته فيما يتصل بعلاقاته بحكام الأقاليم، وبحكام سورية والمناطق المجاورة. فقد عثر له ولأفراد أسرته على عدد من اللقى الأثرية، ومنها تمثال صغير على هيئة «أبو الهول» لابنته (إتا) في قطنة، وهو أقدم تمثال معروف من نوعه يمثل سيدة مصرية في هذه الهيئة، وتمثال له في أوغاريت. كما عثر في أرضية معبد الإله مونتو في بلدة الطود، جنوبي الأقصر، على أربعة صناديق صغيرة للحلي من البرونز، يحمل كل منها اسم الملك أمنمحات الثاني، تحتوي على حلي ذهبية، وقطع ذهبية وفضية، وأختام أسطوانية بابلية، وكؤوس ولازورد، وصلت الملك هدايا من المناطق الأسيوية، وهي دليل على علاقاته الوثيقة بتلك المناطق، وعلى اتباعه سياسة الإهداء التي سلكها أبوه من قبل الذي هيأ له

سبل تطوير العلاقات الحسنة مع الخارج، وخلف له مُلْكاً آمناً، وموارد اقتصادية ثابتة وغنية، بحيث لم يكن بحاجة في يوم من الأيام إلى اللجوء إلى استخدام السلاح لفرض هيبة الفرعون، وسلطان الدولة. وقد يسر له استقرار أحوال مصر السياسية والاقتصادية منذ عهد جده أمنمحات الأول التحرك لتوسيع علاقات مصر التجارية مع بلاد البونت، فأنشأ مرفأ جديداً على البحر الأحمر عند مصب وادي جاسوس أمّه الأسطول القادم من البونت في العام الثامن والعشرين من حكمه لأول مرة. ومن الواضح أن تجارة البونت كانت تعني دائماً لمصر الرخاء، والرفاه الاقتصادي. ويدل على هذه الحال فعلاً آثار الغنى الواضح في مدافن الأقاليم، وحجم هرم الملك الذي شيد له في دهشور، والغنى اللافت في محتويات مقابر أفراد الأسرة الملكية المجاورة لمدفن الملك من حلي وأدوات للزينة تعتبر بحق من أجمل ما عرف الفن المصري القديم(١٦)، وهي الآن في المتحف المصري.

وعندما تولى الملك سنوسرت الثاني الحكم (١٨٩٧ ـ ١٨٧٨ق.م) بعد أن شارك والده أمنمحات الثاني لمدة ثلاث سنوات الحكم، لم يغير شيئاً من سياسة أسلافه التي كانت تقوم، كما رأينا، على مبدأ من «السلام المسلح» الذي كان يعني حرص الدولة القوي على السلام مع جيرانها؛ ولكنه سلام تحميه قوة الدولة، وسلاح جيشها المدرب والجاهز في كل وقت لتنفيذ توجيهات الملك وأوامره. فاكتفى سنوسرت الثاني بإرسال حملات تفتيشية إلى الجنوب حيث كانت تقوم مراكز المراقبة، والحصون الدفاعية، واستمر في استثمار المناجم في سيناء، والمحاجر في وادي حمامات. وتشهد الأعمال العمرانية التي تمت في عهده على الازدهار الاقتصادي الذي كانت تعيشه البلاد في عهده. كما تشهد اللقى التي عثر عليها في عدد من المواقع في سورية على استمرار العلاقات الطيبة مع حكامها، وعلى ازدهار التبادل التجاري معها في عهد الملك سنوسرت الثاني. فقد عثر في أوغاريت على تمثال نصفي لشقيقته وزوجته (غنمت نفر حجت) وعلى تمثال لوزيره (سنوسرت عنخ)

---

(١٦) Vercoutter, in FW, 2, S.333.

الذي كان مبعوثاً للملك وسفيراً له إلى ملكها وإلى ملوك سورية الآخرين. ويؤكد الصلات الودية بين السوريين والمصريين ما احتفظت به مقبرة خنوم حوتب، حاكم إقليم الوعل (بني حسن) في مصر الوسطى، من صورة فريدة على الجدار الشمالي للمقبرة، لجماعة من الأموريين (أو الكنعانيين)، بهيئتهم الآسيوية المتميزة، شباناً وشيوخاً ونساءً وأطفالاً، يتزعمهم شيخ يدعى أبشا[١٧]. وقد جاؤوا للاتجار أو بقصد الإقامة، وهو الأقرب إلى التفسير.

خلف سنوسرت الثاني ابنُه سنوسرت الثالث «خع كاو رع» (١٨٧٨ - ١٨٤٣ق.م) الذي تحول إلى سياسة جديدة، اختلفت عن سياسة أسلافه الداخلية والخارجية، وكان بحق أشهر ملوك الأسرة الثانية عشرة، فقد طغت شخصيته القوية التي تلوح من خلال قسمات وجه تماثيله الصارمة على بقية أفراد الأسرة جميعهم، مع أن الواقع يبين بجلاء أن ما قام به أسلافه من أعمال في سبيل تحقيق وحدة البلاد، وازدهار اقتصادها، وإعادة الهيبة إلى الدولة وإلى ملكها، كان ذا أثر كبير في حياة مصر، وهو الذي جعل عصر الأسرة الثانية عشرة أزهى عصور الدولة الوسطى. ولكن ذكراه الحية بقيت في أذهان الأجيال التالية حتى أقام الملك تحوتمس الثالث بعد حوالى أربعة قرون نصباً باسمه تقديراً منه، وتعبيراً عن احترامه الشخصي له. وقد خلط المؤرخون الإغريق بينه وبين سنوسرت الأول، كما ذكرنا، وبينه وبين رعمسيس الثاني، وحتى بينه وبين مؤسس الأسرة الثانية عشرة أمنمحات الأول نفسه[١٨]. ولكن هذا كله لا يقلل من شأن سنوسرت الثالث، لأن مصر وصلت في عهده إلى ذروة إنجازات عصر الأسرة الثانية عشرة المتميز.

ويبرز من أعماله الإدارية الداخلية قراره القاضي بإلغاء منصب حاكم الإقليم، وهو تصرف ينسجم وشخصيته القوية التي لا تتحمل وجود حكام يتمتعون بصلاحيات كبيرة، ويسمحون لأنفسهم بإقامة تماثيل لهم في المعابد،

---

(١٧) P. Newberry, Beni Hasan, I, P. 69, Pls. 28, 30, 31.

(١٨) انظر الهامش رقم ١٢ السابق.

تقارب في حجمها حجم تماثيل الملوك ويؤرخون الأحداث نسبة إلى سنوات حكمهم، وهو حق سمح لهم به الملوك السابقون الذين وصل أوائلهم إلى الحكم بمؤازرة من أولئك الحكام وتأييدهم لهم. وقد يكون سبب لجوئه إلى اتخاذ هذا القرار شعوره بتحركات بعض حكام الأقاليم المرية بعد أن لمسوا سياسة المسالمة واللين التي عاشوا في كنفها في عهدي أمنمحات الثاني وسنوسرت الثاني، فطمعوا بصلاحيات أكثر من ذي قبل. ويؤكد غياب منصب حاكم الإقليم خلو النصوص المعاصرة منذ منتصف عهد سنوسرت الثالث من أسمائهم، ومن ذكرهم، ولا سيما من ذكر حكام الأقاليم الذين ينتمون إلى الأسرات الكبيرة المتنفذة. واستعاض الملك عنهم بإدارة مركزية في العاصمة، تتشكل من ثلاثة مكاتب خاصة: واحد للشمال، وواحد لمصر الوسطى، وثالث لمصر العليا. ويقوم على رأس كل مكتب موظف كبير يديره، ويضم المكتب موظفين يأتمرون بأمر المدير وينفذون توجيهاته، ويخضع مدراء المكاتب الثلاثة لسلطة الوزير المباشرة. وتوصل سنوسرت الثالث نتيجة لإلغاء منصب حاكم الإقليم الذي نتصور أنه لم يتم دفعة واحدة، وإنما تم تنفيذه على مراحل، توصل إلى حكم البلاد حكماً مركزياً، فأعاد البلاد إلى ما كانت عليها في عصر الدولة القديمة، وظهرت طبقة اجتماعية متوسطة تشكلت من الموظفين متوسطي الحال، ومن الصناع، وملاك الأراضي الصغار، تركت آثاراً لها في معبد أوزير في أبيدوس، تتمثل في لوحات تذكارية تحمل أسماء أصحابها، أو تماثيلهم الصغيرة.

وتميز عهد سنوسرت الثالث بنشاطه العسكري الخارجي الذي توجه إلى الجنوب حيث كانت بلاد النوبة، وإلى الشمال الشرقي حيث تقع سورية. فقد دلت شبكة التحصينات التي أنشئت في عصر الدولة الوسطى في منطقة الشلال الثاني بين سِمْنه في الجنوب وبوهن في الشمال على خطورة الأوضاع السائدة ما وراء الشلال الثاني، وعلى حرص المصريين الشديد على تأمين حدودهم في هذه المنطقة الحيوية بإقامة تحصينات قوية تستطيع الصمود في وجه أي هجوم محتمل يقوم به الزنوج والسودانيون، إذ شهدت الفترة الواقعة في بداية الألف الثاني قبل الميلاد تحركات مفاجئة من الجنوب باتجاه النوبة العليا،

ولا سيما في المنطقة الواقعة بين الشلال الثاني والشلال الرابع حيث كانت مدينة كرما تشكل المركز الرئيس لتلك القوى الخطيرة فيما كان يدعى كوش. ولكن الملك سنوسرت لم يكتف بتحصين المناطق الحدودية فحسب، بل انتقل إلى الهجوم بقواته التي كان يقودها بنفسه، ليدفع الغرباء جنوباً ويستعيد ما تجرأ أولئك على اقتطاعه من السيادة المصرية فمهّد لمعاركه بالعمل على شق فتحة واسعة في صخور الشلال الأول لتتمكن سفنه من عبور الشلال بيسر، وذلك في العام الثامن من حكمه، «لإسقاط كوش المنحطة»، كما يقول الملك. ثم أعقب الحملة الأولى بحملات ثلاث في الأعوام ١٠، و١٦، و١٩ من حكمه. ويبدو أنه توغل في حملته الثالثة في أراضي الأعداء، حيث نهبت قواته القرى، ودمرت الآبار، وسبت النساء، وأحرقت الحقول. واستغرقت حملته الرابعة مدة سبعة أشهر أو ثمانية، إذ بدأت في الأيام الأولى للفيضان وارتفاع مياه نهر النيل، وانتهت بعودة الجيش بعد انحسار مياه الفيضان، ووصول مياه النهر إلى أدنى منسوب لها في شهري نيسان (أبريل) وأيار (مايو). وخلف وراءه تعليمات ملكية صارمة تنص على عدم السماح للنوبيين بتخطي الحدود عن طريق البر، أو عن طريق النهر، ومنع ماشيتهم كذلك من تجاوز الحدود. ولكنه سمح للنوبيين بالمرور إذا جاؤوا للاتجار، أو في بعثة رسمية، كما جاء في النص المدون على لوحة الحدود الموجودة حالياً في برلين. وقد أدت أعماله الحربية في النوبة، وإقامة التحصينات المنيعة فيها إلى اعتباره إلهاً محلياً لمنطقة الشلالات، حيث دأب مواطنوه على عبادته، حتى عصر الدولة الحديثة، إذ كانت حصون سِمْنه تشهد طقوس عبادته.

كما تحولت سياسة الدولة في عهده مع الآسيويين في شبه جزيرة سيناء وفي جنوبي سورية، وانتهى عهد الوئام والتفاهم، والتعايش السلمي، مع سكان تلك المناطق، الذي بدأ مع تسلم الأسرة الثانية عشرة زمام الحكم، كما رأينا في عهود الملوك الأربعة الأوائل، وعادت بعثات التعدين إلى طلب الحماية العسكرية خوفاً من مهاجمة البدو لها في سيناء، كما بدأت قوات مسلحة ترافق البعثات التجارية التي كانت تخترق سيناء في طريقها من مصر إلى فلسطين، وفي طريق العودة، لتضمن سلامتها وتردع بدو سيناء من التعرض

لها. وليس من شك في أن سنوسرت الثالث الذي أمر باتخاذ تلك الإجراءات إنما تصرف بعد أن لمس تغيراً واضحاً في سلوك البدو في سيناء، كان سببه سياسة المسالمة واللين في عهدي أمنمحات الثاني وسنوسرت الثاني، التي جعلتهم يجرؤون على التحرش بالبعثات المتوجهة لاستثمار المناجم في سيناء، وبالقوافل التجارية. ثم قاد بنفسه حملة عسكرية، عبرت سيناء، وتوغلت في فلسطين حتى وصلت إلى مدينة سِكْمِم(١٩) التي يعتقد أنها مدينة شكيم (قرب نابلس الحالية) التي تبعد حوالى خمسين كيلومتراً إلى الشمال من مدينة القدس. وحدث ذلك في بداية حكمه وقبل أن يتوجه إلى بلاد النوبة التي وجه إليها أربع حملات كما ذكرنا. وتتحدث لوحة عثر عليها في أبيدوس تخص أحد مرافقي الفرعون عن حملته على جنوبي سورية (التي كانت تسمى رتنو في النصوص المصرية)؛ كما صور أحد حكام الأقاليم السابقين، واسمه جحوتي حوتب، على جدار مقبرته في البرشا ماشية قادها الجنود المصريون العائدون من حملتهم على فلسطين ينسبها إلى رتنو(٢٠). ويبدو أن حملة سنوسرت الثالث على جنوبي سورية كانت غارة حربية طارئة، إذ إنه انسحب بعدها مباشرة من دون أن يخلّف فيها حامية عسكرية تمثل السيطرة المصرية عليها، أو تعبر عن احتلاله لها.

شارك أمنمحات الثالث «ني ماعت رع» (١٨٤٢ ـ ١٧٩٧ق.م) والده سنوسرت الثالث في الحكم في أيامه الأخيرة، ثم انفرد بالحكم خمساً وأربعين سنة قضى معظمها في تطوير البلاد اقتصادياً، مستفيداً من أوضاع مصر الداخلية والخارجية الآمنة التي آلت إليها بفضل جهود والده وسياسته الحازمة. وقد تبدّى ذلك في استغلاله موارد كل من الصحراء الشرقية والصحراء الغربية من المعادن بإرسال البعثات التعدينية المتالية، ومن دون انقطاع، واستثمار مناجم الفيروز والنحاس في شبه جزيرة سيناء أكثر من ذي

---

(١٩) Breasted, Ancient Records, I, 676 f.; Vercoutter, FW, 2, 337.

(٢٠) A. Blackman, An Indirect Referene to Sesostris III Syrian Campagne in the Tombchapel of Dhwty Htp at El - Bersheh, in; JEA, II, 1915, P.13, 14.

قبل، حيث زادت نقوشه التي عثر عليها في منطقة المناجم على تسعة وخمسين نقشاً، كما عمل على تحسين أوضاع المناجم، وزاد من حجم معبد حتحور القريب منها زيادة واضحة. ولم يتراجع لحظة عن التمسك بمركزية الحكم التي عرفت في عهد والده.

وتوج أمنمحات الثالث إنجازاته الاقتصادية باستصلاح مساحة ما يقرب من سبعة آلاف هكتار من أرض الفيوم، إذ عمل على بناء عدد من السدود في أضيق ممر تنفذ منه مياه فرع بحر يوسف خلال جريانها إلى منخفض الفيوم لحجز مياه الفيضان، ثم توجيهها عن طريق قنوات توزع المياه على الأراضي المجاورة للبحيرة التي كانت محرومة من مياه السقي لانخفاض منسوب مياه البحيرة. فزادت بذلك مساحة الأرض الزراعية، وانتفع سكان المنطقة من خيرات المشروع، وازداد عدد القرى فيها؛ وانتظم جريان ماء بحر يوسف وما عاد يشكل خطراً أيام الفيضان على الأراضي المجاورة بعد أن قل اندفاع مياهه نحو المنخفض، وبعد أن سهل التحكم في مياه الفيضان التي وُجّه قسم منها إلى البحيرة، فارتفع منسوب مياهها بعدئذ، وتحولت إلى خزان طبيعي يحبس المياه الفائضة التي غدت مفيدة في الأوقات العصيبة. كانت منطقة السد تدعى راحنت، أي «فم البحيرة»، ثم حُرّف الاسم إلى لاهنة، واسمها اليوم لاهون، ومنه اسم السد: سد لاهون.

ويحتمل أن المشروع بدأ في عهد الملك سنوسرت الثاني أو ما قبله، ولكن استكمال خطواته تم فعلاً في عهد أمنمحات الثالث الذي توافرت فيه الإمكانات المادية أكثر من ذي قبل، حتى مكّنه غنى البلاد في عهده من التوسع في المشاريع العمرانية، فشاد هرمين له، أحدهما في دهشور، والآخر في هوارة (جنوب شرقي منخفض الفيوم). وبنى بجوار هرمه الثاني معبده الجنائزي الذي عده الإغريق من عجائب مصر وسموه لابيرنثوس، وهو اسم استعاروه من اسم قصر الحكم العظيم في مدينة كنوسوس بجزيرة كريت. وقد وصف كل من هيرودوت، وديودور، واسترابون اللابيرنث. فقال هيرودوت إنه عاينه بنفسه، ووجد أنه تألف من طابقين، واشتمل على ثلاثة آلاف غرفة، نصفها فوق سطح الأرض، والنصف الآخر فوقها. وفيه اثنا

عشر بهواً مسقوفاً بالحجارة؛ أبوابها متقابلة، ويتصل كل بهو منها بالآخر، وتقوم على جوانبها أعمدة بيضاء من الحجر وتماثيل، وينتصب خلف المبنى هرم ضخم[٢١]. وعبر عن إعجابه الشديد به قائلاً: لو أن آثار الإغريق تجمعت كلها في صعيد واحد لما طاولته في فخامته؛ واعتبره أجل من الأهرام الضخمة وأفضل.

ووصف ديودور اللابيرنث، وعده بناء يدعو للعجب، وأن من يدخله لا يجد طريقه إلى الخارج بسهولة؛ وأنه بناء ضخم مربع الشكل، فيه بهو يحيطه أربعون عموداً من كل جانب، ويغطيه سقف منحوت من حجر واحد، نقشت عليه الصور والرسوم المختلفة[٢٢].

أما استرابون فقال عنه إنه بناء منيف، تضمن قصوراً ذات طابق واحد، وأبهاء متصلة ببعضها عن طريق ممرات وأقبية لا يستطيع الزائر أن يتلمس طريقه بينها من دون دليل، ولعله دعي لذلك باسم اللابيرنث، أي قصر التيه[٢٣]. ومهما يكن من أمر هذا البناء العجيب فإنه كان معبد الملك أمنمحات الثالث الجنائزي، كما قلنا، ولعله كان في الوقت ذاته قصر الملك ومقر حكمه وإدارته الرئيس. ومن المؤسف أنه خَرِبٌ، ولم يتبق منه غير أكداس من الأنقاض لا تمكّن المشاهد من تكوين صورة عما كان يقوم مكانها على الرغم من الأوصاف التي قدمها المؤرخون القدماء[٢٤].

وازدهرت العلاقات التجارية في عهد الملك أمنمحات الثالث بين مصر وسورية، ولا سيما مع دولتي أوغاريت وجبيل اللتين كانتا ترتبطان بدورهما بعلاقات تجارية قوية مع بلاد الرافدين، وإيران، وآسية الصغرى، وشبه الجزيرة العربية. فقد عثر في مدافن أمراء هاتين الدولتين، وفي غيرهما من

---

(٢١) هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة Heroduts, II, 148 ومراجعة أحمد بدوي، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٧٩ ـ ٢٨١.

(٢٢) وهيب كامل، ديودور الصقلي في مصر، الفقرتان ٦١، ٦٢.

(٢٣) Strabo, XVII, 37.; H. Kees, Ancient Egypt, London, 1961, p. 225.

(٢٤) Vercoutter, in: FW, 2, 340.

دويلات سورية الداخلية، على آثار مصرية، وصلتهم هدايا من أمنمحات الثالث وخليفته أمنمحات الرابع، ومن بينها تمثال لأمنمحات الثالث على هيئة «أبو الهول» أقيم على مدخل معبد بعل في أوغاريت، وصدرية ذهبية في جبيل باسمه، تمثله وهو يرضع من الإلهة حتحور[٢٥]، وبعض الأدوات الصغيرة القيمة التي أهداها أمنمحات الثالث لأمير جبيل أبي شمو الذي كانت تربطه به علاقة طيبة. ولم تكن تلك العلاقة الطيبة الخاصة بين مصر ومدينة جبيل في عهد الملك أمنمحات إلا استمراراً للصلات الودية، والعلاقات التجارية القديمة التي بدأت منذ عصر الدولة القديمة، بل ومنذ عصر بداية الأسرات، ولا سيما في عصر الأسرة الثانية، ولم تنقطع طوال عصور التاريخ المصري القديم إلا في فترات الأزمة الطارئة. فقد كانت مصر بحاجة إلى خشب الصنوبر والأرز الذي كانت تستورده عن طريق جبيل، وإلى زيت الزيتون الذي اشتهرت به مناطق الساحل السوري، وإلى بعض المنتوجات الأخرى والمعادن؛ كما كانت مصر تصدر إلى سورية عن طريق البر، وعن طريق البحر، مصنوعات متنوعة من أوانٍ حجرية وخزفية ومعدنية، وحلي ذهبي وفضي، وقطع فنية كالتماثيل الصغيرة والمزهريات، وصناديق المجوهرات المصنوعة من الألاباستر والعاج والأبنوس والأحجار الكريمة. وكان التبادل التجاري لا يقتصر على البعثات الحكومية وحدها، وإنما تجاوزها إلى تجارة يقوم بها أفراد عاديون كانوا يعملون لحسابهم الخاص، أو لحساب دولتهم. وتطورت تلك الصلات بين سورية ومصر إلى أن بلغت مرحلة من التأثير الثقافي والديني المتبادل، حيث ظهر ذلك جلياً في أساليب الفن والصناعة،

---

(٢٥) W. S. Smith, Interductions in the Near East. A Study of the Relationships between the Arts of Egypt, the Aegean, and Western Asia, London 1965, p. 15, 16; Fig 27.

عبد القادر خليل عبد المنعم، علاقات مصر بشرق البحر المتوسط ١٢٥.

وتم الكشف في منطقة النيرب، قرب مدينة حلب، على تمثال مجنح لأمنمحات الثالث، ومعه صور فنية صغيرة الحجم تمثل أفراد الحاشية الملكية والأشراف. انظر: توفيق سليمان، دراسات في حضارات غرب آسية القديمة، دمشق ١٩٨٥، ص ٣٥٣.

وفي العثور على تماثيل صغيرة لمعبودات مصرية في عدد من المدن السورية، وفي ظهور اسم «بعلة جبيل»، وهي الإلهة الرئيسة فيها، في أسماء عدد من نساء مصر، مما يعني نوعاً من التسامح الديني بين الطرفين. وقد عمل وجود الجاليات من الفريقين، السورية في مصر، والمصرية في سورية، على تعزيز تلك الأواصر التجارية والثقافية.

وصل الملك أمنمحات الرابع إلى الحكم بعد والده، ولم يطل حكمه أكثر من تسع سنوات (١٧٩٨ - ١٧٩٠ق.م) قضاها في ظروف مشابهة لظروف والده من الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي، والاستمرار على نهجه في عقد الصلات الطيبة مع حكام سورية، وفي استثمار المناجم في سيناء، وإرسال البعثات إلى النوبة وإلى الصحراء الشرقية والغربية لاستغلال مواردها من المعادن والأحجار.

وبعد موت أمنمحات الرابع حوالى عام ١٧٩٠ق.م خلا العرش من وريث يخلفه، فتسلمت السلطة الملكة سوبك نفرو ابنة أمنمحات الثالث وأخت أمنمحات الرابع وزوجته التي قيض لها أن تحكم مصر منفردة حوالى ثلاث سنوات وبضعة شهور، بعد أن شاركت أباها وأخاها في الحكم وتمرست فيه، فحملت لقب «ملكة مصر العليا ومصر السفلى». وبعدها انتهى عصر الأسرة الثانية عشرة في حوالى عام ١٧٨٦ق.م، وانتقلت مقاليد الحكم إلى حكام جدد، هم ملوك الأسرة الثالثة عشرة، وانتهى عصر الدولة الوسطى بموت آخر حكامها الملكة سوبك نفرو، بعد أن عاشت مصر في هذا العصر حقبة من الزمن تعد واحدة من أزهى الحقب في تاريخها القديم. فقد ازدهرت الحضارة المصرية في هذا العصر، وشهدت البلاد تقدماً في العلوم المختلفة، فظهرت مؤلفات طبية خطها أصحابها على ورق البردي، من مثل بردية هيرست Hearst، وإيبر Eber وبردية محفوظة في متحف موسكو. كما ظهرت مؤلفات رياضية، من مثل بردية ريند Rhind وبردية في موسكو، وقوائم تشتمل على تسميات جغرافية، وأخرى تتصل بعلم التشريح، والتقنيات الهندسية، وعلم الحيوان، وعلم النبات، وأسماء المهن والحرف.

وشهدت مصر في عصر الدولة الوسطى تطوراً للأساليب الفنية تميز بوجود مدرستين فنيتين، واحدة في منف رجعت بتقاليدها الفنية إلى تراث الدولة القديمة وخلطت الواقعية بالمثالية في النحت، وواحدة في طيبة استحبت الأسلوب الواقعي، واهتمت بتعبير الوجوه، وحاولت أن توحي من خلالها بطبع أصحاب التماثيل وشخصيتهم(٢٦). وعبرت رسوم المقابر عن نشاط رياضي لم تكن تشير إليه رسوم القرون الماضية، دلالة على رخاء العصر وتنوع اهتمامات أهله في الدنيا، وإن لم تغب مناظر التعبد والخشوع أمام الأرباب من رسومهم وتماثيلهم.

ووصلت اللغة المصرية في عصر الدولة الوسطى إلى درجة من الكمال جعلت الأدباء المصريين القدماء من بَعْدُ يقلدون أسلوبها التعبيري، وينسجون على منوالها. وشهد العصر أجمل ما خلف الأدب المصري من مؤلفات، وتبرز من بينها قصة سنوحي التي ما زالت تعتبر بعد مضي أربعة آلاف سنة عليها «واحدة من روائع الأدب العالمي» (٢٤). وثمة قصص أخرى تذكرنا بقصص «ألف ليلة وليلة» ومغامرات أبطالها الخيالية، مثل قصة «نجاة الملاح»، وقصة «بردية فستكار» Westcar الأسطورية. وقد روينا أهم أحداث قصة سنوحي عند الحديث عن عهد سنوسرت الأول. أما «نجاة الملاح» فهي قصة رجل كلف بمهمة في أقاصي بلاد النوبة، فلم يكتب له النجاح في تنفيذها. وكان متضايقاً لذلك، ولكن أحد الملاحين المخلصين له سرّى عنه همومه وحكى له قصته التي لقي فيها الأهوال، وتعرف بعدها على ثعبان عجيب جسمه مغشىٰ بالذهب، وطوله ثلاثون ذراعاً، ويزيد عرضه على المترين، في جزيرة غير آهلة، ولكنها موفورة الخيرات من فواكه وطيور وأسماك. وبعد أن هدّأ الثعبان من روعه، منّاه بسلامة العودة إلى بلاده، وحكى له قصته المأساوية التي تزيد ببلائها عن بلوى الملاح، إذ نكب بأهله جميعاً الذين كانوا يعيشون معه في الجزيرة الجميلة عندما هوى نجم من السماء فأحرقهم جميعاً، وتنبأ

---

(٢٦) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ١٩١.
(٢٧) Vercoutter, FW, 2, 342.

لـه بقـدوم سفينـة مصريـة بعـد أربعـة أشهـر تقله إلى أهله. وتحقق حلم الملاح ونجا، كما بشره الثعبان، وعـاد إلى بلده محملاً بكميـات هائلة من المـر والتوابل والبخور والعاج وذيول الزرافـات، زوده بها الثعبـان الذي أخـبره أنه سيد بلاد البونت، وأن الجزيرة ستزول ويبتلعها البحر بعد مغادرته لها. وختم حديثه: بأن لكل مشكلة مخرجاً، وأنه على الإنسان أن يتفاءل ويعرف أن لكل مصيبة ما هو أشد منها، فعليه أن لا يعدم الأمل في النجاة من مصيبته[٢٨].

(٢٨) لمزيد من التفـاصيل: سليم حسن، الأدب المصري القـديم، القاهـرة ١٩٤٥، ص ٥٠ ـ ٥٤.

الفصل الخامس
عصر الانتقال الثاني

(أو عصر اللامركزية الثاني)
(من ١٧٨٦ق.م. إلى حوالى عام ١٥٦٧ق.م)

لم يعرف تاريخ مصر القديم حقبة من الزمن غامضة كتلك الحقبة التي تلت عصر الأسرة الثانية عشرة، بعد موت الملكة سوبك نفرو حوالى عام ١٧٨٦ق.م، وبداية حكم الأسرة الثامنة عشرة حوالى عام ١٥٦٧ق.م، وهي الحقبة التي تُعْرَف باسم «عصر الانتقال الثاني» تشبيهاً له بما يسمى «عصر الانتقال الأول» الذي يفصل بين عصر الدولة القديمة وعصر الدولة الوسطى.

فقد تعاقب على حكم مصر بعد انتهاء عصر الأسرة الثانية عشرة ملوك لم تستطع المصادر التقليدية القديمة أن تنسبهم إلى بيت معين، واتخذ بعضهم مدينة طيبة عاصمة له، وجعل بعضهم مدينة اثت تاوي عاصمة له، واستحب بعضهم مدينة سخا غربي الدلتا عاصمة له وحمل بعضهم أسماء تشبه أسماء ملوك الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة، مثل: إنتف، وأمنمحات، ومونتو حوتب، وسنوسرت، ليصبغوا على أنفسهم شرعية الحكم، ويوهموا من حولهم بانتسابهم إلى ملوك الدولة الوسطى. واختلف المؤرخ المصري مانيتون مع المصادر الأخرى التي تذكر أسماء عدد من ملوك العصر حول المدة التي استغرقها حكم أولئك الملوك الذين يقدر أنهم كانوا يعدون ٢١٧ ملكاً، وأن حكمهم بلغ ١٥٩٠ سنة من دون أن يذكر أسماءهم. بينما تقدم بردية تورين أسماء ١٢٣ ملكاً وتسكت عن أسماء الآخرين. أما قائمة الكرنك فتسمي ثلاثين ملكاً منهم، بينما لا تشير قائمتا ملوك سقارة وأبيدوس إلى العصر، بل وتتجاهلانه تماماً. ولا يتبقى أمام المؤرخ من سبيل لاستنباط حوادث العصر والتعرف على أسماء حكامه سوى

الآثار التي تعود إلى ذلك العصر، ولكن هذه كانت أيضاً قليلة، وإن ظهرت فهي قليلة الفائدة. ولا يبقى في هذه الحال من سبيل للحصول على معلومات متواضعة عن العصر سوى جمع أخبار تلك المصادر المتوافرة جميعها، والخروج منها بصورة تقريبية عن تاريخ العصر. وثمة أمر واضح وهو أن عصر الانتقال الثاني استغرق ٢٢٠ عاماً، لأن تاريخ موت الملكة سوبك نفرو آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة كان في عام ١٧٨٦، وعام جلوس الملك أحمس الأول، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة، على العرش كان في عام ١٥٦٧ ق.م. والأمر المؤكد الثاني هو اضطراب الأوضاع السياسية، وتردّي الأحوال الاقتصادية نتيجة لضياع المركزية وكثرة الحكام الذين لم يهنأ بعضهم بالحكم سوى سنوات قليلة، أو شهور عدة، بل لمدة أسابيع ربما، قياساً على عدد الملوك الذين لم يقل عددهم عن المائتين في أقل تقدير. أما الأمر المؤكد الثالث فهو يتصل بعدد الأسرات الحاكمة الذي بلغ خمس أسرات، من الثالثة عشرة إلى نهاية الأسرة السابعة عشرة، كما يتعلق بصلة تلك الأسرات مع بعضها، وهي صلات يصعب إيجادها، على الرغم من معاصرة بعض منها للآخر، كما سنرى. والأمر الواضح الرابع هو حكم الهكسوس الذي استمر حوالى قرن وبضع سنوات. ونستطيع أن نتبين من خلال تقاطع المعلومات المستخلصة من المصادر القديمة التي ذكرناها ثلاث فترات تاريخية يحددها ظهور الهكسوس في مصر، هي:

- الفترة الواقعة ما قبل الهكسوس، وهي الفترة التاريخية التي كانت السلطة فيها بيد الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ١٧٨٦ ـ ١٦٠٣ق.م.
- فترة الهكسوس التي حكم فيها هؤلاء وكونوا الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ١٦٧٤ ـ ١٥٦٧ق.م.
- فترة حكم الأسرة السابعة عشرة في طيبة وإخراج الهكسوس من مصر، واستغرقت المدة الواقعة من ١٦٥٠ إلى ١٥٦٧ ق.م.

ولكن هذا التقسيم لا يعني أن الفترات محدودة بزمنها المذكور، ومنفصلة عن الفترات الأخرى، بل ثمة تداخل بينها، إذ تسرب الهكسوس

إلى مصر في أثناء حكم الأسرة الثالثة عشرة قبل أن تظهر عملية غزوهم للعيان من بَعْدُ، كما أن عملية طردهم استغرقت مدة من الزمن وبدأت منذ زمن الأسرة السادسة عشرة المعاصرة للأسرة الخامسة عشرة، واستمرت في زمن الأسرة السابعة عشرة، وانتهت في عهد آخر ملوك هذه الأسرة.

١ ـ مصر في زمن ما قبل الهكسوس

(الأسرة الثالثة عشرة والأسرة الرابعة عشرة):

انتقل الحكم من الأسرة الثانية عشرة إلى الأسرة الثالثة عشرة بوسيلة غامضة، وتولاه ملك كان يحمل اسم سوبك حوتب الأول الذي يحتمل أن يكون على صلة قرابة ما بعيدة عن طريق المصاهرة بالفراعنة الأخيرين من الأسرة السابقة. ودام حكم هذه الأسرة حوالى قرن ونصف القرن (١٧٨٦ ـ ١٦٣٣)، تولاه ٥٠ ـ ٦٠ ملكاً على أقل تقدير استناداً إلى ما جاء في بردية تورين وقائمة الكرنك، وكان حكم بعضهم لا يتجاوز بضعة أسابيع، كما نوهنا، أو بضعة أشهر، وربما امتد جلوس أحدهم على العرش بضعة أعوام، حتى يبلغ ٢٣ عاماً، كما يتبين من آثار الملوك القليلة ومن بردية تورين نفسها التي تشير إلى أن بعضهم تراوح حكمه ما بين ٣ سنوات، و٤، و٧، و٨، و١٠ سنوات، فلا يتبقى في هذه الحال للملوك الآخرين سوى بضعة أشهر أو أسابيع لممارسة الحكم العابر، ولن يكون حكمهم في هذه الظروف المتغيرة إلا حكماً متقلباً لا يعرف الاستقرار، ولا يتبع سياسة محددة، بل يخلق المناخ الملائم لانتشار الفوضى الإدارية والسياسية، وشيوع الفساد الحكومي، وضياع الأمان، وتخريب الاقتصاد. ولكن هذه الأحوال السيئة لم تظهر إلا في النصف الثاني من عصر هذه الأسرة. فقد احتفظت مصر بوحدة أراضيها، وبسيادتها على كل المناطق التي كانت تخضع لحكم الأسرة الثانية عشرة، وبقيت بلاد النوبة تابعة للحكم المصري حتى منطقة سِمْنه في النوبة العليا حيث يظهر اسم الملك سوبك حوتب منقوشاً على الصخر إلى جانب اسم الملك أمنمحات الثالث. كما تؤكد آثار خليفته سنبوف التي عثر عليها في مصر السفلى ومصر العليا استمرار وحدة مصر تحت سيادة ملك واحد، ولكن الحكم المصري

بـدأت قوتـه بالتقلص في المنـاطق الجنوبيـة النائيـة شيئاً فشيئـاً إذ تـراجـع إلى أسكوت على بعد ثلاثين كيلو متراً إلى الشمال من الحدود التي ثبتهـا سنوسرت الثـالث، حيث نقش اسم الملك. ثم لم يلبث الحكم في عهـود الملوك الـذين تعاقبوا من بعد أن أصبح اسمياً على الرغم من استمرار وحدة البلاد. وتؤكـد آثـار بعضهم بصورة قـاطعة أصلهم غـير الملكي، مما يعني أن مفهـوم الأسرة الملكيـة التي يتولى أفـرادها الـواحد بعـد الآخر الحكم لا ينـطبق عـلى الأسرة الثـالثة عشرة، إذ لم تلعب الـوراثـة بـين أولئـك الملوك دوراً في الـوصـول إلى الحكم. فقـد تولى العـرش رجل من خـاصة الشعب يـدعى نفرحـوتب (خع سخم رع) حـوالى عشر سنوات (١٧٤٠ ـ ١٧٣٠ق.م)[١]، كـما يستنتـج من آثاره التي عثر عليها في أماكن عدة من البلاد، من بينها نقش طويل وتمثال في أسوان، ونصوص مخطوطة في أونو وفي ابيدوس، وعلى نصب له في جبيل[٢]، يستدل منه على استمرار العلاقات المصرية الفينيقية في عهـده، كما يستخلص منه أن منطقة الدلتـا كانت تحت سيـطرته ولم يصـل المتسللون الأسيويون بعد إلى انتزاعها من أيدي ملوك الأسرة الثالثة عشرة

وثمة أمر آخر غير وحدة البلاد الصـامدة في وجـه التحديـات الداخليـة والخارجية بقي من عصر الدولة الـوسطى وهـو استمرار المـوظفين بـأداء المهام والواجبات، كأعمال تعداد السكان، وإحصاءات المواشي والممتلكات العقاريـة التي كانت تجري في الإدارات المحليـة والإقليمية، كما يتضح من المحفـوظات الملكية التي لم يتوقف موظفوها عن تسجيل نشاطات الدولة وفعالياتها العاديـة. ويتضـح من إحدى الـبرديات التي يعود زمنها إلى عهـد الملك سوبـك حوتب الثـالث (وهي محفوظـة الآن في متحف بـروكلين) أن عـدداً كبيـراً من الخـدم الأسيويين كان تحت تصرف الموظفين الحكوميين[٣]، وهذا أمر لافت وله دلالة واضحـة على الأحـداث المقبلة التي تعرضت لها مصر وحملت إليها جمـاعـات

---

(١) Vercoutter, FW, 2, 349.

(٢) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ٢٠٢.

(٣) W. C., Hayes, The Decline and Fall of the M.K., in: CAH, I (1973) p. 49.

الهكسوس الغازية. ويبدو أن استمرار الأعمال الحكومية الروتينية كان له صلة بشخص الوزير الذي كان يبقى في منصبه مدة أطول من المدة التي يجلس فيها الملك على العرش، فيحتفظ بالإشراف على الإدارة في عهود أكثر من ملك، كما يظهر من تولي رجل يدعى أنخو منصب الوزير من عهد الملك المسمى خنجر إلى عهد الملك سوبك حوتب الثالث. فطال عهده بالمنصب، واحتفظ به طوال عهود أربعة من الملوك على الأقل.

ولم تلبث أوضاع مصر أن ازدادت سوءاً بتعاقب الملوك السريع على العرش بعد عهد نفرحوتب الأول. وما إن خلفه الملك سيهاتور وسوبك حوتب الرابع حتى بدأ حكم الأسرة الثالثة عشرة في التردي في ضعف شل قواها، ومكّن الهكسوس من دخول مصر زمن سوبك حوتب الرابع الذي كان قد وصل لتوه إلى العرش.

وتعتبر «نصوص اللعنات» التي تعود في تاريخها إلى أواخر أيام الأسرة الثانية عشرة شاهداً على الأوضاع السائدة في البلاد، إذ تذكر الأعداء الذين كانوا يتربصون بمصر، وتشير إلى مصدر الأخطار التي تحيق بمصر وتنذر بوقوع الكارثة. وهي دعوات كتبها الكهنة بالمداد الأحمر على أوانٍ من الفخار الأحمر، وتماثيل صغيرة من الصلصال تمثل أعداء مصر، يفترض أن يجمعها الكهنة ويتلوا عليها قراءات سحرية ويصبوا عليها اللعنات، ثم يحطموها في حفل خاص، أملاً في أن يؤدي تحطيمها إلى تحطيم عزائم المذكورين عليها، وينفي عن مصر خطرهم ويقيها من شر أعمالهم ونواياهم. وتذكر هذه النصوص أفراداً من القصر الملكي، وعدداً من حكام النوبة، ونفراً من شيوخ الصحراء الغربية أو الليبية، وعدداً من شيوخ القبائل والمدن في جنوبي سورية(٤).

---

(٤) Sethe, Die Áchtung feindlicher Fursten, 1926;
عبد العزيز صالح، المصدر السابق ٢٠٤؛ جان يويوت، مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٩٩؛ جون ولسون، الحضارة المصرية، ترجمة أحمد فخري، القاهرة ١٩٥١، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣؛ عبد القادر خليل عبد المنعم، علاقات مصر بشرق المتوسط.
=

ويؤكد ذكر هؤلاء الأعداء أن الأخطار التي كانت تهدد مصر كانت داخلية المصدر، وحتى في البلاط الملكي، كما كانت خارجية من حدود مصر نفسها، من الجنوب، ومن الغرب، ولكن أقواها كانت في الشمال الشرقي حيث كان الآسيويون يتسربون عبر شبه جزيرة سيناء إلى مناطق الدلتا كلما سمحت لهم الظروف ومنذ أيام ملوك الأسرة الثانية عشرة الأخيرين.

احتفظ الملوك في عصر الأسرة الثالثة عشرة بمدينة إثت تاوي عاصمة لهم، ويبدو أن معظمهم يعود أصله إلى مدينة طيبة، كما أسلفنا من ذكر بعض من أسمائهم، من مثل: إنتف، وسونتسوحوتب، وأمنمحات، وسنوسرت، على الرغم من كثرة من تسمى منهم باسم سوبك حوتب. وقد استغل أمراء منطقة سخا ضعف ملوك الأسرة الثالثة عشرة، فاستقلوا بإقليمهم الواقع في غربي الدلتا، واتخذوا حاضرته سخا عاصمة لحكمهم، وأقاموا بذلك أسرة حاكمة معاصرة للأسرة الثالثة عشرة يطلق عليها اسم الأسرة الرابعة عشرة. ويذكر مانيتون أن عدد ملوك هذه الأسرة وصل إلى ٧٦ ملكاً، وأن حكمهم طال مدة ١٨٤ سنة، وتسمي بردية تورين ٢١ ملكاً منهم. ولكن حكم هذه الأسرة سقط بعد نهاية الأسرة الثالثة عشرة بمدة قصيرة(٥).

٢ - مصر في زمن الهكسوس
(الأسرة الخامسة عشرة والأسرة السادسة عشرة):

نقل المؤرخ اليهودي يوسفوس عن المؤرخ المصري مانيتون صورة لدخول الغرباء إلى مصر في عهد ملك سماه توتيمايوس، فقال: «لقد وفد علينا من دون توقع أناس من الشرق، مجهولو الجنس، وكانت لديهم الشجاعة لغزو بلادنا، فاحتلوها عنوة، من دون صعوبة، ومن دون قتال. يدعى أولئك (الغزاة) جميعهم هكسوس، بمعنى (ملوك الرعاة)، إذ تعني (هيك) في اللغة

= B. Maisler, Palestine at the Time of the M.K. in Egypt, in: Revue d'Histoire Juive en Egypte, I, 1947.

(٥) FW, 2, S.350.

المقدسة (ملوك)، وتعني (سوس) في لغة العامة (رعـاة). وعند جمـع الكلمتين معاً يصبح اللفظ (هكسوس)»[٦].

والهكسوس عند المصريين تسمية ظهرت في عصر الدولة القديمـة للتعبير عن «زعـماء القبائـل البدويـة» التي كـانت تتجـول في صحـارى النـوبـة، كـما استخدمت منذ عصر الأسرة الثانية عشرة للإشارة إلى «زعماء القبائل البدويـة» التي كـانت تجوب منـاطق الباديـة السوريـة ـ الفلسطينيـة، وقد مـر بنـا لـدى الحديث عن قصة سنوحي أنه اشترك في صد جماعات يـدعى رؤساؤهم «حقـا خاسوت»، عندما كان في سورية. فأصل التسمية في اللغـة المصرية هـو «حقا خاسوت»، وتتألف من عبارتين: (حقا)، وتعني «زعيم، حـاكم» و(خاسـوت) التي تعني «الغـرباء، الأجـانب»[٧]، وقـد تعني «الـبراري»، وقـد حـوّر بعض المؤرخين الإغريق ومن أتى بعدهم التسمية المصرية حقا خاسوت إلى هكسوس Hyksos، التي فهمهـا مـانيتـون بمعنى «ملوك الـرعـاة» وهي تعني في الأصـل «حكام الأجانب، أو حكـام البراري»[٨]. فـالهكسوس تسميـة خاصـة لزعـماء الآسيويين وشيوخهم الذين غـزوا مصر، وليست دلالة عـلى جنس، أو شعب محدد، وقد أراد المصريون أن يعبّروا بها عن صفات البربرية والقبلية، وقصدوا بها الأجانب، كما كانوا يشيرون إلى كل الآسيويـين الذين يجـاورنوهم من دون تمييز لأجناسهم وانتماءاتهم القومية، باسم عامو، أو ستيتيـو، أو ناس ريتنـو. ولقـد كان مـانيتون محقـاً إذ لم يحدد هـوية الهكسـوس، فهم مجهـولـو الأصـل والجنسية، ولكنهم قدمـوا عبر شبـه جزيـرة سيناء إلى منـطقة الـدلتا وفي نيتهم الاستيـلاء عليها والاستقـرار فيها، ومن المؤكـد أنهم جـاؤوا من سـوريـة التي

---

(٦) FW, 2, S. 350f.

(٧) F.W, 2., S. 351; Hayes, The Hyksos Infiltrations and the Founding of the Filteenth Dynasty, in: CAH 11 Part I, p. 54 - 55.

(٨) عبد العزيز صالـح، المصدر السـابق، ص ٢٠٥. أما المؤرخ يـوسفوس فقـد ترجم تسمية الهكسوس بعبـارة «الأسرى الرعـاة»، وكان غـرضه أن يجـد صلة بينهم وبين العـبرانيين الـذين يدعي أنهم دخلوا مصر معهم، فـافترض أن النبي يوسف دخـل مصر أيامهم، ثم خرج العبرانيون مع الهكسـوس عندما غادروها مكرهين.

كانت آنئذ مسرحاً لهجرات شعوبية كبيرة وفدت إليها من الشرق والشمال، حيث بدأ الوافدون الجدد وهم من الآريين يتخذون من سورية دار إقامة دائمة، ووطناً يستقرون فيه بأعداد كبيرة، وينافسون سكانها من الأموريين والكنعانيين الساميين. وكان الحوريون يمثلون المهاجرين الجدد الذين تسللوا سلمياً إلى بلاد الرافدين وسورية، حيث انتشروا في المناطق الواقعة بين آشور في الشرق وسواحل البحر الأبيض المتوسط في الغرب(٩). وقد تسبب ذلك الانتشار الواسع في شمالي سورية، ووسطها والشمال الغربي منها، في نشوء ضغط سكاني على أهل البلاد من الأموريين والكنعانيين، فتخلت جماعات من هؤلاء عن أملاكها وبيوتها، وغادرت مناطق سكناها، ولم تجد سبيلاً سالكاً غير السبيل المؤدي إلى شبه جزيرة سيناء ومنها إلى الدلتا في مصر. فشمال شبه الجزيرة العربية لم يكن ليغريها على اقتحام صحراواتها الجدباء، بينما كانت الدلتا الخضراء، ومياهها الوافرة، وحضارة أهلها، تشكل عوامل جذابة لأولئك الباحثين عن موطن جديد يتابعون فيه حياتهم، أو يبدأون فيه مرحلة جديدة تعوضهم ما خسروه وراءهم. ولعل أشقاءهم من الأموريين والكنعانيين الذي سبقوهم إلى الدلتا ووادي النيل، وتسللوا من قبل إلى مصر بحثاً عن مصدر رزق، وأقاموا فيها منذ عصر الأسرة الثانية عشرة، وصلوها نتيجة لسياسة الود والتعايش السلمي منذ زمن سنوسرت الثاني الذي زار في عهده وفد الشيخ أبشا مع مجموعته المؤلفة من ٣٧ فرداً من شباب وشيوخ ونساء وأطفال حاكم إقليم الوعل في مصر الوسطى، كما مر بنا، لعل أولئك الأموريين أو الكنعانيين كانوا قد حدثوهم عن مصر وخيراتها، كما يسروا لهم سبيل الغزو لمعرفتهم الطرق والبلد وأحوال أهله، واضطراب الحكم، بل وغيابه في أواخر عصر الأسرة الثالثة عشرة.

ورافق الأموريين والكنعانيين الساميين جماعات من الوافدين الآريين في توجههم إلى مصر. فصار الهكسوس خليطاً، يشكل الساميون الأغلبية فيه حين بدأوا تسللهم إلى مصر بأعداد كثيفة في نهاية عهد الملك سوبك حوتب

(٩) انظر كتابنا: تاريخ الشرق القديم (١)، سورية، ص ١١٦ ـ ١١٧.

الرابع، أي في الأعوام الواقعة بين ١٧٢٠ أو ١٧٠٠ق.م، ثم بلغ تدفقهم قمته عندما استولوا على مدينة أواريس[١٠] شمال شرقي الدلتا في هذا الوقت. ويبدو أن دخول الهكسوس إلى مصر لم يتم عنوة، كما يقول مانيتون، ولم يتخذ طابع الوحشية. «فهم (لم) يحرقوا المدن، ويسووا معابد الأرباب بالأرض، (ولم) يعاملوا المواطنين بخشونة وفظاظة، ويذبحوا بعضهم ويسترقوا نساء بعض آخر وأطفالهم».

لم يلق الهكسوس مقاومة تذكر من المصريين، فقد كانت قوى البلاد متفرقة بين حكام الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، وكانت إمكانات البلاد المادية قاصرة عن تمويل جيش ينهض بعبء الدفاع عن البلاد، ومعنويات المواطنين ضعيفة مما حل بالبلاد من تنازع بين المتطلعين إلى السلطة. وزاد من ضعف المقاومة ما رأى المصريون من أسلحة الهكسوس الجديدة المذهلة ما لم يعرفوه قبلاً، من أسلحة برونزية، وعربات حربية تجرها الخيول التي كان لها من الأثر ما للمصفحات العصرية في تمزيق صفوف المشاة، ودروع تكسب مقاتليهم المناعة والأمان، والأقواس الكبيرة المركبة المصنوعة من الخشب الصلب، ومن أوتار شديدة[١١]، والتي تفوق بقوة رميها والمدى الذي تصل إليه ما كانت الأقواس المصرية تعرفه، وأخيراً الخيول وفرسانها الذين يشكلون قوة ضاربة سريعة الحركة والالتفاف والمناورة. فوصل الهكسوس إلى المناطق الشرقية من الدلتا «واستولوا عليها بسهولة»، كما قال مانيتون، ولم يحاولوا احتلال المناطق الغربية منها حيث كانت تخضع لحكم الأسرة الرابعة عشرة.

---

(١٠) يعتبر تاريخ هذا الحدث الهام مؤكداً لارتباطه باحتفال جرى في عام ١٣٢٠ق.م. بمناسبة مرور أربعمئة سنة على إعادة بناء معبد الإله المصري سوتخ أوست في مدينة أواريس، الإله الذي اتخذه الهكسوس إلهاً رئيساً لهم والذي ربطوا بينه وبين معبودهم السامي (بعل أورشف)، في عهد الملك حورمحب في عصر الأسرة الثامنة عشرة، كما يذكر رعمسيس الثاني في اللوحة التذكارية التي أقامها في أواريس. انظر: FW, 2, S.352.

(١١) جون ولسن، الحضارة المصرية، ص ٢٧٢.

واتخذوا مدينة أواريس الواقعة على ضفة الفرع التانيسي القديم، شرقي الدلتا، عاصمة لهم ومركزاً رئيساً لقواتهم، وهي مدينة قديمة كانت تسمى في المصرية حة وعرة، واحتفظ المكان باسم هوارة الذي يذكر بها الآن. وبقوا هناك حوالى ستة وعشرين عاماً قضوها في استيطان مناطق الدلتا الشرقية، وفي تنظيم صفوفهم، ثم تحركت قواتهم باتجاه الجنوب إلى منف (ممفيس) فاستولوا عليها، وشعر زعماؤهم حينئذ بأنهم أصبحوا حكام مصر الشرعيين، وبدأ بذلك حكم الأسرة الخامسة عشرة، وكان أن تسلم الحكم زعيم قوي اسمه ساليتيس، كما يذكر مانيتون، إذ يقول:

«وأخيراً عين الهكسوس واحداً منهم اسمه ساليتيس ملكاً عليهم. فاتخذ (هذا) مدينة منف مقراً لحكمه، وفرض الجزى على مصر العليا وعلى مصر السفلى. وكان يخلف وراءه دائماً حاميات عسكرية في المناطق الاستراتيجية. وقام كذلك بتحصين الحدود الشرقية (من مصر) تحسباً من أن يصبح الآشوريون في وضع قوي يحملهم على الطمع بهذه المملكة في يوم من الأيام فيهاجمونها. كما قام بتأسيس المدينة المعروفة أواريس من جديد وإعادة عمرانها، وحصنها بجدران سميكة، وزودها بحامية قوية بلغ عدد أفرادها مائتي ألف رجل مدجج بالسلاح لحماية حدودها. وكان يعود إليها في الصيف ليوزع الحصص التموينية على القوات وليدفع المرتبات للجنود من جهة، ولكي يدرّبهم على القتال ويقوم بالمناورات العسكرية من جهة أخرى فيرهب بهم القبائل الأجنبية (التي قد تفكر في الانقلاب عليه). ثم مات ساليتيس بعد أن حكم تسعة عشر عاماً، وخلفه ملك ثان يدعى بْنون، طال حكمه أربعة وأربعين عاماً»[١٢].

وعندما بدأ ملوك الأسرة الخامسة عشرة (الهكسوس) توسعهم باتجاه الجنوب كانت أواريس تشكل مركز تجمع قواتهم الرئيس، وبقيت كذلك حتى آخر أيامهم في مصر. وتمكن ملوكهم من فرض هيمنتهم على الأراضي

---

(١٢) W. C. Hayes, in: CAH, III p. 1; FW, 2, S. 352.

المصرية بكاملها من بعد، من منطقة طيبة في الجنوب وما يلحق بها جنوباً إلى الدلتا في الشمال؛ ويحتمل أن يكون نفوذهم قد وصل إلى الشلال الأول، حيث تبدأ حدود مملكة كوش التي كانت من قبل تحت السيطرة المصرية وحتى نهاية عصر الأسرة الثالثة عشرة التي احتفظت بالمناطق الواقعة بين بوهن وسمنة تحت سيادة ملوكها، وكانت قواتها تتجمع في الحصون المنتشرة هناك، وهي الحصون التي أنشأها سنوسرت الأول، ثم زادها منعة وقوة سنوسرت الثالث، كما مر بنا سابقاً. وعندما بدأت معركة تحرير مصر من الهكسوس في عهد الملك سقننرع، والد كامس وأحمس الأول، كانت مملكة كوش تتمتع باستقلالها الكامل، وكانت على صلات طيبة مع ملوك الهكسوس.

وخلف ساليتيس ملك يدعى يعقوب هر، وهو اسم سامي (أموري/كنعاني) صرف، وسماه مانيتون بنون. ثم جاء بعده الملك خيان الذي بقي في الحكم حوالى خمسين سنة، كما يقول مانيتون، وقد تم العثور على آثار له في مناطق عدة من مصر نفسها، في جنوبي طيبة في الصعيد، وفي المناطق الممتدة إلى الشمال حتى بوبسطة شرقي الدلتا، كما تم الكشف عن آثار باسمه في خارج مصر، في مدينة كنوسوس حاضرة جزيرة كريت حيث عثر على غطاء آنية من الرخام يحمل اسمه ولقبه الكامل «الإله الطيب، سوسرنرع، ابن رع، خيان». كما عثر على تمثال صغير لأسد من الغرانيت عليه اسمه في مدينة بغداد. وقد أغرت هذه الاكتشافات بعض الباحثين على الاعتقاد بأن الملك خيان كان يسيطر على مملكة مترامية الأطراف تشتمل على الشرق الأدنى كله(١٣). ولكن من الواضح أن علاقات مصر التجارية في عصر الهكسوس، وفي عهد هذا الملك بالذات، عادت إلى نشاطها، ووصلت البضائع المصرية، وهدايا الملوك إلى بقع كثيرة من الدول المجاورة، ومنها كريت، وآسية الصغرى، وسورية، وبلاد الرافدين. كما تشير هذه الاكتشافات الأثرية، ويؤكد لقبه الحوري الذي كان يسبق اسمه على عادة الفراعنة المصريين وهو

---

(١٣) FW, 2, S. 354; catalogue of the British Museum, No. 987; A. Evans, The Palace of Minos, I, 419, Fig. 304b.

«موحد الأراضي» إلى أن مصر بكاملها كانت تخضع بالفعل لسيادته، وأنه كان من أهم ملوك الهكسوس. ويبدو أن علاقاته في الجنوب مع بلاد النوبة لم تكن تتصف بالحيوية والنشاط اللذين اتصفت بهما مع فلسطين وبلاد الشرق الأدنى الأخرى، كما رأينا؛ ويبدو أن النوبة السفلى شهدت في عهده قيام مملكة نوبية تدعى كوش امتدت أراضيها بين إلفانتين (قرب أسوان) إلى سمنه، فعطل قيامها اتصال مملكة كرما الإفريقية بالهكسوس، وحال دون الاتصالات التجارية النشطة.

ثم خلف الملك خيان، واسمه سامي صرف أيضاً كسلفه يعقوب هر، ملك يدعى عاو سر رع أبو فيس (وفي المصرية إببي)، حكم مدة من الزمن وصلت إلى أربعين عاماً، كما تذكر بردية تورين. ثم بدأت العلاقات بين الهكسوس وبين حكام طيبة تتدهور في السنوات الأخيرة من حكم هذا الملك، وتتحول إلى عداء سافر بين الطرفين. فقد تولى حكم طيبة آنئذ حاكم يدعى سقننرع، من الأسرة السابعة عشرة، كما يذكر نص أدبي يصور بداية العداوة، إذ يقول: «كان سقننرع حاكماً على مدينة الجنوب (= طيبة)، بينما كان الحاكم في أواريس أبوفيس الذي كان يتقاضى الجزية من كل أقاليم مصر». فطلب الملك أبوفيس من سقننرع التدخل لإسكات «أفراس النيل» في البحيرة الشرقية بطيبة لأن ضجيجها يحرمه النوم في نهاره وليله، وأصواتها تطن في مسامع مدينته. ويتضح من هذا الطلب الاستفزازي قلق ملك الهكسوس وانزعاجه من حاكم طيبة الذي كان يبيّت أمر الانفصال عن دولة الهكسوس ويعد العدة للتصدي لهم بعد أن وسّع حدود نفوذه باتجاه الشمال، ووصل إلى أبيدوس، واعتبر نفسه الخليفة الشرعي لملوك الدولة الوسطى. فمن أين لملك الهكسوس المقيم في أواريس أن يسمع صوت أفراس النهر في طيبة وهي تبعد حوالى ٨٠٠كم؟ إلا إذا كان يقصد الاستهزاء، ومن ورائه استفزاز حاكم طيبة، وجره إلى المواجهة المباشرة. وقد عبرت عن هذه النية السيئة مشورة كتبة «أبوفيس» وحكمائه بقولهم: «... لسوف نرى إذاً قدرة ربه الذي يحتمي به، وهو الذي لا يعتمد على إله غير آمون رع ملك الأرباب». كما يبدو من هذه الفقرة من النص المذكور أن الهكسوس كانوا يغضون من شأن معبود

أهل طيبة الرئيس آمون رع، ويتعصبون لمعبودهم سوتخ (أو ست) الذي بنوا له معبداً عظيماً في عاصمتهم أواريس. ويبدو أن رد سقننرع على طلب «أبوفيس» كان يتصف بالاستهجان والرفض التام بعد أن اطمأن إلى موقف أتباعه وإخلاصهم في الوقوف إلى جانبه في المعركة السافرة المرتقبة بينه وبين ملك الهكسوس. كما يبدو أن سقننرع سقط قتيلاً في معاركه المتوالية ضد الهكسوس، كما تنبىء آثار الجروح العميقة في رأسه وجسمه التي تم اكتشافها في موميائه في منطقة الدير البحري، غربي طيبة، ثم تم نقلها إلى المتحف المصري. ولكن المعارك التي بدأت في عهد أبوفيس الأخير وعهد معاصره سقننرع استغرقت زمناً بعدهما، خلف فيه أبوفيس ملكان من الهكسوس لم يتمكنا من الاحتفاظ بنفوذ الهكسوس السابق على عهد أبوفيس، لأن هذا الأخير كان قد بدأ في التخلي شيئاً فشيئاً عن مناطق كثيرة في مصر الوسطى تحت ضغط الطيبيين، ونتيجة لانتصاراتهم وإصرارهم على تحرير بلدهم، حتى وصلوا إلى جنوب الفيوم، وبدأوا في عهد خليفتي أبوفيس التوغل في مناطق نفوذ الهكسوس الأساسية، وتنفيذ الغارات الناجحة عليها.

بلغ عدد ملوك الهكسوس من الأسرة الخامسة عشرة ستة أطلق عليهم اسم «الهكسوس الكبار» وكان يعاصرهم عدد من الملوك الأجانب الذين كانوا، على ما يبدو، يحكمون في الوقت ذاته في مناطق محدودة المساحة، وهم ملوك الأسرة السادسة عشرة، ويطلق عليهم اسم «الهكسوس الصغار». ولما كان هؤلاء حكاماً محليين فإن آثارهم أقل بكثير من آثار الهكسوس الكبار، وعرف من أسمائهم ثلاثة، كان واحد منهم يحمل اسماً سامياً هو عنات هر، يتضمن اسم المعبودة الكنعانية المعروفة عنات؛ وقد عثر لأحدهم على خنجر مصنوع من البرونز الدمشقي في منطقة سقارة.

سياسة الهكسوس الداخلية:

لم يكن الهكسوس جنساً أو شعباً معروفاً في منطقة الشرق الأدنى القديم، بل كانوا خليطاً من أجناس متعددة، يشكل فيه الساميون من سورية خصوصاً النسبة العظمى، كما يتبين من أسماء ملوكهم التي تم التعرف عليها

من آثارهم القليلة، ومن مصدرين رئيسيين هما معلومات المؤرخ المصري مانيتون التي وصلتنا عن طريق المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسفوس، ومن بردية تورين. وبينما نجد مانيتون يبالغ في تقديره للمدة التي حكم فيها الهكسوس والمحنة التي انتابت مصر في زمنهم، نرى بردية تورين تحدد حكمهم كله بمائة وثماني سنوات فحسب[١٤]. وبينما يتفق الكتبة المصريون القدماء منذ عصر الأسرة الثالثة عشرة إلى عصر مانيتون على نعت عصر الهكسوس بعصر الويلات والفظائع، يشير الواقع إلى أن الهكسوس لم يكونوا غزاة همجيين، كما صورهم أولئك الكتبة، بل دخلوا مصر مسالمين في فترات مختلفة، وعلى دفعات، ومن دون أن يشكلوا تنظيمات عسكرية غزت مصر، وأرهبت المواطنين الذين لم يكونوا يملكون من الأسلحة سوى الخناجر النحاسية التي لا تقارن بأسلحة الهكسوس المتطورة. وهم عندما استخدموا أنواعاً متطورة من السيوف والخناجر البرونزية التي لم يعهدها المصريون من قبل، واستخدموا العربات الحربية والخيول، والأقواس المركبة، والدروع الواقية لأجسامهم، إنما لجأوا إليها بعدما حطوا رحالهم في الشمال، وطاب لهم العيش في الدلتا، ثم شعروا بكراهية المصريين لهم، وبنيتهم المبيتة لزعزعة حكمهم، ورفض وجودهم بينهم حكاماً أجانب آسيويين.

حاول الهكسوس أن يتمصروا حتى يتقبلهم المصريون، ولا ينظروا إليهم نظرتهم إلى الأجنبي الدخيل، فاتخذوا أسماء مصرية خالصة، مثل: سوسرنرع، وعاوسرع، إلى جانب أسمائهم الأصلية خيان، وإيبي. وتشبهوا بالفراعنة الوطنيين في تلقيب أنفسهم بألقاب الملوك المصريين المعروفة، ومنها اللقب الحوري، كما ذكرنا لدى الحديث عن الملك خيان «موحد الأراضي»، «الإله الطيب، ابن رع». وارتدوا ملابس الملوك المصريين بأزيائهم المتداولة، وتعبدوا للأرباب المصريين، وعلى رأسهم المعبود رع، كما نرى من اسمي الملكين خيان وإيبي المصريين وغيرهما من ملوك الهكسوس الذين تضمنت

(١٤) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs. Oxford 1961, p. 158f.; Stock, Studien Zur Geschichte und Archäologie der 13 bis 17 Dynastie Ägyptens 1941; FW, 2, S.354.

أسماؤهم اسم الإله رع، على الرغم من تفضيلهم عبادة الإله ست على غيره من الأرباب المصرية.

واستخدم الهكسوس اللغة المصرية وكتابتها الهيروغليفية، وظهرت أسماؤهم الملكية في الخراطيش المعهودة في الكتابات الرسمية، وعلى آثارهم.

ولما كان عدد الهكسوس قليلاً، وكانت خبرتهم في الإدارة قاصرة في بداية حكمهم، فإنهم استعانوا بالموظفين المصريين، واعتمدوا عليهم في تصريف شؤون البلاد اليومية، إلى جانب الموظفين الأجانب الأكفاء، فقد ورد اسم موظف كبير يدعى هور، وهو اسم سامي خالص، شغل منصب «رئيس الخزينة» المسؤول عن أموال الدولة بكاملها من غزة التي تشكل حدود دولة الهكسوس في الشمال (في فلسطين)، إلى كرما في الجنوب التي تقع في بلاد النوبة العليا. وتشير الوثائق العائدة إلى عصر الهكسوس إلى أن مواطناً مصرياً شغل المنصب نفسه في عهد ملك آخر. ولم يعدم الهكسوس مؤيدين لهم ومخلصين من الموظفين والمواطنين، كما لم يكونوا موضع كراهية كل المصريين، كما يصورهم الكتبة المتأخرون. فقد تزوج أحد أمراء طيبة من أميرة هكسوسية، كما يستخلص من العثور على آنية للزهور كتب عليها اسم ابنة الملك أبوفيس، وتدعى هيريت، في قبر أمنحوتب الأول(١٥).

ولم يقصر الهكسوس في بناء المعابد وصيانتها، وخلّف الفنانون في عصرهم تماثيل ورسوماً فنية، وزخارف على الجعلان والأختام، وزخارف الفخار الملون، ذات مستوى لا يقل عن مستوى مثيلاتها في عصر الدولة الوسطى، ولكنها لا ترقى إلى الأعمال الفنية الرائعة التي أنجزها فنانو ذلك العصر. كما أن قلة النماذج الفنية من عصرهم لا توحي بأنهم تركوا آثاراً ذات تأثير في تطوير فنون النحت والنقش وهندسة العمارة. ولم يقيض لفنانيهم أن يضيفوا شيئاً جديداً إلى الحياة الفنية.

وثمة عمل مشهود تم في عصر الهكسوس في حقل الأدب والتأليف

---

(١٥) FW, 2, S. 355, 358.

العلمي، وهو نسخ بعض الأعمال الهامة، ومنها: «بردية ريند» Rhind في الرياضيات التي يعود تاريخها إلى العام الثالث والثلاثين من عهد الملك أبوفيس، و«بردية وستكار» المشهورة.

وظهر في عصر الهكسوس وحدة جديدة للموازين والمقاييس، كما انتشر استخدام الخيل، وتعرف المصريون بوساطتهم على الإفادة منها في الحرب، وفي جر العربات الحربية، وتعلموا صنع الأسلحة البرونزية المتطورة.

٣ ـ مصر في فترة حكم الأسرة السابعة عشرة وطرد الهكسوس: (١٦٥٠ ـ ١٥٦٧ق. م):

توصلت الأسرة السابعة عشرة في عهد ملوكها الثلاثة الأخيرين إلى حكم طيبة حكماً مستقلاً لا تشوبه شائبة. فقد بدأ الملك سقننرع النضال المكشوف لطرد الهكسوس من مصر بعد أن استفزه ملك الهكسوس أبوفيس، وبعد أن اطمأن إلى وضع قواته السليم وقدرتها على المجابهة والتصدي إذا ما حرك الهكسوس قواتهم إلى الجنوب. وكان ملوك الأسرة السابعة عشرة الأوائل يعترفون بسلطان الهكسوس، ويعلنون تبعيتهم لهم، ولكنهم بدأوا بعد ذلك يعملون على مد نفوذهم على الأقاليم المجاورة، ويسعون إلى تهيئة المناخ اللازم للحصول على الاستقلال التام من خلال بث روح المقاومة في نفوس مواطنيهم، وحفزهم على التخلص من نير حكم الهكسوس الأجانب، وصبغ حركة النضال ضدهم بصبغة دينية مقدسة تحت راية معبودهم آمون. ووُفِّق أواخر حكام طيبة في مساعي لَمِّ شمل المواطنين حولهم، وفي توسيع مناطق نفوذهم حتى امتد من إلفانتين جنوباً إلى أبيدوس شمالاً. وما إن جاء عهد سقننرع (تاعا قن) الثاني حتى كان لقب «الملك» الذي كان حكام طيبة الأوائل يترددون في إطلاقه على أنفسهم قد غدا عادياً، وتجاوزوا ذلك إلى أن اعتبروا أنفسهم ورثة ملوك الدولة الوسطى، وكانت أسماء بعضهم لا تختلف عن أسماء أولئك الملوك من الأسرة الحادية عشرة خصوصاً، مثل إنتف، ومونتو حتب. وقد جعلتهم بردية تورين فئتين: الفئة الأولى تضم ١١ ملكاً، حكموا طيبة ٤٥ عاماً، وانتهى حكمهم حوالى عام ١٦٠٥ق.م. ويبدو أن بلاد

النوبة الشمالية استقلت في هذه الفترة التاريخية، وقامت فيها مملكة كوش التي اتخذت مدينة بوهن عاصمة لها، وكانت على صلة بمدينة كرما التي كانت مركزاً لمملكة تبدأ حدودها الشمالية عند الشلال الثاني. أما الفئة الثانية من ملوك الأسرة السابعة عشرة فضمت خمسة ملوك، وبينهم الملوك الثلاثة الأواخر محرري مصر من الهكسوس: سقننرع الثاني، وابناه كامس وأحمس. أطلق المصريون على سقننرع الثاني لقباً لازم اسمه في كثير من الوثائق وهو «الشجاع»، تقديراً منهم لدوره البطولي في تحرير مصر من الهكسوس، وإن لم يتم على يده، بل قضى وهو يناضل في سبيل طردهم من البلاد، وأثخنته الجراح في المعارك التي خاضها ضدهم، ولما يتجاوز عمره الثلاثين عاماً. ثم تولى زعامة طيبة ابنه كامس الذي تابع النضال ضد الهكسوس بعزيمة قوية، وكفاءة عالية. ويذكر عنه أنه قال يوماً في مجلس ضم كبار رجال قصره: «إنني أريد أن أعرف ما نفع قوتي إذا كان هناك حاكم في أواريس، وحاكم آخر في كوش، وأنا مقيد (بتصرفاتي) بآسيوي (هكسوسي) ونوبي، وقد سيطر كل واحد على رقعة من مصر؟ فأنا لا أستطيع أن أتجاوز (الهكسوسي) للذهاب إلى منف التي هي أرض مصرية لأنه يسيطر على الأشمونين (التي تقع في الطريق إلى منف). ما عاد أحد آمناً (على نفسه من الاعتداء).. لسوف أتصدى له وأبقر بطنه، لأنني أريد أن أحرر مصر وأن أحطم الآسيويين (الهكسوس)». ولكن الحاضرين أجابوه قائلين: «إن الكل يكنون الإخلاص للآسيويين حتى القوصية (الواقعة قرب منفلوط)... ونحن ننعم في الرقعة التي نشغلها من مصر بالأمان. إلفانتين قوية، ومصر الوسطى تحت سيطرتنا حتى القوصية. الفلاحون يزرعون الحقول ويقدمون لنا أجود المحاصيل، ومواشينا يُسْمح لها بالرعي في مستنقعات الدلتا، والشعير يرسل لتربية خنازيرنا... إن هاجمنا أحد قاومناه». فاستاء جلالته من موقفهم، وأعلن أمامهم «سوف أحارب الآسيويين (الهكسوس)، وسوف يحالفني الحظ. وقد تباكى بعضكم، ولكن البلاد (وجماهير الشعب) سوف ترحب بي، أنا الحاكم الجسور في طيبة، أنا كامس حامي حمى مصر»(١٦).

---

(١٦) يعود النص إلى السنة الثالثة من حكم كامس، وقد نقش بالهيروغليفية على أحد =

واستجاب الشعب لدعوة الملك كامس إلى تخليص مصر من الهكسوس، وتطهيرها من الموالين لهم، وكان صدامه الأول مع حاكم مصري في بلدة نفروسي، ثم ألحق به أمثاله من أتباع الهكسوس في طريقه إلى الشمال، في الوقت الذي أيده وانضم إليه فريق من البجاوين النوبيين. وكان جيشه المتحفز لقتال الهكسوس يتقدم في البر، وفي النهر، ويلقى كل عون ومؤازرة من المواطنين الذين دأبوا على مده بالمؤن وتغطية احتياجاته. واستطاع كامس بلوغ منطقة قريبة من عاصمة الهكسوس أواريس في شرقي الدلتا، وحاول اقتحام المدينة، ولكنه ارتد عنها بعد أن عجز عن دخولها، كما يفهم من تكملة النص الذي تحدث فيه الملك كامس عن أعماله الحربية ضد الهكسوس، وهدد فيه أهل ملك الهكسوس ونساءه اللواتي كن يراقبن سير المعركة بأنه «سيحتسي خمرة كروم الآسيويين التي سيعصرونها له بعد أن يصبحوا عبيداً عنده»، بعد أن يدمر قصر ملكهم ويستولي على معداته الحربية.

وعمد ملك الهكسوس إلى اتباع خطة تؤدي إلى تطويق الطيبيين من الشمال بجيشه، ومن الجنوب عن طريق الكوشيين الذين كانوا على وفاق مع الهكسوس. فأرسل مبعوثيه ليحض ملك كوش على مهاجمة طيبة في الوقت الذي يهاجمها الهكسوس فيحصراها بين فكي كماشة، ويُمنّيه باقتسام مصر بعد النصر بينهما. ولكن رجال كامس أوقعوا بمبعوثي الهكسوس الذين سلكوا طريق الواحات ليبلغوا كوش من دون أن يشعر بهم الطيبيون، وعلم الملك كامس بخطة الهكسوس، فأفشلها. ثم مات كامس في ظروف غامضة قبل أن يتم ما عقد العزم عليه، وخلفه أخوه أحمس الذي أكمل عمل أبيه وأخيه.

جدران الصرح الثالث في معبد الكرنك، وتم العثور عليه في عام ١٩٣٥. وعثر في عام ١٩٠٨م على نسخة من النص نفسه محفور على لوحة خشبية صغيرة (لوحة كرنافون رقم ١)، في قبر من زمن الأسرة السابعة عشرة بالخط الهيراطيقي. انظر:
. Vercoutter, in: FW, 2, S.366;
عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ص ٢١١.

ولكن أخاه كامس كان قد هيأ له كل أسباب النجاح: الجيش غدا مدرباً تدريباً عملياً على القتال ضد الهكسوس، واكتسب خبرة في التعامل معهم، وقد امتلك الأسلحة نفسها التي كان الهكسوس يتفوقون بها على المصريين، واشتدت عزيمته وزاد تصميمه على النصر الذي بات أمره وشيكاً. والمواطنون على أهبة الاستعداد لاستكمال مسيرة التحرير، ويتحفزون بكامل إمكاناتهم للاشتراك في المعركة الفاصلة والانتقام من الأجانب الذين انتهكوا حرمة البلاد وألحقوا بها الذل والمهانة، بعد أن سيطر كامس على عواطفهم، ونجح في تعبئة حماستهم ضد الهكسوس[١٧]. وكان كامس قد اتخذ الاحتياطات اللازمة لتأمين ظهره من خطر مملكة كوش المحتمل، فوضع بعض الوحدات العسكرية في مصر الوسطى، وفي الواحات البحرية التي قد يستخدمها النوبيون طريقاً للهجوم على طيبة إذا ما فكروا باستغلال الظروف المؤاتية لهم. فتقدم أحمس عندئذ جيشه، وسار به براً ونهراً وقد عقد عزمه على إحراز النصر النهائي، وسيطر على كل المنافذ المؤدية إلى الدلتا، ووضع يده على كل المناطق المتاخمة لعاصمة الهكسوس، وأحكم الحصار عليها، ودارت رحى الحرب بين الطرفين حول المدينة، وإلى الجنوب منها، في البر وعلى الماء. ولم يجد الهكسوس بداً من الاستسلام والجلاء عن أواريس ومصر كلها، بشرط أن يدعهم أحمس يغادرونها آمنين. فخرجوا منها حينئذ بأمتعتهم، وكانوا لا يقلون

---

(١٧) ويذكر أن أم الملك سقننرع، وتدعى تتي شري، وزوجته، أعح حوتب، أم ولديه كامس وأحمس شارتا في إذكاء روح القتال عند المصريين، وفي جمع الأنصار والمؤيدين لحرب التحرير. وقد بنى أحمس لجدته التي عاشت عدداً من السنوات بعد وصوله إلى الحكم هرماً صغيراً ومقصورة في أبيدوس تخليداً لذكراها، وضريحاً في طيبة، ونعتها بلقب «العالمة، أو العارفة». وقيل عن أعح حوتب التي عاشت حتى عهد حفيدها أمنحوتب الأول: «ربة الأرض، وسيدة الحاونبو (جزر الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط)، رفيعة السمعة في كل قطر أجنبي، التي دبرت سياسة القوم... وأحكمت شؤون مصر، وجمعت (صفوف) جيشها، ورعت أهلها، وأعادت الفارين، ولمت (شتات) المهاجرين، وهدأت (قلق) الصعيد، وأرهبت عصاته، الملكة أعح حوتب لها الحياة». وقد عثر في قبرها على بلطة وخنجر باسم ابنها أحمس. انظر عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ٢١٤.

عن ٢٤٠ ألفاً، كما ذكر المؤرخ يوسفوس. وثمة رواية أخرى على لسان مقاتل مصري عاصر الأحداث، واشترك في المعارك النهائية ضد الهكسوس، تتحدث عن دخول أواريس عنوة، وتدميرها، وأسر معظم حاميتها، وإجبار غالبية سكانها على مغادرتها. فخرج الهكسوس من مصر، وتجمعت فلولهم في مدينة شاروحين في جنوبي فلسطين حيث كانت معاقلهم القديمة. فلحق بهم أحمس ليأمن خطرهم نهائياً، ويضع حداً لوجودهم بالقرب من الحدود المصرية، وضرب الحصار على شاروحين نحو ثلاث سنوات حتى اضطروا إلى النزوح عنها هي الأخرى[١٨].

انتهى عصر الانتقال الثاني بخروج الهكسوس من مصر حوالى عام ١٥٦٧ الذي تحقق على يدي الملك أحمس آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة، ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة، في حوالى عام ١٥٦٧ق.م، وبدأ عصر الدولة الحديثة، وجاءت دورة تاريخية ثالثة، وصلت فيها مصر إلى قمة جديدة في تاريخها القديم.

---

(١٨) المصدر نفسه ٢١٣.

الفصل السادس
عصر الدولة الحديثة
(١٥٧٥ او ١٥٦٥ ـ ١٠٨٥ ق.م)[(١)]

بدأ عصر الدولة الحديثة حوالى عام ١٥٧٥ (أو١٥٦٧) ق.م بوصول الملك أحمس إلى عرش طيبة، أو بعد تحرير مصر من حكم الهكسوس وإجلائهم عنها. وحكمت في هذا العصر ثلاث أسر، هي: الأسرة الثامنة عشرة، ومؤسسها أحمس الأول، والأسرة التاسعة عشرة، ومؤسسها رعمسيس الأول، والأسرة العشرون، ومؤسسها ست نخت، واستغرق هذا العصر أكثر من خمسة قرون ونصف، تمكنت مصر في أربعة منها أن تتبوأ مكانة الدولة الكبرى في الشرق القديم بفضل حضارتها، وبفضل قوتها العسكرية في وقت واحد، إذ بلغت الدولة فيها أكبر اتساع لها في الوقت الذي وصلت فيه الحضارة المصرية ذروة جديدة بعد الذروة الأولى في عصر الدولة القديمة، والذروة الثانية في عصر الدولة الوسطى. واكتسب «الفرعون» سمعة في داخل البلاد وخارجها بزت سمعته السابقة، وتمثلت في شخصيات ملكية عبّرت أكثر من أي عصر آخر عن طبيعة الفرعون وحكمه، فاحتفظت الأجيال اللاحقة بأسماء عدد منهم حتى صاروا رمزاً لمصر القديمة ومكانتها السامية في تاريخ الحضارة، من مثل تحوتمس، ورعمسيس، وأخناتون، وتوت عنخ آمون. .

الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ ـ ١٣٠٨ق.م):

تعاقب على حكم مصر من هذه الأسرة اثنا عشر ملكاً من صلبها، ثم

(١آ) يختلف المؤرخون حول تاريخ حكم ملوك الدولة الحديثة، كما يختلفون حول تاريخ حكم الملوك الآخرين. وقد أخذنا هنا بتقديرات ألن جاردنر في كتابه المعروف:
Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford 1961.

خلفهم ملكان أُلحِقا بها، فصار عدد ملوكها أربعة عشر، وهم:

أحمس الأول، أمنحوتب الأول، تحوتمس الأول، تحوتمس الثاني، حاتشبسوت، تحوتمس الثالث، أمنحوتب الثاني، تحوتمس الرابع، أمنحوتب الثالث، أمنحوتب الرابع (أخناتون)، سمنخ كارع، توت عنخ آمون. ثم: آي، وحورمحب.

احمس الأول (نب بحتي رع ١٥٧٥ ـ ١٥٥٠ق.م):

تولى أحمس الأول الحكم في طيبة بعد موت أخيه كامس وهو في السادسة عشرة من عمره، فورث تركة ثقيلة كان كفؤاً لها تتمثل في متابعة القتال ضد الهكسوس، والقضاء على وجودهم في البلاد أولاً، ثم الالتفات إلى خطر النوبيين المحتمل في الجنوب ثانياً، ومن ثم إعادة تنظيم البلاد بعد تحقيق وحدتها، وإعادة الأمن والاستقرار إلى أقاليمها ثالثاً.

فبعد أن اطمأن إلى أن الهكسوس قد انتهى أمرهم، وأصبحوا شتاتاً في الأرض بعد طردهم من شاروحين التي لحقهم إليها بعد إجلائهم عن أواريس، مركز تجمعهم الأساسي شرقي الدلتا، توجه إلى النوبة لإعادة ارتباطها بمصر، وقمع حكامها الذين كانوا قد تمادوا في التحالف مع الهكسوس، فأعادها إلى السيادة المصرية حتى منطقة سمنه. وعادت الصلات التجارية مع بلاد الشام، ومع كريت وجزر بحر إيجة عن طريق الموانىء السورية، في الشمال، كما عادت تجارة النوبة وكوش وما يقع وراءهما إلى سابق عهدها.

واهتم أحمس الأول بالجيش، وكان حريصاً على أن يقوده بنفسه، وأن يزيد إمكاناته المادية والبشرية، فزاد الإقبال على الانخراط في سلك الجيش، وسارع أبناء الطبقة الوسطى إلى الالتحاق به، بعد أن لمس المواطنون اهتمام الفرعون نفسه بالمقاتلين ومكافأتهم على المهمات الناجحة، وترقيتهم كلما حقق المحاربون بطولات تشهد على كفاءاتهم، ورأوا أن الحروب تعود على المقاتلين بالغنائم المجزية. وضمن أحمس الأول بذلك وجود جيش يحب أفراده الجندية

ويمجدونها، وتعتمد عليه الدولة في المهام الصعبة، وأسس أول جيش نظامي في مصر سيكون له دور في تحقيق سياسة التوسع التي نهجها ملوك الأسرة الثامنة عشرة من بعد.

وقام بخطوات حذرة في المجال الداخلي أدت إلى عودة مركزية الحكم، إذ أصبحت طيبة عاصمة الدولة ثانية، فضمت المؤسسات والدوائر الحكومية المركزية، وألغى استقلالية حكام الأقاليم التي تعودوا عليها طوال عصر الانتقال الثاني، وحدّ من سلطاتهم.

وحمل أحمس الأول، ومن بعده كل الفراعنة، لقب «ابن آمون رع»، إذ غدا آمون رع إله الدولة الرئيس بعد أن كان إله طيبة وحدها. وعين الملك أحمس الأول زوجته أحمس نفرتاري في منصب الكاهن الثاني لآمون في الكرنك، واتخذت هذه لنفسها لقب «حرم الإله (آمون)» لأول مرة[1]، ثم أصبح لقباً يطلق على زوجة الفرعون التي هي في الأصل ابنة الفرعون السابق، وأم ولي العهد، فخلفت أحمس نفرتاري جدتها ووالدتها في مكانتهما السامية في القصر، وزادت عليهما في مكانتها الدينية. وقد أنزلها المواطنون مع أحمس الأول وابنها أمنحوتب الأول منزلة القديسين بعد وفاتهم، وتبركوا بها وبولدها. وصُوِّرت الملكة مع زوجها أحمس في مثل حجمه على لوحة في الكرنك، وفي حجم الإله آمون نفسه[2]، دلالة على مكانتها السياسية والدينية.

كما وجه أحمس الأول عنايته للمعابد وصيانتها، ومنها معبد بتاح في منف، ومعبد آمون في طيبة، ومعابد أونو (هليوبوليس)، وأبيدوس، إرضاء للآلهة وللقائمين على معابدها.

---

(١) وربما سبقتها إلى هذا اللقب والدتها أعح حوتب، وجدتها تتي شري.

(٢) M. Gitton, L'epouse du dieu Ahmes Nefertary, 1975; Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 173 - 174; J. Cerny, Ancient Egyptian Religion, London 1962, p.132.

عبد العزيز صالح، المصدر السابق، ٢١٧.

وخلف أحمس الأول ابنــه **أمنحـوتب الأول** (جسر كــارع) الـذي دام حكمه أكثر من واحـد وعشرين عاماً (١٥٥٠ ـ ١٥٢٨ق.م)، فتابـع سياسـة والـده بالخـروج على رأس الجيش لتـأكيد سلطة الـدولة وهيبتهـا، ووصـل إلى عاصمة كوش بعد أن توغل في بلاد النوبة العليا، وقام بتدمـير مدينـة كرمـا، ثم أعـاد ضم النوبـة السفلى إلى مصر فجعـل لها ارتبـاطـاً مبـاشـراً بـالأقـاليم المصرية، إذ امتدت من الشـلال الثاني جنـوباً حتى إقليم أسـوان الذي دخـل معها في وحدة إدارية جديـدة، وعين عليهـا حاكـماً أعطاه لقب «والي الأقـاليم الجنوبية»، فأصبحت النوبة السفلى جزءاً من أراضي مصر ومن صلب البلاد.

ووجه أمنحوتب الأول قـواته إلى الحـدود الغربيـة لردع القبـائل الليبيـة المتربصة للتسلل إلى الدلتا، كما اهتم بالحدود الشمالية مع سـورية، فقـد ورد ذكر «الميتان» و«أرض مثن» في نصـوص عهده للمـرة الأولى، وفي ذلك إشـارة إلى متابعة التطورات السياسية في سورية، حيث بدأ نشـاط الميتان في منتصف الألف الثـاني قبل الميـلاد بعد إقـامتهم دولة حـوري ـ ميتاني التي اتخـذت من الجـزيرة العليـا مركـزاً لها، بـين نهر الخـابـور، حيث كـانت تقـع عـاصمتهـا واشوكاني، ونهر الفرات(٣).

وقد كتب القائد المصري أحمس بن إبانـا عن نشاطـات أمنحوتب الأول العسكرية في الجنوب والشمال والغرب على جدران مقبرتـه في منطقـة الكاب، كما تحدث عن حروب والده أحمس الأول وابنه تحوتمس الأول اللذين عاصرهما واشترك في حروبهما تحت قيادتهما.

وتسلم العرش من بعده ولـده **تحوتمس الأول** (عـا خبر كـارع ١٥٢٨ ـ ١٥١٠ق.م) الذي لم يكن ابناً لزوجة أمنحوتب الأول الرئيسـة، ولكنه أضفى على نفسه الشرعية بزواجه من الأميرة أحمس، وأصدر مرسوماً وجهه إلى حكام الأقاليم يخطرهم بتسلمه مقاليد الحكم ويذكر لهم ألقابه واسمه عـا خبر كـارع

---

(٣) انظر كتابنا: تاريخ الشرق القديم (١)، سورية، ص ١١٦ ـ ١٢١؛
Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 197.

الذي يجب استعماله في الطقوس الدينية.

ثم بادر إلى اتباع سياسة هجومية كانت ترمي إلى توسيع حدود مصر، والاستيلاء على أبواب التجارة الدولية، ومداخل الهجرات الشعوبية في سورية. وقد ساعده على تنفيذ هذه السياسة أمران تمثلا في شخصيته الديناميكية التي تتوق إلى خوض المعارك، وفي الروح الحربية التي امتلكت نفوس الشعب منذ عهد أحمس الأول. فقد قال عن نفسه «إن ساعة الحرب أشهى عندي من يوم هنيء»، وإنه «يتشوق للقتال وينشرح صدره كلما بلغه نبأ تحرك الأعداء»(٤).

تحرك تحوتمس الأول على رأس جيشه باتجاه النوبة وكوش حتى وصل الشلال الرابع، فضم المناطق الجديدة الواقعة بين الشلالين الثالث والرابع إلى الأراضي التابعة لوالي المناطق الجنوبية، وشكل منها ومن المناطق السابقة وحدة إدارية كبيرة امتدت من الشلال الرابع في الجنوب حيث تقع نباتا حتى مدينة نخن قرب إدفو، وأطلق على حاكم هذه الوحدة لقب «الأمير، ابن الملك»(٥)، وهو لقب يناسب أهمية والي ذلك الإقليم الواسع ويرفع من قدره.

ثم توجه بجيشه الذي غدا أقوى جيش في عهده بعدده وعدته، ولا سيما بعرباته الحربية السريعة التي تجرها الخيول، إلى سورية حيث شرع الميتان بعد أن وطّدوا أركان دولتهم في مد نفوذهم على شمالها ووسطها، وفي نيته أن يحتل المراكز الحيوية فيها، فلم يجد أية مقاومة تحول دون تقدمه، فاخترق الأراضي السورية بسرعة مذهلة حتى وصل نهر الفرات حيث تبدأ أراضي مملكة حوري - ميتاني، أو نهرينا كما يسميها المصريون، وأقام نصباً باسمه عند مدينة كركميش حدد به حدود الدولة المصرية(٦) التي امتدت آنئذ «من قرن

---

(٤) K. Sethe - W. Helk, Urkunden der 18. Dynastie, Leipzig 1907, IV, S. 85, 9.
عبد العزيز صالح ٢٢٦.

(٥) Saeve - Soder bergh, Ägypten und Nubien, 148, 154.

(٦) Breasted, Ancient Records, II, 478; J.A. Wilson, the Culture of Ancient Egypt 234.

الأرض في الجنوب»، أي من جبل برقل عند الشلال الرابع لنهر النيل، إلى أطراف المياه المعكوسة في الشمال»، أي أطراف نهر الفرات الذي تجري مياهه عكس جريان مياه النيل. إلا أنه عاد بعد ذلك أدراجه، وتوقف في أحراج منطقة ني لصيد الفيلة، من دون أن يخلف قوات تحتفظ بالمناطق التي غزاها في سورية، وكأنه أراد من حملته أن يجدد لخلفائه حدود مصر التي ينبغي أن تصل إليها، وأن يعرض قوة جيشه ويبين قدراته وكفاءته العسكرية أمام الأمراء السوريين ودولة الحوريين ـ الميتانيين.

وأعاد تحوتمس الأول لمدينة منف أهميتها من جديد، فجعلها مركزاً رئيساً لفرقة العربات الحربية، ولحامية عسكرية كبيرة، وعين ابنه الأكبر قائداً لها. واهتم بالإله آمون فشرع ببناء أول معبد له في الكرنك في عصر الدولة الحديثة، وأقام أمامه مسلتين من الجرانيت الأحمر. كما كان تحوتمس الأول الفرعون الأول الذي اختار أن يُدْفن في وادي الملوك على الضفة الغربية من نهر النيل.

جاء بعد تحوتمس الأول ولده **تحوتمس الثاني** (عا خبرن رع) الذي تزوج من أخته غير الشقيقة حاتشبسوت. ويبدو أن حكمه لم يدم طويلاً، ولكن أخبار عهده تتحدث عن قيامه بحملة عسكرية في الجنوب حيث قضى على تمرد قام به النوبيون في العام الأول لحكمه، كما قاد حملة تأديبية ضد القبائل البدوية (الشاسو) الذين كانوا يقيمون في شبه جزيرة سيناء وجنوبي فلسطين لتعرضهم للقوافل التجارية وتهديدهم أمن المنطقة.

ولم يخلّف تحوتمس الثاني وريثاً للعرش من زوجته **حاتشبسوت**، بل خلفه ابن من زوجة ثانوية هو **تحوتمس الثالث**. ولما كان هذا صغيراً فإن حاتشبسوت زوجة أبيه وعمته، وابنة الملك تحوتمس الأول، غدت وصية عليه (حوالى عام ١٤٩٠ ق.م) لمدة ثماني أو تسع سنوات، ثم نحّته جانباً، وأرسلته إلى معبد آمون حيث أرغمته على الاعتكاف فيه، بعد أن اطمأنت إلى نجاحها في إدارة دفة الحكم في البلاد في أثناء وصايتها على ابن زوجها، وبعد أن وطدت مركزها، وجمعت حولها الأعوان والأنصار، أعلنت نفسها ملكة

على مصر باسم ماعت كارع، واتخذت ألقاب الفراعنة الكاملة، وظهرت بزي الملوك وبهيئتهم وهي تضع اللحية الملكية المستعارة. ولم تكتف باغتصاب الحكم، وجعل الناس يخضعون للأمر الواقع، بل أكدت شرعية حكمها بقصة حاك خيوطها الكهنة، فادعوا أن الإله آمون نفسه هو الذي أنجبها بنفسه، وأن أباها تحوتمس الأول رضي ببنوتها للإله، وأوصى لها بالحكم من بعده، وأن آمون نفسه أيضاً هو الذي اختار لها اسم حاتشبسوت خنمة آمون، أي «أفضل (السيدات) المبجلات صفية آمون» بعد أن تشاور مع أمها أحمس. وسجلت الملكة حاتشبسوت قصة ولادتها المقدسة وبنوتها لآمون على جدران معبدها في الدير البحري بطيبة الغربية[٧].

وسجلت حاتشبسوت على جدران معبد الدير البحري أخبار البعثة التجارية التي أرسلتها في عام حكمها التاسع إلى بلاد البونت عن طريق البحر الأحمر كتابة وصورة، وكانت تتألف من خمس سفن شراعية كبيرة، وترافقها سرية من الجند. فوصلت بلاد البونت (السواحل الجنوبية للبحر الأحمر أو الصومال) فاستقبلها حاكم البلاد وأسرته وكبار رجاله، واحتفوا بمقدم البعثة وعبروا عن احترامهم للملكة «الشمس الأنثى التي تضيء مثل الكوكب». وجلبت السفن كميات كبيرة من الذهب، والعاج، والأبنوس، وجلود الفهود والنمور، ومجموعة من القرود، وأحضرت كذلك أشجار البخور بجذورها. ويتحدث النص عن هذه الرحلة الهامة التي لم يشهد تاريخ مصر القديم مثيلاً لها إلى أنها قامت بوحي من الإله آمون «... إلى أرض الإله.. بوساطة جيش سيد الأرضين (حاتشبسوت)، طبقاً لأمر سيد الآلهة آمون، سيد عروش الأرضين، المقيم في طيبة، لكي تحضر له العجائب من كل بلد أجنبي لأنه يحب كثيراً (ابنته ماعت كارع)»[٨].

ولم تتحدث نصوص عهدها عن نشاط عسكري ذي أهمية، سوى

(٧) E. Naville, The Temple of Deir el - Bahari, II, 1896, pl. 47f.
(٨) سيد توفيق، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٣٨.

حرصها على توطيد الأمن في منطقة كوش[٩] التي أرسلت إليها حملة لتهدئة الأحوال فيها، ولتأمين سبل التجارة معها ومع المناطق المتاخمة لها في السودان. ولم تأل جهداً في سبيل استغلال مناجم الفيروز في سيناء، والمحاجر في أسوان لجلب الحجارة اللازمة لنحت المسلات خصوصاً. ولم تشر نصوص عهدها إلى أي اهتمام لها ببلاد الشام وبأحوالها.

واشتهرت الملكة حاتشبسوت بعد وفاتها بمعبدها في الدير البحري الذي يعد أحد الإنجازات الفنية المصرية الرائعة. وقد بناه لها المهندس سنموت في حضن جبل شامخ في طيبة الغربية على شكل مسطحات ثلاثة، يعلو الواحد منها الآخر ويليه. وكان الغرض من بنائه إقامة الشعائر الدينية والجنائزية لها ولأبيها تحوتمس الأول ولوالدتها أحمس، ثم كرس لعبادة آمون، كما أقيمت فيه مقاصير لعبادة رع، وأنوبيس، وحتحور.

واهتمت الملكة ببناء المعابد وتجديدها، ومنها معبد للإله آمون أمرت ببنائه في مدينة هابو، وآخر في منطقة بني حسن للمعبودة بخت التي كانت تقدس على هيئة القطة البرية. وتخلف من عهدها زوجان من المسلات الضخمة في معابد الكرنك، ما زالت إحداهما قائمة بارتفاع ٢٩,٢٥م على قاعدة مربعة. كما أضافت الصرح الثامن في معابد الكرنك. ويستخلص من آثارها الباقية، لأن تحوتمس الثالث أقدم لدى وصوله إلى العرش على تدمير ما خلفت حاتشبسوت من آثار ومسح اسمها، وتشويه ما وصلت إليه أيدي أتباعه من صورها، يستخلص أن عهدها اتسم بنشاط اقتصادي مع الجنوب الإفريقي، وبنشاط عمراني متعدد الجوانب يليق بملكة قوية الشخصية، وذات طموحات سياسية وذوق فني سام.

تسلم الحكم بعد وفاة حاتشبسوت الغامضة (حوالى عام ١٤٦٨ق.م)، إذ لم يُعْرَف كيف انتهت حياتها ولا مكان دفنها، **تحوتمس الثالث** (من خبر رع) حوالى عام ١٤٦٨ واستمر في الحكم حتى عام ١٤٣٨ق.م. ولكنه اعتبر

---

(٩) Redford, History and Chronology of the 18th Dynasty in Egypt 1967, 57 - 60.

نفسه ملكاً على مصر منذ العام الذي توفي فيه والده تحوتمس الثاني، متجاهلاً الفترة التي جلست فيها حاتشبسوت على العرش (١٤٩٠ ـ ١٤٦٨ق.م)، كما تجاهلتها قائمة الكرنك وقائمة أبيدوس ولم تسلك اسمها بين الملوك[١٠]. ولجأ إلى تأكيد شرعية حكمه بقصة روتها نصوصه إذ تحدثت أن آمون نفسه هو الذي اختاره ليكون ملكاً على مصر بعد أبيه، وذلك عندما كان تحوتمس الصغير يرقب موكب الإله من نافذة في معبد الكرنك، حيث كان يتلقى تربية دينية، وإذا بالإله الذي يتقدم الموكب المهيب في العيد الكبير يتوجه إلى المكان الذي كان تحوتمس يشاهد منه الاحتفال، ثم يتوقف عنده ومن ورائه الكهنة ورجال الدولة، وعلى رأسهم الفرعون (والده). فكان توقف (تمثال) آمون عند الغلام يعني أنه يرغب في أن يخلف تحوتمس أباه في العرش.

يُعَدّ الملك تحوتمس الثالث من أعظم من عرفت مصر في عصر الدولة الحديثة من فراعنة، فقد كان قائداً عسكرياً فذاً، كما كان إدارياً ناجحاً. ولم تحل طبيعته العسكرية التي تشبه طبيعة جده تحوتمس الأول دون أن يكون له جانب إنساني تميز برقة الإحساس والذوق الرفيع، فقد وصفه معاصروه بالأب والأم «للناس أجمعين»، وبأنه كان يقضي أوقات فراغه في ابتكار التصاميم والرسوم لأوان وتماثيل لينفذها فنانوه، ثم يهديها لمعبد آمون، وكان يأمر بجمع الزهور والنباتات النادرة والطيور الفريدة التي يصادفها أو يعثر عليها رجاله لتربيتها في مصر[١١].

---

(١٠) نقشت قائمة الكرنك في عهد الملك تحوتمس الثالث نفسه. أما قائمة أبيدوس فيعود تاريخها إلى عهد الملك سيتي الأول (من الأسرة التاسعة عشرة) الذي كان يعتبر تحوتمس الثالث مثله الأعلى. ولما كان تحوتمس الثالث يحقد على الملكة حاتشبسوت ويعتبرها مغتصبة للحكم، فإنه لم يعترف بحكمها، بل أمر بكشط اسمها حيثما وجد منقوشاً، وبتحطيم تماثيلها، وتشويه صورها. ويفترض بعض المؤرخين أن عام وفاة والد تحوتمس الثالث هو ١٥٠٤ وليس ١٤٩٠، وبناء عليه امتد حكم تحوتمس الثالث حتى عام ١٤٥٠ق.م.

انظر: Wente, in JNES, 34 (1975), 265f.

(١١) عبد العزيز صالح ٢١٧.

ما إن مرت شهور قليلة على جلوس تحوتمس الثالث على العرش، وانفراده بالحكم، حتى بدأ بتنفيذ سياسته العسكرية التي اتسمت بالتكتيك الواعي، وبالهجوم الخاطف، لتحقيق الأهداف المرسومة لفرض السيادة المصرية على الأراضي التي وصل إليها جده تحوتمس الأول في سورية حين جعل حدودها عند نهر الفرات. وكان عليه أن يحسب حساباً للأحوال التي آلت إليها سورية بعد أن قويت شوكة دولة الميتان في شمال شرقي سورية، وصار لها نفوذ واضح فيها، ورجال بين حكامها يتوقون إلى التخلص من النفوذ المصري، في إثر غياب الاهتمام بأحوالها في عهد الملكة حاتشبسوت التي انصرفت بسياستها إلى إفريقية، وإلى الاتجار مع بلادها، ولم تُعِر سورية الاهتمام الذي تستحقه منها، ولم تتابع تطورات الأحداث في المناطق الآسيوية التي كانت تتم لغير صالح مصر، والتي أدت إلى قيام تحالف بين حكام المدن والأقاليم السورية بزعامة أمير قادش (تل النبي مِنْد اليوم الواقع على نهر العاصي جنوبي مدينة حمص)، ومن ورائه ملك الميتان.

وتوجه جيش التحالف إلى مدينة مجيدو (تل المتسلم اليوم عند جبل الكرمل) في شمال غربي فلسطين، واتخذها مركزاً لقواته ليشرف منه على جنوبي سورية، ويتحكم في طرق التجارة الدولية بين سورية وبلاد الرافدين من جهة، وبين سورية ومصر من جهة أخرى. ولما سمع تحوتمس الثالث بهذه التطورات خرج بجيشه مسرعاً لمقاتلة الأعداء، فوصل مدينة غزة في عشرة أيام، بعد أن قطع مسافة ١٥٠ ميلاً، حيث احتفل ببداية السنة الثالثة والعشرين من حكمه (وهي السنة الأولى من حكمه الفعلي منفرداً)، ثم قطع ثمانين ميلاً أخرى في أحد عشر يوماً ليصل إلى جبل الكرمل حيث عقد مجلس حربه مع ضباطه، ليستشيرهم في اختيار الطريق الذي عليهم اتباعه لمهاجمة العدو المعسكر عند مجيدو، إذ كان ثمة ثلاثة طرق تؤدي إلى المدينة: اثنان منها مناسبان ويتسعان لمرور قواته، وواحد وعر، بالغ الضيق، لا يخطر ببال أحد العبور منه، ولكنه أقرب الطرق إلى حيث كان معسكر التحالف المعادي. ثم اتخذ قراره الحازم قائلاً: «أقسم بحب رع، وفضل أبي آمون... لأسلكنّ هذا الطريق (الضيق)» بعد أن أفحم ضباطه بوجهة نظره

القائمة على الهجوم الخاطف والمباغت. فردوا عليه قائلين «ليساعدك أبوك آمون. وها نحن في معيتك سائرون أينما سرت. فتقدم ونحن معك..». ثم تقدم طليعة الجيش وانقض على القوات المعادية عند الفجر، فانفض جمعها، وأصابهم الذهول للمفاجأة، ولاذوا بالفرار في كل اتجاه، وخلفوا وراءهم عرباتهم الحربية المذهبة، وتركوا خيولهم لا يلوون على شيء، واحتموا بمدينة مجيدو وأسوارها الحصينة. فانشغل الجنود المصريون بجمع الغنائم الثمينة عن اللحاق بالأعداء الفارين ودخول المدينة في الحال، فهرب أمير قادش وأمير مجيدو، وكلف ذلك المصريين سبعة شهور من الحصار لمدينة مجيدو حتى استسلمت وقدمت للملك السلاح والهدايا، وخرج الأمراء مستسلمين، فعفا عنهم، واصطحب معهم أبناءهم إلى مصر ضمانة لوفاء آبائهم بوعودهم أمام الفرعون[١٢].

ثم عاد تحوتمس الثالث إلى سورية أربع مرات في أربع سنوات متتالية، من دون أن تشتبك قواته في أية معركة، لتفقد الأحوال. وبعد أن اطمأن إلى إخلاص الحكام في جنوبي سورية له قرر مهاجمة أمير قادش، زعيم التحالف السابق في عقر داره. وكتب له النصر في هذه المعركة على ضراوتها، وعامل أهل قادش معاملة حسنة بعدها، وأخذ معه من أفراد الأسرة الحاكمة عدداً من الأولاد ليربيهم في مصر، ويستوثق من آبائهم في سورية «حتى إذا توفي أحد الأمراء عين جلالته ولده في منصبه»، كما تذكر حولياته.

ثم قرر أخيراً الخروج بجيشه في المرة الثامنة، في العام ٣٣ من حكمه، للهجوم على دولة الميتان نفسها بعد أن أذعنت سورية لسلطانه، وهدأت الأحوال فيها. فأعد العدة للمعركة الحاسمة، بتجهيز الجيش بالمواد التموينية الكافية لقطع المسافة البعيدة، وتخزينها في الموانىء السورية لوقت الحاجة،

---

(١٢) H. Nelson, The Battle of Megiddo, 1913; Breasted, Ancient Records of Egypt, I, 391 ff.
عبد العزيز صالح ٢٣٠ ـ ٢٣٣. جون ولسون، الحضارة المصرية، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

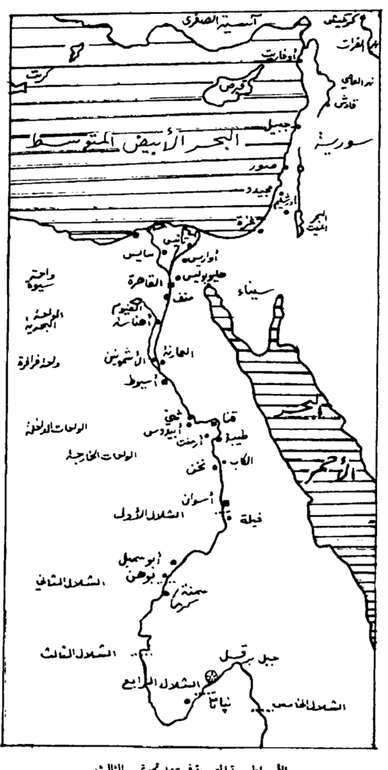
وحمل معه سفناً ليعبر بها نهر الفرات للاشتباك مع الميتانيين في عقر دارهم عبر النهر، كان الفينيقيون قد جهزوها له. وهاجم الجيش المصري مدينة قطنا (قرب مدينة حمص) في طريقه إلى الفرات، واستولى عليها. ثم تابع زحفه إلى حلب حيث اشتبك مع وحدات معادية من جديد بعد أن التم شمل قواته التي كان قسم منها مشغولاً بتهدئة الأحوال في جنوبي فلسطين. ثم التقى الجيش الميتاني عند كركميش، ودارت الدائرة على الميتانيين، ففر ملكهم إلى أعماق بلاده في الجزيرة العليا من بلاد الرافدين. وعبر تحوتمس وجيشه نهر الفرات، حيث أقام على ضفته الشرقية نصباً كجده تحوتمس الأول. وذكر في لوحة له عند جبل برقل في النوبة أنه «جعل حدوده من بداية الأرض (أي من أقاصي النوبة) إلى أقاصي آسية (الغربية)»[١٣].

لم يقض تحوتمس الثالث على دولة الميتان، على الرغم من قهرها، ولم تذعن بعض المدن السورية للسيادة المصرية كلية، فقد نشبت ثورة في قادش ضد المصريين، كما قامت ثورة أخرى في تونيب بتشجيع من الميتانيين ومساعدتهم، وتوجّب على تحوتمس الثالث أن يعود إلى سورية لإخماد الفتنة، وكتم أنفاس المناوئين، حتى بلغت حملاته ١٦ ـ ١٧ حملة في العام الثاني والأربعين من حكمه. ثم استكانت القوى المعارضة في سورية للحكم المصري، وغدت مصر صاحبة النفوذ الوحيد في سورية بين الفرات في الشرق، وساحل البحر الأبيض المتوسط في الغرب، ووضع تحوتمس الثالث بعض السفن المصرية في الموانىء السورية تحسباً لأية قلاقل محتملة في الداخل، بعد أن أثبت قدرة الجيش المصري التي لا تقاوم، وقوة الأسطول المصري الذي فرض سطوته على الموانىء السورية وجزر البحر الأبيض المتوسط الشرقية[١٤]. وتم بذلك لمصر السيطرة على طرق التجارة الدولية، ومراقبة التحركات الشعوبية في غربي آسية التي كانت مصدر قلق وخطر عظيمين على أمن مصر واستقرارها.

---

(١٣) عبد العزيز صالح ٢٣٣ . J. Cerny, in: FW, 3, S. 238.

(١٤) Hayes, in: CAH, II, part I, p. 314 - 315.



الأمبراطورية المصرية في عهد تحوتمس الثالث

ترك تحوتمس الثالث الحكام المحليين في سورية في مناصبهم، واعتبرهم نواباً له «إدنو»، وعين مفتشين مصريين يقيمون في المدن الرئيسة لمراقبة الأحوال المختلفة وإعلام الإدارة المركزية في العاصمة طيبة عنها. وسمّى حاكماً عاماً لسورية، وجعل مدينة غزة، ومدينة سميرا من مراكز الإدارة الرئيسة في سورية[١٥].

ولم يهمل تحوتمس الثالث بلاد النوبة التي أصبحت من أقاليم مصر، واصطبغت بالحضارة المصرية، فتوجه إليها جيشه في العام السادس والأربعين من حكمه لتأكيد السيادة المصرية حتى الشلال الرابع عند مدينة نباتا حيث أقام بعض الحصون والمعابد. وكانت بلاد النوبة السفلى والعليا مصدر الذهب الأساسي للدولة المصرية الذي لا تستغني عنه، ولم تتغير إدارتها الإقليمية عما كانت عليه في عهد الملوك السابقين، إذ كان لها ولاتها الذين يتلقبون بلقب إدنو المعروف.

واهتم تحوتمس الثالث بالعمارة، فقد أقام في الكرنك مجموعة من المباني، منها صالة الحوليات التي نقشت على جدرانها أخبار حروبه في سورية، والصرحان السادس والسابع، وبعض المباني حول مسلة حاتشبسوت. كما أقام عدداً من المسلات نقلت من أمكنتها الأصلية إلى ساحات لندن، ونيويورك، وروما، واسطنبول. وأمر بتشييد عدد من المعابد في أنحاء مختلفة من مصر، في أبيدوس، وقفط، وفي منف، وفي بلاد النوبة، في سمنه، وجبل برقل.

ازدادت علاقات مصر التجارية بجيرانها في الشمال والجنوب، ومع جزر بحر إيجة، ومع بلاد الرافدين وشرقاً، وازدادت معها صلات الود والحضارة بين شعوب الشرق الأدنى القديم نتيجة لسياسة الملك تحوتمس الثالث وجهوده المثمرة، فقد ذاع صيته، ورغب ملوك الدول المجاورة في عقد صلات من الود والصداقة معه، وعمدوا إلى مهاداته، فوصلته هدايا ثمينة من بابل، وآشور، ومن خاتي (بلاد الحثيين)، كما يشير حولياته والآثار التي عثر عليها.

---

(١٥) عبد العزيز صالح ٢٣٤. J. Wilson, The Asiatic campagns of Thutmose III, in: ANET, New York 1969.

خلف تحوتمس الثالث على العرش ابنه أمنحوتب الثاني (عا خبرو رع ١٤٣٨ ـ ١٤١٢ق.م) الذي كان قد خبر الحياة العسكرية في زمن أبيه، وألف إدارة الدولة، فقد تعهده والده بالتربية المناسبة كأمير سيرث دولة مترامية الأطراف، وتقع على عاتقه مسؤولية إدارتها العظيمة. وقد أثبت كفاءة عالية في الحفاظ على إنجازات والده التوسعية، وعلى هيبة الفرعون أمام الرعايا في مصر وخارجها. فخرج على رأس جيشه في السنة الثانية من حكمه إلى سورية للقضاء على بعض مثيري الشغب على الحكم المصري، وتلقين غيرهم درساً حتى لا يفكروا بالتنصل من ولائهم للمصريين، فيذكر في حولياته أنه أحضر معه إلى مصر سبعة من أمراء المدن السورية(١٦)، فقتل ستة منهم أمام الإله آمون في طيبة، وأرسل السابع إلى نباتا في النوبة ليتم شنقه على جبل برقل في معبد آمون أيضاً. ثم عاد إلى سورية في حملة تفتيشية في العام التاسع من حكمه حيث وصل إلى قطنا وأوغاريت. وقد سجل أخبار حملتيه على سورية على لوحتين، عثر على إحداهما في الكرنك، والثانية في منف، وحرص على أن يظهر فيهما بمظهر البطل الذي لا يُصرع، ولا يستطيع أحد أن يقهره، فقد كان ميالاً إلى المبالغة في تصوير أحداث انتصاراته المتواضعة بجانب معارك والده. كما كان يميل إلى القسوة في معاملة الخصوم والتنكيل بهم. وذكرت نصوصه أنه ثبت حدود الدولة بنصب أقامه في أرض نهرينا على الفرات، وبنصب ثان أقامه في جنوبي النوبة، تقليداً منه لوالده تحوتمس الثالث.

ثم ولي الحكم تحوتمس الرابع (من خبرو رع ١٤١٢ ـ ١٤٠٢ ق.م) وهو بعد صغير السن، ولكنه أثبت أنه رجل سياسة وحرب، فقد خرج بجيشه إلى سورية ليضرب من جديد على أيدي المشاكسين الذين استغلوا فرصة وفاة والده أمنحوتب الثاني ليخلعوا عصا الطاعة، ويحاولوا الانفصال عن السيادة المصرية، ثم توجه كذلك إلى بلاد النوبة ليؤكد الحكم المصري ويضمن الولاء لنفسه من أهلها. فقد تعود حكام سورية خصوصاً على التحرك بغية امتحان قدرة الملك الجديد، كلما توفي ملك وتسلم العرش من بعده

---

(١٦) .FW, 3, 238.

ملك، عساهم يظفرون بفرصة للاستقلال. وفي هذه المحاولات المتتالية التي كانت تجدّ كلما تغير الملك المصري، أو عندما يطول عهد الملك، دلالة على أن السوريين لم يستكينوا إلى الاستسلام للحكم المصري، ولم يفوّتوا فرصة سانحة إلا استغلوها في سبيل التخلص من السيطرة المصرية على أقاليمهم، وكان الميتانيون يشجعونهم ويمدونهم بالمعونة عند الضرورة. ويبدو أن بعض تلك المحاولات كانت مجدية بحيث تراجع النفوذ الفعلي عن المناطق السورية الشمالية منذ عهد الملك أمنحوتب الثاني. وعندما استقرت الأحوال في سورية في عهد تحوتمس الرابع من جديد وقع المصريون اتفاقاً مع الميتانيين تبين منه أن المنطقة الواقعة بين قطنا وقادش كانت تشكل الحدود الفاصلة بين سيادة الدولتين في سورية.

وكان تحوتمس الرابع بعيد النظر في سياسته الخارجية إذ جنح إلى السلم مع الميتانيين، بعد أن توصل إلى قناعة مفادها أن لا جدوى من الحروب معهم، وأنه ينبغي الإفادة من القناعة المشابهة التي تولدت عند الطرف الآخر. ولم تتوافر هذه القناعة عند الطرفين في الحقيقة إلا بعد أن أحس الجانبان أن ثمة قوة ثالثة في المنطقة بدأت تتحرك لتلعب دوراً في سورية والشرق عموماً، وهي التي ظهرت في دولة خاتي (دولة الحثيين) في آسية الصغرى، وهي قوة فتية ينتظر منها أن تشكل خطراً حقيقياً على مصالح الدولتين في سورية. وأكد ملكا الدولتين الصلح والسلم بينهما بأن أرسل ملك الميتانيين أرتا تاما ابنته زوجة للملك تحوتمس الرابع بعد أن خطبها هذا لنفسه وأقنع والدها بحسن نواياه، وربما جعلها زوجة من زوجاته الرئيسات، فصارت والدة أمنحوتب الثالث، الملك الذي خلف تحوتمس الرابع(١٧).

أشاع الملك تحوتمس الرابع قصة أراد من خلالها أن يؤكد شرعية وصوله

---

(١٧) Knudtzon, Die El - Amarna Tafelnm Nr. 29.

لم تكن هذه الأميرة الميتانية أول آسيوية يتزوجها فرعون مصري، فقد تزوج تحوتمس الثالث ومن بعده أمنحوتب الثاني من قبل عدداً من الأميرات السوريات، ولكنهن كن زوجات ثانويات، ولم يحظين بمرتبة الزوجة الرئيسة مثل ابنة أرتاتاما الميتانية.

إلى الحكم دون إخوته، وتحكي القصة أنه عندما كان في رحلة صيد للغزلان، جلس بجوار تمثال أبي الهول ليستظل بظله، فغلبه النعاس، وإذا به يرى الإله يحدثه قائلاً: «ولدي تحوتمس، تأملني فأنا أبوك، إني واهبك ملكي على الأرض لتصبح سيداً على الأحياء.. وستكون لك الأرض بطولها وعرضها، وكل ما تضيئه عين رب الكل...»، ثم يطلب منه إذا تحقق ذلك أن يرفع الرمال التي تجمعت حوله لأنها تكاد تخنقه ولا يستطيع التنفس(١٨).

وعندما تسلم ابنه أمنحوتب الثالث الحكم (نب ماعت رع = أمينوفيس الثالث ١٤٠٢ ـ ١٣٦٤ق.م) كان عليه هو الآخر أن يؤكد شرعية وصوله إلى الحكم عن طريق ادعائه البنوة للإله آمون لأن أمه ميتانية وليست مصرية، وقد يعيبه ذلك، ويتسبب له في المشاكل، ويضعف موقفه أمام المنافسين له على العرش. فروّج قصة مؤداها أن الإله آمون أنجبه بنفسه عندما تزوج أمه بعد أن اصطفاها لتكون والدة للملك مصر بعد تحوتمس الرابع. وأمر أمنحوتب الثالث فنانيه ليصوروا قصة ميلاده المقدس في لوحات فنية نقشوها في معبد الأقصر تشبه مناظر ولادة الملكة حاتشبسوت المنقوشة على جدران معبدها في الدير البحري.

اتسم عهد أمنحوتب الثالث بالاستقرار الأمني والسياسي والاقتصادي، فقد ترتب على الجهود المتواصلة في سبيل تثبيت السيادة المصرية في المناطق الآسيوية، وفي بلاد النوبة، في عهود الملوك الأوائل من عصر الأسرة الثامنة عشرة، أن أمست مصر أقوى وأغنى دولة في الشرق القديم، وصارت مصر تملك من الثروات في بداية عهد أمنحوتب الثالث ما لم تعرفه في أي وقت مضى من تاريخها، فقد تجمعت في خزانتها من الأملاك التي تكدست فيها من الغنائم والجزى من الحروب التي خاضها الملوك حتى عهد تحوتمس الرابع، الملك المحارب الأخير من هذه الأسرة، ما لم يدخلها في أي عهد مضى. وزاد من واردات الدولة أن الحدود أصبحت مفتوحة أمام التجارة الدولية، بل

---

(١٨) W. Hayes, in: CAH, II. part I, p321.

أصبحت مصر تسيطر على أهم طرقها البرية في بلاد الشام، وصارت أساطيلها البحرية تجوب مياه البحر الأبيض المتوسط الشرقية، ومياه البحر الأحمر، وتصل إلى الموانىء التي كانت تتكدس فيها البضائع ومنتوجات شعوب الهلال الخصيب، وآسية الصغرى وجزر بحر إيجه، وإيران، ولا سيما في أوغاريت وجبيل وصيدا وصور، فيتبادل التجار فيها سلعهم المختلفة، ويصل منها مصر ما هي بحاجة إليه أو حتى ما يفيض عن حاجتها ليصبح أداة للرفاهية والرخاء العام، فتزيد واردات الخزينة من الرسوم والضرائب والاستغلال الداخلي. وترافق الرفاه المادي والتبادل التجاري الواسع مع الرفاه الثقافي والتبادل الحضاري بين مصر وجيرانها. فوصلت إلى مصر أفواج من السفراء والزوار والتجار وهم يحملون أفكارهم وعقائدهم الدينية ومنتوجاتهم الفنية، وذهبت أفواج من المصريين إلى سورية، وإلى بلاد الميتان، ولا سيما بعد أن تم الصلح بين مصر والميتان، فامتزجت حضارة شعوب الشرق، وانفتحت آفاق واسعة أمام المفكرين والفنانين لتطعيم أفكارهم وأذواقهم بألوان جديدة من الفكر والفن انتفعت بها شعوب الشرق جميعها، وأفادت منها حضارة الشرق في أقاليمه المختلفة، وانعكس ذلك على إنجازاتها الرائعة على المدى البعيد. وقد عبر عن تصور شعوب المنطقة عن ثراء مصر وملوكها الواسع خطاب وجهه الملك الميتاني توشراتا إلى صهره الملك أمنحوتب الثالث الذي تزوج ابنته تادو خيبا، وساومه على مهرها سنوات عدة حتى رضي بزواجها منه. يقول الملك الميتاني: «إلى نيمّوريا ملك مصر، أخي، صهري الذي أحبه، والذي يحبني أقول: هكذا يتكلم توشراتا ملك بلاد ميتاني، عمك الذي يحبك، أخوك... أخي تمنى زوجة وها أنذا أرسلها... عندما تأتي سيراها أخي وسيرى مهرها.. وأرجو أن يُريَ أخي مهره لعروسه. أرجو أن يجعلني أخي غنياً في عيون سكان دولتي، وأرجو أن لا يجعل أخي قلبي حزيناً. لقد تمنيت من أخي تمثالاً من الذهب لابنتي. أنا أعرف أن أخي يحبني كثيراً، وأعرف أن الذهب موجود بكثرة في بلد أخي. كما أريد من أخي تمثالاً من العاج (مكتوباً عليه): هذا التمثال لتادو خيبا ابنة توشراتا سيد ميتاني الذي أعطاها إياه نيمّوريا سيد مصر.. في بلادنا يسود السلام. الآن لا

يوجد عدو لأخي. ولكن إذا هاجم عـدو أخي ودخل في بـلاده فعلى أخي أن يعلمني، وستكون بلاد الحوريين بأسلحتها وجيوشها تحت تصرفه. ومن ناحية أخرى إذا تقدم عدو ضدي فسأخبر أخي وستكـون مصر وجيوشهـا وأسلحتها إلى جـانبي»(١٩). ولم تكن تادوخيبا الأميرة الأولى بـل سبقتهـا جيلوخيبـا من قبل.

وفي رسـالة أخـرى يقول الملك الميتـاني: «أخي، أرجو أن تهـديني ذهباً كثيـراً لا يحصى، وإني على ثقـة من أن أخي سوف يحقق ذلـك ويهديني ذهبـاً أكـثر من الذهب الـذي حصل عليـه أبي، أليس الذهب في بلد أخي كـتراب الأرض؟ بارك الأرباب فيه حتى يصبح الذهب في أرض أخي أضعاف مـا هو عليه الآن..»(١٩).

وقد تمادى الملك أمنحوتب الثالث في زواجـه، فاستمـراً زواج الأميرات الأجنبيات ليرضي نزواته من جهـة، وليؤكد أواصر الصـداقة كـأبيه مـع الملوك المجاورين عن طريق المصاهرة من جهة أخرى، ولكنه لم يكن من ناحيته يقبل تزويج الأميرات المصريات من الملوك الأجانب، كـما يتبين من رده عـلى طلب ملك بابل الكـاشي كاداشـمان إنليل الأول بقـوله: «لم يسبق أن أرسلت أمـيرة مصرية إلى أي إنسان (طلبها للزواج)».

بدأ الملك أمنحوتب الثالث عهده على عادة أسلافه بالخروج بـالجيش في جولة تفتيشية إلى سورية، وأتبعها بجولة إلى النوبة، وقـامت بينه وبـين الملوك

(١٩) اهتم الملك أمنحوتب الثالث فعلاً بزوجته الميتانية فخلد ذكرى زواجه منها عـلى أحد الجعول الفخمة، كما خلد ذكرى زواجه من زوجته المصرية تي، وزاد لهذه بناء قصر بـاسمها عـلى الضفة الغـربية للنيـل، وظهرت تي في تمـاثيلها وفي النقـوش في حجم مســاو لحجم الملك على غـير العادة. انـظر: أحمد أمـين سليم، دراسات في تـاريـخ الشرق القديم ١٥٥، عبد العزيز صالح ٢٣٨؛

G. Wilhelm, Grundzüge der Geschichte und Kultur der Hurriter. Darmstadt 1982, S. 45f.

المعاصرين في دولة حوري ـ ميتاني، ودولة بابل (الكاشية)، ودولة آشور، ودولة خاتي (الحثية)، وحكام قبرص، وأمراء الشام مراسلات. وتم بينه وبينهم تبادل الهدايا، وقد تحدثنا عن ذهب مصر الذي كان ملوك الشرق وأمراؤه يطمعون في الحصول عليه، لقاء هداياهم إلى الفرعون من الجواري والعبيد، والخيول، والمركبات الحربية، والأحجار الكريمة. ثم مال الملك إلى حياة الدعة واستنام إلى النعيم الذي توافر له، وركن إلى الهدوء الذي آثره على الخروج بجيشه لتفقد أحوال سورية. وتبدلت ظروف الشرق السياسية، فقد قويت شوكة الحثيين وبدأوا يحلون محل الميتانيين في نفوذهم في شمالي سورية. وجعلوا أنفسهم حماة للحكام السوريين المناوئين للحكم المصري، وفي مقدمتهم حاكم أمورو المسمى عبدو عشيرتا الذي بسط نفوذه بالقوة على حساب جيرانه في قطنا وحماة ونيا، واحتل أرواد وهاجم سميرا على الساحل، وضيق الخناق على أوغاريت، وحاصر رب عدي في مدينة جبيل الذي بقي من أشد الحكام في سورية إخلاصاً للفرعون. كما ظهرت جماعات الخابيرو (أو العابيرو) في فلسطين التي كانت تعيث خراباً في مدنها، وتهدد أمن الطرق التجارية فتنهب القوافل، وتغير على المزارع وتدمر الممتلكات.

وقد صورت هذه الأحوال المتردية في سورية الوسطى والجنوبية رسائل العمارنة التي تضمنت عدداً كبيراً من رسائل الحكام في فينيقية وفلسطين إلى الفرعون، ملك مصر، سيد البلاد وولي أمرها، تنقل إليه أخبار المعتدين من أمثال عبدو عشيرتا الأموري، وابنه عزيرو الذي خلف والده في أمورو، وتتحدث عن التخريب والتدمير الذي يحدثه الخابيرو في فلسطين، وحاكم شكيم المدعو لابآيو وأطماعه بجيرانه، ويتوسل فيها الحكام المخلصون للفرعون أن ينجدهم ويخفف عنهم البلاء بجيش ينقذ البلاد من شر أولئك وأعمالهم التخريبية، ويضع حداً للفوضى والاستهتار بأمن الناس وبهيبة الملك المصري وسطوته. وإذا كان أمنحوتب الثالث قد أسرع لنجدة حميه ملك ميتاني فأرسل له قوات اشتركت مع جيش الميتانيين في صد هجوم حثي بقيادة الملك شوبيلوليوما تنفيذاً للاتفاقية بين مصر ودولة الميتان، فإنه لم يحرك ساكناً، كما يبدو من الرسائل المتتالية إليه بطلب النجدة، لإنقاذ الأوضاع المتدهورة في

سورية. وزاد الأمر سوءاً أن الملك المصري لم يعد يميز بين الحكام المخلصين له من الخونة والمنافقين من أمثال عبدو عشيرتا، وابنه عزيرو، ولا بـآيو. فقد كان من بين الرسائل التي عثر عليها في تل العمارنة رسالة من عبدو عشيرتا يقول فيها للفرعون: «إلى الملك، شمسي ومولاي، يقول عبدو عشيرتا، عبدك وتراب قدميك: أجثو عند قدمي مولاي الملك سبعاً وسبعاً، فأنا خادم الملك وجرو بيته، وأحرس أرض أمورو كلها من أجل مولاي وسيدي»، وفي الوقت الذي كان يهاجم جيرانه لصالحه الشخصي بدعم من الحثيين. ويكتب حاكم جبيل إلى الملك يشكو حاكم أمورو وابنه قائلاً: «كان حكام كنعان إذا رأوا جندياً مصرياً ولوا الأدبار، أما الآن فإن أبناء عبدو عشيرتا يستخفون بالمصريين ويهددوني بأسلحة فتاكة». ثم يشكو مرة أخرى، ويقول: «قديماً كان للملك (المصري) عندنا قلعة ومؤونة.. ولكن عزيرو يهاجمنا الآن مراراً دون خوف، ولم يبق لدي حاشية أو مؤونة بعد أن أصبحت قراي الآن في حوزة عزيرو، وهو يظهر لي الرغبة في أن أنضم إليه، ولكن لماذا أنضم إليه؟ إنهم أجراء أبناء عبدو عشيرتا هؤلاء، يبغون مصالحهم ويخلفون مدن مولاي الملك طعاماً للنيران». ولا تختلف شكوى ملك تونيب (الواقعة إلى الشمال الغربي من قطنا) في مضمونها عن شكوى رب عدي، إذ يخاطب الفرعون، فيقول: «مولاي ملك مصر، نحن أهل تونيب أتباعك، ندعو لك بالحياة ونقبل قدميك. إن أمتك مدينة تونيب تقول من ذا الذي كان يستطيع أن ينهب تونيب دون أن ينتقم لها من خبريا (أمنحوتب الثالث) ويفعل بالناهب ما فعل بها؟ إن آلهة مولانا الملك وتماثيله لدينا. وليسأل مولانا شيوخ رجاله ليعرف إذا ما كنا نقول الحقيقة أم غيرها. إذا لم يدركنا مشاة ملك مصر وعرباته قبل فوات الفرصة فإن عزيرو سيصنع بنا ما صنعه في نيا (المجاورة)، وحينئذ لن نبكي وحدنا، بل سيبكي معنا أيضاً ملك مصر مما يرتكبه عزيرو من أعمال، لأنه سيرفع يده حينذاك ضد مولانا؛.. لقد أرسلنا إلى مولانا ملك مصر عشرين رسالة ولم نتلق رداً منه...». ولكن عزيرو كان يدعي كأبيه أنه إنما يفعل ذلك من أجل سيده فرعون مصر، وأنه عندما يستولي على المزيد من المدن، إنما يريد حمايتها من الحثيين الذين يطمعون في ضمها إلى

سيادتهم. وقد قام بزيارة الفرعون في طيبة ليثبت له أنه عبد مخلص، وأنه صادق فيما يفعل لمصلحة الفرعون. وفعل مثله لابآيو في فلسطين عندما كتب إلى الملك يقول: «إلى الملك مولاي وشمسي يقول لابآيو، خادمك والتراب الذي تطأ عليه: أجثو لدى قدميك سبعاً وسبعاً». وبعد أن يدفع التهم المنسوبة إليه، ويتنصل مما رمي به من الخيانة والطمع في أملاك المخلصين للفرعون، يقول له: «وهل إذا طلب الملك مني امرأتي أستطيع أن أمنعها، وإذا كتب لي: اضربْ قلبك بخنجر ومُتْ، فهل أخالف أمر مولاي؟»[٢٠]. وقلد لابآيو ابناه من بعده اللذان خلفاه في الحكم. ولعل فيما ذكرناه من الرسائل القليلة يوضح ما آلت إليه أحوال سورية في عهد أمنحوتب الثالث، وفي عهد ابنه أمنحوتب الرابع الذي احتفظ قصره في أخيتاتون حيث قام تل العمارنة فوق أطلالها بتلك الرسالة التي تم اكتشاف ٣٧٧ رسالة منها. ويبدو جلياً تخاذل أمنحوتب الثالث في الدفاع عن مصالح مصر في سورية في أواخر سني حكمه الذي دام حوالى ٣٨ عاماً، لانشغاله بحياته الخاصة وإيثار حياة الدعة والراحة على متابعة مصالح مصر الخارجية بنفسه، والتأكد مما يجري في سورية وما يجد في غربي آسية من أمور.

وخلف أمنحوتب الثالث آثاراً عمرانية تشهد على ثراء العهد، وعلى قدرة الفنان المصري وبراعته في التعبير بأمانة وجمال عن الموضوعات التي يرسمها أو ينقشها. ومن تلك الآثار ما شاده مهندسوه في معبد الأقصر لثالوث طيبة المقدس آمون رع، وموت، وابنهما خنسو الذي يعتبر نموذجاً لمعابد الآلهة في عصر الدولة الحديثة. واشتهر في عهده المهندس أمنحوتب بن حابو الذي شغل منصب مستشار الملك ووزيره، وقد ذاعت شهرته وسمعته الطيبة عند مواطنيه المعاصرين والذين جاؤوا في العصور اللاحقة، فقدسوه، ثم ألّهوه وعبدوه أسوة بإيمحوتب مهندس عصر الأسرة الثالثة، وخصصوا له مقصورة في المسطح العلوي من معبد الدير البحري. وبقي من الآثار التي أشرف

(٢٠) انظر الرسائل ذوات الأرقام: ٦٠، ٤٢، ١٦٤، ٢٤٤، ٢٧٠، ٢٨٧، ٢٥٤، ٢٥٢.

أمنحوتب بن حابو على إقامتها تمثالا «ممنون» اللذان يمثلان الملك أمنحوتب الثالث جالساً على عرشه.

كان الإله الرئيس آمون يتمتع بمكانة خاصة لدى ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وكان كهنته ذوي نفوذ فعّال في الدولة التي تغدق على معابد آمون وعلى كهنته العطايا والأملاك، وتسرف في رصد الأوقاف الضخمة للمعابد، وقد كانت هذه تبلغ أحياناً خراج مدن كاملة، وتفسح في المجال لكبار كهنة آمون لبلوغ المناصب الكبيرة. فأدى ذلك إلى إثارة نوع من السخط وعدم الرضا في صدور كهنة الأرباب الآخرين، ولكنهم لم يلجأوا إلى التعبير عما يعتمل في داخلهم علانية. وأحس الملك تحوتمس الرابع بما يدور في خلد كهنة الأرباب الآخرين فسعى إلى إيجاد الحد الأدنى من التوازن بينهم وبين كهنة آمون. وعندما جاء أمنحوتب الثالث إلى الحكم عين ابنه الأكبر كبيراً لكهنة الإله بتاح في منف، وجعل ابناً ثانياً كاهناً أكبر للإله رع في أونو (هليوبوليس)، ومنح كبير الكهنة في منف إمعاناً منه في حفظ التوازن لقب «رئيس الرائين الأعلى». ولم يحظ تصرف الفرعون لدى كهنة آمون بالرضا على الرغم من بنوته لآمون وادعائه بأنه ولي العرش بإرادته، إذ يفسح تصرفه المجال واسعاً لإحياء عبادة الشمس وينال إلى حد ما من السيادة الكاملة لآمون وعبادته. وظهرت منذ عهد والده تحوتمس الرابع دعوة جديدة لعبادة الشمس كرمز لإله الشمس وآية من آياته الكبرى في اسم آتون. واتخذ الملك أمنحوتب الثالث موقفاً عادلاً بين آمون وآتون، فلم يتراجع عن محاباته لآمون وكهنته، كما ذكرنا، ولكنه في الوقت نفسه لم يقف في وجه الدعوة لآتون وعبادته، بل سمح لأنصار آتون بعبادته جهرة في طيبة نفسها، وتقبل إطلاق اسمه على بعض أركان قصره[٢١]، جرياً على عادة الملوك المصريين في النزوع إلى إطلاق الحرية لتعدد المذاهب الدينية.

ولكن وصول أمنحوتب الرابع ابن أمنحوتب الثالث إلى الحكم أدى إلى

---

(٢١) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ٣٦١.

محاباة آتـون وعبادتـه على حسـاب آمون. ولم يشتط في أول دعـوته إلى عبـادة آتون، بل أمر ببناء معبد له على مقربة من معبد الكرنك، وأعلن أن آتون ما هو إلا رع إله الشمس الذي يظهر في السماء في هيئـة قرص الشمس، معبـود المصريين منذ الأزل، ومعبود الأجداد.

كان أمنحوتب الرابع منذ نعومة أظفاره ينجـذب إلى الدين، وينـزع إلى الإغـراق في التفكير فيـه، ويمتلك نفساً مـرهفـة الحس زادت من ابتعـاده عن الدنيا ومشاغلها. وقد أثرت طريقته في الحياة في جسمه وفي قسماته، كـما يبدو من صوره وتماثيله، إذ يظهر وجهـه مستطيـلاً، وجسمه مـترهلاً ونحيـلاً، وفي ذلـك تمثيل للواقـع الذي أخـذ بـه الفنـانـون في عهـده بعـد أن ابتعـدوا عن الأساليب الفنية القديمة تمشياً مع دعوة ملكهم الدينية، الواضحة.

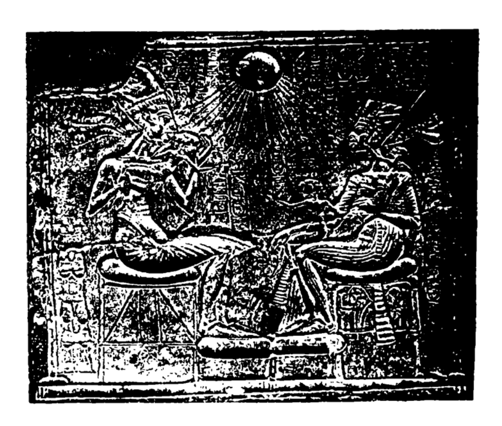
بقي أمنحوتب الرابع في طيبة أربـع أو خمس سنوات يبشر بـدعوتـه إلى عبادة آتون، ولم يمس عبادة آمون وكهنته بأي سوء، بل كان يتحاشى التـورط في نزاع مع كهنة آمون. ولكن هؤلاء أخذوا يتوجسون خيفة منـه، فأضمـروا له العداء وجافوه، وأبدوا له البغض والكراهية. واستمـر حتى العام الخـامس من حكمـه في قبول تعـدد الأرباب، كـما يبدو من آثـاره وهـو يتعبـد لـلآلهـة الكلاسيكيين القدماء. ثم أعلن نفسه «نبياً للإله رع حر أختي الذي يتهلل في الأفق باعتباره النور الذي يتبدّى في قرص الشمس آتون»، ووجّه بكتـابة اسم آتون كلما ورد داخل الخرطوش الخـاص بالملوك، ومثّـل آتون بقـرص الشمس الذي تصدر عنه أشعة كثيرة، تنتهي بأيـد مفتوحـة، تمسك بـرموز الحيـاة التي تهبها للكون الفسيح وكائناته. وبدأ عهد جديد من حكم أمنحـوتب الرابـع، فأعلن التوحيد على الملأ، ونادى بعبادة إله واحـد لا شريك لـه، ونبذ عبـادة الآلهة الأخرى وعـلى رأسها آمـون الذي ضـاق ذرعاً بتسلط كبـار كهنته عـلى مرافق الدولة ومؤسسـاتها، والتدخـل في شؤون الحكومـة، وبثرائهم الفـاحش، وما عاد يتحمل مساوئهم وعداءهم الصريح له ولدعوته التوحيدية. وتخلى عن اسمـه أمنحوتب الـذي يتضمن اسم آمـون، وسمّى نفسـه أخنـاتـون، بمعنى «النـافع لآتـون، أو المخلص لآتون». وانتقـل من العاصمـة طيبة إلى مـدينـة

جديدة سماها أخيتاتون، بمعنى «أفق آتون»، كان قد اختار موقعها بنفسه، في بقعة من أرض مصر لم يُعْبَد فيها من قبل إله أو إلهة، تتوسط الأراضي المصرية، وتقوم على أنقاضها اليوم بلدة العمارنة قرب مدينة أسيوط.

وأقام أخناتون المعابد الكثيرة لآتون في مصر، وأمر بإقامتها في سورية والنوبة، وبعث المبشرين إلى المدن المصرية، وإلى حواضر المناطق التابعة للسيادة المصرية، لنشر دعوته التوحيدية التي رأى فيها ربما عاملاً على تأكيد عرى الاتصال والوحدة الدائمة بين مصر وبين أتباعها وجيرانها. وأحاط به في مقر حكمه الجديد أنصار له وأتباع مخلصون، اعتبروه نبياً أو أكثر من نبي، ووقفت زوجته نفرتيتي (نفر نفرو أتون) منذ بداية الدعوة إلى جانبه، تقوي عزيمته وتشد من أزره.

وأعلن أخناتون الحرب على آمون وكهنته، فأمر بمسح اسم آمون من جميع المعابد في طيبة وفي جميع أرجاء مصر، مستخدماً سلطة الفرعون النافذة حتى لا يبقي أثراً لعبادة آمون. ولكن دعوته لم يطل بها الأمد، ولم تلق الانتشار الذي كان صاحبها يتصور أن تبلغه، لا في مصر ولا في خارجها. فلم يكن من السهل أن يفهم فحواها العامة الذين تمكنت عقائد تعدد الآلهة من نفوسهم، بل لم يشغل أولئك أنفسهم بهذه الدعوة الغريبة في ظروف معاناتهم المعيشية، بعد أن تردى اقتصاد البلاد، وشحت مواردها المالية نتيجة إهمال الملك شؤون الدولة، وانصرافه بكليته إلى دعوته الدينية. وكان لكهنة آمون دور بارز في فشل الدعوة، إذ لم يركنوا إلى الهدوء، بل حاربوها بكل ما أوتوا من نفوذ في أوساط الشعب الذي كان يتمسك بعبادة رب الدولة آمون، ويصعب إقناعه بعبادة إله جديد هو آتون. وما إن مات أخناتون حتى ماتت دعوته التوحيدية، وارتد عنها أتباعه، بل وأقرب الناس إليه، ومنهم أخواه سمنخ كارع، وتوت عنخ آمون الذي كان اسمه توت عنخ آتون.

كان أخناتون ملكاً يختلف في أسلوب حياته عن أسلافه وخلفائه من الملوك، فقد حرص على أن يبتعد عن مظاهر التزمت الملكي التقليدية وقدسيتهم المصطنعة، وفتح أبواب قصره لرعاياه، وللفنانين ليروه على



أخناتون ونفرتيتي يداعبان أطفالهما تحت أشعة آتون

حقيقته، ويصورروه وعائلته في حياته اليومية، يجلس مع زوجته نفرتيتي، ويلاعب أولاده الصغار ويداعبهم، ورسموه على سجيته وهو يأكل، وحين يتعبد ربه، من دون تنميق أو تكلف، وقد أثرت شخصية الملك ودعوته في الفن المصري فظهرت مدرسة اتسمت بطابع الواقعية، وتصوير الطبيعة في بساطة متناهية، ودعت إلى التحرر من قيود الأساليب القديمة في النقش والنحت والتصوير، استمر تأثيرها إلى ما بعد أخناتون وإلى نهاية حكم الأسرة الثامنة عشرة وبداية الأسرة التاسعة عشرة

وانعكس هذا التطور في الآداب التي واءمت في عهد أخناتون دعوة التحرر والانعتاق من الأساليب الأدبية التقليدية، وتغليب لغة الناس البسيطة بالعامية على اللغة المتحجرة النموذجية. وقد ألف أخناتون نفسه أناشيد لإلهه الواحد الأحد، يناجيه فيها بأرق العبارات، وأصدق العواطف الفطرية التي

لا تعرف الزيف، ولا تعبر إلا عن طهر النفس المتوجهة بكليتها إلى خالقها. وقد اخترنا منها المقتطفات التالية:

«ربٌّ أحد من دون شريك، برأتَ الدنيا وكنتَ فرداً. خلقتَ البشر والأنعام وكل ما يسعى على الأرض بقدم، ويحلق بجناح في الفضاء. وأقطار سورية والسودان[٢٢] وأرض مصر. وجهتَ كل فرد فيها إلى موطنه، ودبرت للجميع شؤونهم، فأصبح لكل فرد رزقه، وتعينَّ لكل فرد أَجَلُه، وظلت الألسنة بينهم في النطق متباينة والهيئات والألوان متمايزة.

آتون يا ضوء النهار، يا عظيم المجد! بلداناً نائية تهبها الحياة وترسل الغيث من أجلها.

يموج الغيث فوق الجبال كالبحر الخضم ويسقي الحقول بين القرى.
ما أجلّ تدبيرك يا ربُّ الخلود! فيضان في السماء لأهل القفار وحيوان الفلا وما يدبّ على قدم. وفيضان سواه لأرض مصر يأتي إليها من دنيا العدم». فالإله آتون عند نبيه أخناتون إله عالمي يشمل دنيا الإنسان برحمته وخيراته أينما كان في أصقاع الأرض، وليس إلهاً إقليمياً يضن بنفعه، ويقصره على أهل إقليمه وحدهم، فهو المسؤول عن تأمين رزق البشر جميعهم، أبيضهم وأسودهم، سواء أكانوا في سورية، أو في النوبة، أو في مصر نفسها، وهي البلاد التي كان المصريون يعرفونها أو سمعوا بها.

وقال يخاطب آتون، ويصور بهجة الكون لإشراقه:
«الزهور ونبت الأرض ينفتح لمرآك، وتتملكه النشوة لمحياك
والأنعام تتراقص على أقدامها، والطيور في أوكارها تطوي أجنحتها
وتنشرها تسبيحاً لآتون الحي خالقها..
الأرض بأسرها عامرة بحبك
والعشب والشجر يتمايل لمطلع وجهك

(٢٢) سورية هي «خارو»، والسودان هي «كوش» في النص المصري الأصلي.

وأسماك الماء تتراقص لرؤيتك...»[٢٣].

وقال أخناتون يمجد الإله في سمائه، ويردد بعضاً من آلائه، ويذكر نتفاً من مظاهر رحمته على العالمين:

إنك تشرق جميلاً في أفق السماء، يا آتون الحي، يا بدء الحياة
إنك إذا أشرقت من جبل النور الشرقي، ملأت كل بلد بجمالك ومحبتك
إنك جميل. إنك عظيم
إنك تتلألأ عالياً فوق كل بلد
إن أشعتك تحيط بالأراضي كلها، وبكل شيء خلقته،
لأنك رع (إله الشمس) وتستطيع الوصول إلى نهايتها
وتستطيع أن تجعل كل بلد أسيراً لك
إنك الإله الذي دان الجميع بحبك
إنك ناء ولكن أشعتك على الأرض
إنك تشرق على وجوه الناس
ولا يستطيع أحد منهم أن يتكهن بسر قدومك.

* * *

حينما تغيب في أفق السماء الغربي
تظلم الأرض وتبدو كأنها ميتة
فيستقر الناس في حجراتهم وقد غطوا رؤوسهم، وينخفض صوت زفيرهم
ولا ترى عين عيناً أخرى
ويتسلل اللصوص إلى المنازل، ويولون الأدبار دون أن ينتبه أحد إليهم
أما السباع فتخرج من عرينها، والثعابين تنساب وتلدغ

(٢٣) الترجمة منقولة هنا من كتاب عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، ص٣٦٣-٣٦٤.

ويخيم الظلام، ويعم الأرض السكون
عندما يذهب خالقها ليرتاح في أفقه الغربي.

* * *

وإذا أصبح الصباح تشرق متألقاً في الأفق
وعندما تضيء كآتون أثناء النهار
يتبدد الظلام ويستيقظ كل من القطرين مهللاً
ويصحو الناس ويقفون على أقدامهم
ثم ينتشرون في الأرض يباشر كل منهم عمله
وترتفع أذرعتهم متعبدين لشروقك
فيغتسلون ويلبسون ملابسهم
أما الماشية فهي فرحة في مروجها
وأما الأشجار والنباتات فهي تزدهر
لأنك أنت الذي توقظهم
وأما الطيور فهي ترفرف تاركة أوكارها وتسبح أجنحتها بحمدك
وتقفز الحملان على أقدامها
وكل ما يطير أو يحط، إنهم يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم.

* * *

وتبحر السفن شمالاً وجنوباً
وتعج الطرق بالناس
أما الأسماك في النهر فهي تقفز أمامك
إن أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر
إنك تعطي الحياة للجنين في أحشاء النساء
وإنك تصنع من النطفة الرجال
وإنك أنت الذي يُعنى بالطفل في بطن أمه، وتسكن روعه فلا يبكي
إنك بمثابة المربية للجنين وهو لا يزال في بطن أمه
إنك تهب نسيم الحياة لكل إنسان خلقته
عندما ينزل (الطفل) من بطن أمه ليتنفس، في اليوم الذي يولد فيه

تفتح فمه، وتمده بكل ما يحتاج إليه
وإذا صاح الفرخ في بيضته، فإنك تهبه الهواء ليبقيه حياً
ثم تمده بالقوة حتى يثقب بيضته، ويخرج منها وهو يوصوص إذا ما حان موعده
ويسعى على قدميه إذا خرج منها.

* * *

ما أكثر مخلوقاتك، وما أكثر ما خفي علينا منها..
ما أعظم تدبيرك يا سيد الأبدية
وهبت نيل السماء لشعوب الجبال.
أنت الذي صنعت الدنيا بيديك
فأحييت حيوانها وكل من يسعى فوق أقدامه
أما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم السفلي

* * *

أشعتك تغذي كل بستان
ويحيا النبات وينمو إذا ما أشرقت عليه
لقد خلقت الفصول لكي تحيا كل مخلوقاتك
وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك
ثم جعلت لهم الصيف ليذوقوا حرارتك.. لقد خلقت من نفسك الأشكال التي تعد الملايين..
مدناً وقرى وقبائل وجبالاً وأنهاراً
كل العيون ترنو إليك، لأنك آتون الذي يشرق في النهار على الأرض.

* * *

أنت الذي يعطي الحياة لكل البلاد الأجنبية النائية
إنك في قلبي
وليس ثمة من يعرفك غير ابنك نفر ـ خبرو ـ رع ـ وع ـ إن ـ رع (أخناتون)

إنك أنت الذي ثقفته بتدبيرك وقوتك
إنك أنت الذي أمددته بالحكمة.

* * *

أنت الذي صنعت الدنيا بيديك
وخلقت الناس كما شئت أن تصورهم
إذا ما أشرقت عاش الناس
وإذا ما غربت ماتوا
إنك أنت الحياة، ولا يحيا الناس إلا بك
تستمتع العيون بجمالك حتى تغرب
فإذا غربت في الأفق الغربي، ترك الناس أعمالهم كلها
ولكن عندما تشرق ثانية، يزدهر كل شيء لأجل الملك
لأنك أنت الذي خلقت الأرض
وأنت الذي خلقت الناس لأجل ابنك الذي ولد من صلبك
ملك مصر العليا ومصر السفلى
الذي يحيا على الحق
سيد الأرضين أخناتون
الذي يحيا إلى الأبد
وكذلك من أجل كبرى الزوجات الملكية محبوبته
سيدة الأرضين نفر ـ نفرو ـ آتون (نفرتيتي)
التي تحيا وتزدهر دائماً إلى الأبد»[٢٢٣آ].

لقد كان لأناشيد أخناتون وترانيمه لتمجيد الرب آتون تأثير لا يخفى في المطلعين، في آداب الشرق، ولا سيما في الأدب الكنعاني الذي تناهى إلى مسامع أهله ما ردده أخناتون عن طريق دعاته الذين وصلوا إلى سورية

(٢٢٣آ) الترجمة منقولة في معظمها حرفياً من كتاب سيد توفيق: معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، ص٢٦٥ ـ ٢٧١، عن ترجمة قام بها عبد المنعم أبو بكر.

للتبشير بالدين التوحيدي، فتناقلته الأجيال حتى بدت معالمه واضحة بصورة غير مباشرة في المزمور ١٠٤ من مزامير العهد القديم الذي اتخذ مؤلفه من نشيد أخناتون نموذجاً رئيساً نسج على منواله(٢٤).

وصل أمنحوتب الرابع إلى الحكم وهو في السادسة عشرة من عمره حوالى عام ١٣٦٤ ق.م، فعاونته أمه تي، ذات النفوذ الواسع في زمن أبيه، في السنوات الأولى، واستمر في الحكم حتى عام ١٣٤٧ق.م، وكانت دعوته التوحيدية شغله الشاغل، فانصرف عن الاهتمام بالشؤون الخارجية للدولة التي أهملها قبله والده في السنوات الأخيرة لحكمه. ولم تلق رسائل الحكام في سورية التي كانوا يرسلونها إليه مستغيثين به، طالبين منه العون لرد هجمات الطامعين في مدنهم، وبلادهم التي تعرضت إلى نهب جماعات الخابيرو، ولا سيما في فلسطين، كما ذكرنا، منذ عهد أبيه، لم تلق رداً يليق بإخلاصهم للملك المصري، وترفع من معنوياتهم في تصديهم لحاكم شكيم لابآيو، ولحاكم أورشليم عبدو خيبا الحوري الأصل. وزاد الأمر سوءاً أن حاشيته كانت تضم أفراداً تخفي عنه حقيقة ما يجري في سورية، ولا تسمح بوصول أخبارها إليه، بل كانت تطمئنه إلى بأس جيشه ومحافظته على مصالح الدولة ورعاية شؤونها، وتخفي عنه تذمر القادة العسكريين الذين كانوا غير راضين عن الأوضاع المتدهورة في سورية ولا يملكون حق التصرف حيالها من دون أمر الفرعون.

تولى الحكم من بعد أمنحوتب الرابع أخوه سمنخ كارع الذي شاركه من قبل فيه لمدة قصيرة وكان زوجاً لابنة أخناتون الكبرى، ثم خلفه توت عنخ آمون، أخو أمنحوتب الرابع الصغير(٢٥) الذي تربى في بيئة التوحيد،

---

(٢٤) J. Cerny, in: FW, 3, 253; Davies, El - Amarna, VI, pl. XXVII; Sandman, Texts from the Time of Akhenaton 1938, 93f., II, 5 - 6 10; 15, 7.
وانظر أيضاً: أدولف إرمان: ديانة مصر القديمة، القاهرة ١٩٥٢؛ محمد بيومي مهران، أخناتون، عصره ودعوته، الإسكندرية ١٩٧٩.

(٢٥) لم تتأكد العلاقة الأسرية التي تربط بين أخناتون وخليفتيه سمنخ كارع وتوت عنخ آمون، إن كان الثلاثة أخوة أم إن صلة قرابة أخرى تربط بينهم، وكانت سبباً في =

وكان يدعى توت عنخ آتون «الصورة الحية لآتون»، وتزوج من ابنة أخناتون الوسطى، ثم ارتد عن ديانة آتون، وهجر مركزها أخيتاتون إلى العاصمة القديمة طيبة، وغير اسمه المتضمن اسم آتون، إلى «توت عنخ آمون» ليعبر صراحة عن تعلقه بعبادة آمون، وعوّض كهنته عن السنوات الماضيات ما فات معابده من ثروات، وما أصابهم من مهانة في عهد أخناتون، وأبدى لهم آيات التقدير والتبجيل، كما غير اسم زوجته الذي كان يشتمل على اسم آتون، وجعل اسم آمون مكان آتون. ولم يطل حكم توت عنخ آمون أكثر من تسع سنوات، لا يُعرف عنها شيء غير ما خلفه في مقبرته التي تم الكشف عنها في وادي الملوك في طيبة عام ١٩٢٢ من أثاث جنائزي كان سبباً في شهرته في العصر الحاضر. وتضمن الأثاث القناع الذهبي للملك الشاب، وتوابيته الثلاثة التي صنعت على مقاسه وعلى هيئته، وقد بطن داخلها بالذهب الخالص، وكسا الآخرين ذهب مطعم بالأحجار شبه الكريمة. وضم الأثاث عرشه وصندوق أمتعته الخاص، ومجموعة من تماثيله المعدنية، وتماثيل عدد من أفراد أسرته، وأدوات الزينة والأواني المرمرية الشفافة. ويعد هذا الأثاث الثمين مثالاً متواضعاً على ثراء ملوك الأسرة الثامنة عشرة، إذ لم يطل حكم توت عنخ آمون غير سنوات معدودات (١٣٤٧ ـ ١٣٣٨ق.م) حتى يجمع من الممتلكات ما يمثل ثراء الملوك الحقيقي الذين قدر لهم أن يحكموا سنين طويلة. واعتبر أثاث هذا الملك مثالاً لمقتنيات الملوك في قبورهم لأن قبره كان كاملاً، لم تطله أيدي اللصوص لاختفائه عن الأنظار تحت قبر الملك رعمسيس السادس.

لجأت أرملة توت عنخ آمون إلى الاتصال بملك الحثيين شوبيلو ليوما ليبعث إليها واحداً من أبنائه تتزوجه، ويصير ملكاً على مصر. ولكن أحد كبار الضباط المدعو آي سارع إلى الجلوس على عرش مصر، قاطعاً الطريق على الأمير الحثي الذي لقي مصرعه اغتيالاً.

وصول سمنخ كارع إلى الحكم مع أخناتون، ثم انفراده بالحكم لمدة سنة على الأقل، ثم خلافة توت عنخ آمون له وهو في سن الثامنة فحسب.



القناع الذهبي للملك توت عنخ آمون

وبقي الملك آي في الحكم حوالى أربع سنوات (١٣٣٨ ـ ١٣٣٤ق.م)، ثم خلفه ضابط آخر يدعى حور محب، كان من قادة الجيش في عهد أخناتون، وكان يسعى للوصول إلى العرش، وينتظر الفرصة المواتية بعد أن مات توت عنخ آمون في مقتبل العمر، وشغر العرش المصري من ملك شرعي ينتسب إلى الأسرة الملكية الحاكمة، ولكن آي سبقه إليه، فتوجب عليه الانتظار.

وطال حكم حور محب حوالى خمس وعشرين سنة (١٣٣٤ ـ ١٣٠٩ق.م) قضاها بمحاولات للإصلاح الداخلي، وإعادة الأمن والاستقرار

إلى البلاد بعد فترات القلق المتتالية التي بدأت في عهد أمنحوتب الرابع. فأصدر عدداً من القوانين التي أمر بنقشها على الوجه الداخلي للصرح العاشر بالكرنك، وعين قضاة جدداً لتطبيقها بغية تخليص الشعب من أعمال النهب والفوضى الإدارية، ومن تسلط الموظفين الكبار والعسكريين الذين كانوا يختلسون أموال الدولة، ويعتدون على العمال والفلاحين ويسلبونهم حقوقهم وأجورهم المشروعة(٢٦).

وأمر حور محب بترميم المعابد وصيانتها، وبإقامة الصرحين التاسع والعاشر، والصرح الثاني في معبد الكرنك، وبدأ مهندسوه عمارة بهو الأعمدة الذي أكمله رعمسيس الثاني من بعده. وتذكر حولياته أنه قام بحملة عسكرية استعاد بها مجد الملوك المحاربين من الأسرة الثامنة عشرة، فبلغ كركميش، مروراً بجبيل، في العام السادس عشر من حكمه. فأعاد للمصريين الثقة بقوة دولتهم، وحمل الحثيين في عهد معاصره الملك مورشيلي الثالث على التفكير بمهادنة المصريين ومسالمتهم.

وينسب إلى حور محب طمس أسماء كل من الملكين آي ونوت عنخ آمون، ونقش اسمه مكانيهما، كما أغفلت القوائم الملكية في عصر الرعامسة (قائمة أبيدوس وقائمة سقارة) اسميهما واسم أخناتون وسمنخ كارع، واعتبرت حور محب خليفة أمنحوتب الثالث الشرعي.

الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٩ ـ ١١٨٤ق.م):

انتقلت مقاليد الحكم من الملك حور محب، آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة إلى صفيه وزميله في الجيش بارع مسسو الذي كان وزيره ونائبه على مصر العليا ومصر السفلى، ووليا للعهد. ولم يكن هذا يقل في عمره عن عمر حور محب إلا سنوات قليلة، فاعتلى العرش وقد تقدمت به السن، فاستعان بابنه سيتي على تصريف شؤون البلاد، فاتخذه وزيراً له وقائداً للجيش،

---

(٢٦) Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 240 - 245.

وجعله كاهناً أعلى لآمون، واعتمد عليه اعتماداً كلياً، إذ توسم فيه الخير للبلاد من بعـده، فعينه وليـاً للعهـد وخليفـة لـه في الحكم. فصـدق ظن الملك رعمسيس الأول، كما صار اسمه بعد الاختصار، وضمن لأسرته الحكم من بعد، واعتبره المؤرخون مؤسساً للأسرة التاسعة عشرة، ولم يقيض له الجلوس على العرش أكثر من سنتين (١٣٠٩ ـ ١٣٠٧ق.م)، فخلفه سيتي الأول (من ماعت رع ١٣٠٩/ أو ١٣٠٤ ق.م. ـ ١٢٩٤/ ١٢٩٠ق.م)[٢٧] الذي حمل اسماً سبقه إليه جده، ذا علاقة بالإله ست القديم (أخي أوزير) الذي كان سكان الدلتا في شمالها الشرقي يقدمون عبادته على غيره من الآلهة منذ القديم، وله معبد كبير فيها، في تانيس (أواريس عاصمة الهكسوس)، حيث كانت أسرته تقيم من قبل.

تسلم سيتي الأول الحكم في سن النضوج، بعد أن تجاوز الأربعين من عمره، وتجمعت لديه خبرة في أمور الحكم والسياسة، وقيادة الجيش. ويبدو أن سيتي الأول كان قد حزم أمره، وقرر منذ الأيام الأولى لتوليه الحكم، أن يعيد لمصر أمبراطوريتها كما كانت أيام ملوكها الأوائل من الأسرة الثامنة عشرة، وأن يستعيد لها هيبتها وقوتها في الشرق القديم بعد أن نال منها أعداؤها، وتطاولوا على نفوذها، ولا سيما في سورية حيث حل الحثيون محل الميتانيين، ووضعوا يدهم على شمالي سورية ووسطها، وتجاوزوا قادش إلى الجنوب، ووصل نفوذهم حتى جبيل. وأطلق سيتي الأول على نفسه لقب «معيد الولادة» أو «مجدد الولادة»، كما أُطْلِقَت على السنة الأولى وعلى السنة الثانية من عهده العبارة نفسها وحم مسوت أي «تجديد الولادة»، دلالة على بدء عصر جديد من النهضة، تبعث فيه مصر من جديد، وكأنها تولد من جديد.

سارع سيتي الأول في السنة الأولى من حكمه إلى الخروج بحملة

---

(٢٧) هناك من يربط بين وصول سيتي الأول إلى العرش وبين دورة نجم الشعرى اليماني Sirius الذي توافق مع بداية التقويم المصري، ويرى وفقاً لذلك أن سيتي الأول استلم الحكم في عام ١٣١٧ ق.م. انظر: FW, 3, S. 266 - 267; FW, 2, S 249.
انظر كذلك ص ١٠١.

عسكرية إلى فلسطين لإعادة السيطرة المصرية عليها، وإعادة الأمن والاستقرار فيها بعد أن عاشت فترة عصيبة من القلق والاضطراب الذي سببه بعض من حكامها الطامعين في أراضي الجوار، كما رأينا في عهد أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع (أخناتون) خصوصاً، علاوة على ما كانت جماعات الخابيرو تقوم به من خراب وتدمير ونهب. وقد نجح سيتي الأول في جهوده، وأثمرت مساعيه في تهدئة الأحوال في فلسطين، وفي كبح جماح القبائل البدوية فيها والتي كانت تثير القلاقل في جنوبي فلسطين وفي أطراف شبه جزيرة سيناء، وهي القبائل التي كان المصريون يدعونها باسم شاسو. ثم تابع السير بعد ذلك إلى لبنان، بعد أن ضمن الحماية لنفسه في الخلف، وتأكد من السيطرة على فلسطين، وعاد من جبالها بخشب الأرز والصنوبر. وأتبع سيتي الأول الحملة الأولى بحملات ثلاث أخرى في سنوات حكمه التالية، حيث التقى بجيش الحثيين عند قادش. ولعله أحرز نصراً مؤزراً، كما يذكر، على الحثيين، ولكن الأحداث في عهد خليفته رعمسيس الثاني لا تؤكد ما ذهب إليه والده، لأن معركة سيتي الأول مع الحثيين لم تكن حاسمة، وكان على رعمسيس الثاني أن يحاربهم في المكان نفسه بعد سنوات.

وتذكر أخبار حروبه التي خلفها مكتوبة ومصورة بأحجام كبيرة، لم تعهدها أخبار الحروب المصورة في مصر، على الجدار الشمالي والجدار الشرقي الخارجيين لبهو الأساطين في معبد الكرنك، أنه قام بحملتين ضد القبائل الليبية على حدود مصر الغربية.

ومن مآثر سيتي الأول سعيه إلى ترميم المعابد الدينية التي بدأ حور محب بترميمها قبله، والتي أصابها الإهمال أيام ثورة أخناتون الدينية. وقام في عهده معبد أبيدوس الذي شاده للإله أوزير، فغدا واحداً من أجمل المعابد المصرية بتصميمه الفريد ودقة النقوش البارزة على جدرانه.

واهتم سيتي الأول باستغلال مناجم الذهب في الصحراء الشرقية، وكان حريصاً على سلامة بعثات التعدين وأمنها، فأمر بحفر بئر على الطريق المؤدية إلى البحر الأحمر في وادي الحمامات، كما فعل من قبل في شبه جزيرة سيناء

ليضمن لقواته ماء الشرب في بواديها. كما عثر على خريطة تحدد أماكن بعض مناجم وادي الحمامات وتصور الطرق المؤدية إليها، وتحدد الطريق الموصلة إلى البحر الأحمر، قد تكون الخريطة الأولى في التاريخ القديم (أو الثانية بعد خريطة مدينة نفر العراقية التي يعود تاريخها إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد). وثمة خريطة أخرى يعود تاريخها إلى عهد سيتي الأول نقشت في الكرنك تحدد مواضع الحصون المصرية المنتشرة على الحدود الشمالية الشرقية، وحتى جنوبي فلسطين.

مات سيتي الأول بعد حكم دام حوالى خمسة عشر عاماً، ودفن في مقبرته بوادي الملوك التي تُعَدّ من أكبر المقابر الملكية المصرية وأفخمها، وقد ازدانت بالمناظر والنصوص الدينية والفلكية؛ ومن اللافت أن آثاره العمرانية كانت تمتاز كلها بالضخامة والفخامة وبجمال نقوشها وتصاويرها، وبذوق فناني عهده الرفيع، إضافة إلى أنها تمت في وقت قصير، وما لم ينته منها أنجزه ابنه.

رعمسيس الثاني (وسر ماعت رع ستبن رع ١٢٩٠ - ١٢٢٣ق.م) الذي وجد عند توليه الحكم دولة قوية، كما كان حال مصر عندما مات تحوتمس الأول، ولكنه أضاف إلى إنجازات والده العسكرية والسياسية والعمرانية ما جعله أشهر ملوك مصر في تاريخها القديم. وقد ساعده على اكتساب هذه الشهرة الآثار التي خلفها في جميع أرجاء مصر، إذ كان شغوفاً بتخليد اسمه سواء عن طريق بناء المعابد والقصور والمسلات والتماثيل الضخمة في عهده وبإيعاز شخصي منه، أو عن طريق تسجيل اسمه على الآثار العمرانية وعلى التماثيل التي كان أسلافه قد أقاموها بعد محو أسماء أصحابها، وانتحال عدد من تلك التماثيل والآثار لنفسه. وقد توافر له الوقت الكافي لإنجاز مشروعاته العمرانية الضخمة، إذ عاش ما يقرب من تسعين سنة، وقضى في الحكم حوالى سبعة وستين عاماً. كما توافرت لديه همة الشباب، وخبرة الحاكم السياسية والعسكرية، وقُيّض له رجال وقفوا إلى جانبه من ذوي الكفاءة الإدارية والخبرة الحربية.

نقل رعمسيس الثاني عاصمة الدولة إلى بلدة في شمال شرقي الدلتا، ما



رعمسيس الثاني

لبثت أن استحالت إلى مدينة كبيرة تليق بمصر وبملكها الطموح، إذ عمرها بالمعابد والمنشآت التي أقامها مهندسوه ورجاله، وبالتماثيل التي صنعها فنانوه أو جلبها رجاله من بعض المعابد في الوجه البحري ومصر الوسطى، ومن الصعيد، واختاروها للعاصمة الجديدة، إضافة إلى بعض المسلات التي نصبوها في المدينة. وسمّى رعمسيس الثاني عاصمته نسبة إليه بررعمسسو، أي «دار رعمسيس»، وقد اندثرت معالم هذه المدينة إلا أنها كانت تقوم على

مقربة من الفرع التانيسي لنهر النيل، ولعلها نشأت على أنقاض عاصمة الهكسوس أواريس، أو قامت مدينة تانيس، عاصمة الأسرة ٢١ نفسها على أنقاض بررعمسسو حيث تقع مدينة صان الحجر اليوم. ويبدو لنا أن رعمسيس الثاني اختار هذا الموقع لمقر حكمه ليكون في مركز متوسط من مصر ومناطق نفوذها في سورية التي كان يفكر في إحكام السيطرة المصرية عليها، فهو أقرب بكثير من مدينة طيبة البعيدة، ومناسب للدفاع عن مصر أمام أخطار الشمال المتعاظمة التي تتأتى من نمو القوة الحثية في سورية وغيرها، ومن تزايد الهجرات إلى المناطق الليبية التي تتطلع إلى الاستيطان في الدلتا. أما في الجنوب فليس ثمة من خطر فعال يتهدد مصر أو يلوح في الأفق. وقد أثبتت الوقائع التاريخية اللاحقة ما ذكرنا آنفاً.

بدأ رعمسيس الثاني معاركه الحربية بالتصدي لهجوم قامت به جماعات من شعوب البحر في العام الثاني من حكمه، أطلقت عليهم حولياته اسم الشردانا (لعلهم سكان سردينيا من بعد) الذين قدموا بمراكبهم عن طريق البحر، فانتصر عليهم، وقتل منهم الكثيرين، وأسر الناجين، وضمهم إلى صفوف قواته. وعندما اطمأن إلى ولائهم وإخلاصهم اتخذهم حرساً خاصاً له. وتنبه رعمسيس إلى خطر القبائل الليبية في الغرب فبنى حصناً دفاعياً عند موقع العلمين ووضع فيه حامية عسكرية لمراقبة الحدود. ثم انصرف بعد أن أمن على أحوال الدلتا إلى الاهتمام بالموقف الخطير في سورية الذي بدأ يتأزم بعد وصول الملك الحثي مرواتللي إلى الحكم.

خرج رعمسيس الثاني في العام الرابع من حكمه (حوالى عام ١٢٨٦ق.م) في حملة استطلاعية إلى سورية، ووصل إلى نهر الكلب جنوبي مدينة جبيل حيث أوعز بنقش ثلاث كتابات على صفحة صخور الجبل المشرف على النهر، والمطل على البحر الأبيض المتوسط[٢٨]. ثم قفل راجعاً

---

(٢٨) لم تكن كتابات رعمسيس الثاني وحدها التي نقشت على هذه الصخور، بل استهوى الكتابة عليها بعده عدد من الملوك الأشوريين بينهم شلما نصر الثالث، ومن بعده =

إلى عاصمته، مؤكـداً سيادة مصر عـلى ساحـل أمورو (اللبنـاني). ثم تقدم في العام الخامس عبر فلسطين إلى فينيقية. ولم يمض شهر على خروجه من مصر، حتى كان على مشارف مدينة قادش التي كان الحثيون يتخـذونها مركـزاً متقدماً لعملياتهم الحربية في سورية، وحيث جرت المعركة المشهورة بين أقـوى جيشين في الشرق القـديم، وسبب شهرتهـا التفاصيـل التي سجلهـا رجـال رعمسيس الثـاني كتابـة وتصويـراً على جـدران معابـد عدة في مصر والنـوبة: في معـابـد الكرنك، والأقصر، والرمسيوم، وأبيدوس، وأبي سمبل[٢٩]. كما دونوهـا على صفحـات البردي، حتى غـدت معلومـات المؤرخـين عن هـذه المعـركـة أغنى معلومات توصلوا إليها في تاريخ المعارك الحربية في مصر، دقة وتفصيلاً.

كان جيش المصريين ينقسم إلى أربـع فرق، دعاها رعمسيس نسبـة إلى الأرباب: آمون، ورع، وبتـاح، وست، وتعد الفـرق الأربع مجتمعـة عشرين ألف مقـاتل، زحفت بـاتجاه وادي العـاصي، يتقدمهـا الملك، الـواحـدة وراء الأخرى، بعد أن جعلت وراءها السـاحل، تاركة مسافـات محدودة بينهـا. وما إن بلغ رعمسيس نهر العاصي عند ربلة حتى جاءه بدويـان ادعيا أنهما هـاربان من الجيش الحثي ويـرغبـان في القتـال إلى جـانب المصريـين، وأن الحثيين تـراجعـوا إلى حلب، وغـادروا قـادش فـانخـذع الملك المصري، وظن أن الاستيلاء على قـادش صار في متنـاول يده وأسرع بفـرقة آمـون، وأمر قـادة الفرق الثلاث الأخـرى باللحـاق به. فعـبر نهر العاصي مـع حرسـه الخاص، ونزل إلى السهل، ثم توقف شمال غربي قادش لينصب خيـامه. ثم لحقت بـه فرقة آمون، ووصلت إلى السـهل، ومن ورائها فرقة رع التي كانت تهم بعبـور النهر، بينما كانت الفرقتان الأخريان بعيدتين في الجنوب. وبينما كان رعمسيس ينتظر وصول الفرق لاقتحام المدينة، وقع جاسـوسان بـأيدي الحـرس الملكي، ذكرا الحقيقة واعترفا بأن الملك الحثي وجيشه العرمرم والمدجج بمختلف أنـواع

أسرحدون وغيره، ثم الملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني. انظر كتابنا: تاريخ الشرق القديم (١)، سورية، ص ١٢.

(٢٩) Gardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, 1960.

الأسلحة يختبىء في الجهة الشمالية من قادش بانتظار اللحظة المناسبة للهجوم الكاسح على المصريين. فلم يعد بوسع رعمسيس إلا أن يرسل في طلب استعجال وصول فرق جيشه. ولكن الحثيين كانوا أسرع، إذ تقدموا إلى الجنوب وفاجأوا فرقة رع على عجل، قبل أن تتخذ وضعية القتال، فولى الجنود الأدبار فزعين، ولجأوا إلى المعسكر الملكي للاحتماء به. وهنا أظهر رعمسيس «بطولته الفذة» فركب عربته الحربية، واستنصر ربّه آمون، وزج بنفسه في أتون المعركة الضارية، واستطاع «بمفرده، ومن دون أحد إلى جانبه»، كما قال بعد المعركة، أن يخترق صفوف العربات الحثية التي كانت تعد على زعمه ٢٥٠٠ عربة. وكان استبساله في المعركة، واستماتته سبباً في تغير مجرى المعركة التي انقلبت لصالح المصريين «بفضل ربه آمون»، كما قال، «وبفضله الشخصي». ولكن الانقلاب الحقيقي للمعركة تأتّى من أن الجنود الحثيين انشغلوا بأغلبيتهم عن المعركة والقتال بجمع الغنائم الثمينة التي وقعوا عليها في المعسكر الملكي، حيث فاجأتهم قوات من الفتيان الشجعان الذين كان رعمسيس قد اختارهم من قواته الخاصة، وأوصاهم بمراقبة الأوضاع والتدخل في الوقت المناسب لنجدته حين الحاجة. فتقدموا مسرعين من الجهة الشمالية الغربية بعد أن تركوا مراكزهم على ساحل أمورو[٣٠]، وفاجأوا الحثيين المشغولين بنهب المعسكر، فأسقط بأيدي هؤلاء، وتشتت شملهم، وظنوا أن أولئك مقدمة لجيش كبير وراءهم، فسقط كثيرون منهم قتلى، ورمى آخرون بأنفسهم في النهر، فلاقوا الموت غرقاً، بينما كان الملك الحثي يقف على الضفة الأخرى من النهر عاجزاً، ولا يستطيع الحؤول دون سحق جيشه الذي أحاطت به قوات المصريين من كل جهة بعد أن وصلت الفرقتان الأخريان، فرقة بتاح، وفرقة ست. فدارت الدائرة، على الجيش الحثي، ولم

---

(٣٠) ذكرت النصوص المصرية هذه القوات الخاصة باسم نعرن أو نعرونا بمعنى «الشباب، الفتوة»، وهي عبارة تطابق في لفظها عبارة نعر في الكنعانية (العبرية)، وتعني «الغلام، الشاب» كذلك. ولعل رعمسيس دعا أولئك الفتية الشجعان بهذا الاسم بعد أن سمع اللفظة ذات المدلول المناسب لهم في فينيقية (الكنعانية)، أو هي لفظة مصرية من الألفاظ المشتركة مع اللغات السامية الكثيرة.

يعـد أمام الملك الحثي من سبيـل غير الاستسـلام، وطلب الصلح واستعطاف الملك المصري ليقبـل السلام. وذكـرت المصادر المصريـة أن الملك الحثي أوفد رسولاً إلى رعمسيس لهذا الشأن ليقول على لسانـه: «هل من الخـير أن تبطش بعبيدك (الحثيين) ووجهـك الكريم يلحـظهم دون أن ترحم؟ تـذكر مـا فعلته بالأمس حين أتيتَ فقتلتَ منـا مئات الألـوف. أتأتي اليـوم أيضاً ولا تبقي من رجالنا بـاقية؟ لا تكن قـاسياً في حكمـك أيها الملك الهمام، فالسـلام خير من الحرب...». فاستجاب الفرعون لطلب الملك الحثي مـوواتللي «وبسط يديـه من أجـل السلام، وقفـل راجعـاً مـع جنـوده في أمـان إلى أرض مصر»[٣١]. ولكن الرواية الحثيـة عن معركـة قادش تختلف في تفـاصيلها وفي النتيجـة التي أسفرت عنها، إذ تذكر النصوص المسمارية التي عثر عليهـا في العاصمـة الحثية خـاتوشـا (بوغـازكوي اليـوم) أن الجيش الحثي ألحق هزيمـة سـاحقـة بـالجيش المصري في المعركة التي دارت رحاها عنـد قادش، وأنـه طارد الجيش المصري المنهزم حتى مدينة دمشق[٣١].

وذكـرت المصادر المصريـة أسماء عـدد كبير من المقـاتلين الحثيـين الـذين سقطوا في المعركة، ولكن الخسـائر في صفوف الجيش المصري لم تكن أقـل من خسائر الحثيـين في أي حال من الأحـوال، فقد بينت المصـادر المصرية نفسهـا بالكتابة والتصوير سير المعركة المؤلم والمفجع للطرفين. ومن المؤكد أن المعـركة الضارية لم تؤد إلى نتيجة حاسمة للفريقـين المتحاربـين، لأن جيشيهما انسحبـا بعدها من ساحة المعركة، بل لم تتحدث المصـادر المصرية عن احتـلال الجيش المصري لـمدينة قـادش، ولم تتطرق إلى الحـديث عنها، مـع أن خروج الجيش بقيـادة الفـرعـون إنما كـان هـدفـه الأول إعـادة مـدينـة قـادش ذات الأهميـة الاستراتيجية إلى السيادة المصرية، ثم كبح جماح الحثيين ووضع حد لأطماعهم في سورية، وردعهم حتى لا يفكروا بالتقدم باتجـاه الجنوب ثـانية. ويشـير إلى فشل خطط رعمسيس كذلك تحسن العلاقات الواضح بعد المعركة مباشرة بين

---

(٣١) عبد العزيز صالح، المرجـع السابق ٢٥١ ;Breasted, The Battle of Kadesh, 1903
Kuentz, La Bataille de Qadeche, 1928.

دويلة أمورو وبين دولة الحثيين التي أحكمت قبضتها على أمورو في وسط سورية، في المنطقة نفسها التي جرت معركة قادش فيها، بينما تراجع رعمسيس الثاني بجيشه إلى الجنوب ليعيد تنظيم قواته، ويراجع خططه. ولعل الطرفين كليهما مالا إلى الهدوء وآثرا وقفاً مؤقتاً للقتال بينهما، إذ يستنتج من صور رعمسيس الثاني أن صدامات متقطعة بينهما حدثت لاحقاً في مناطق عدة من سورية، ومنها منطقة تونيب، شمال غربي قادش، التي خرج إليها بجيشه في العام الثامن من حكمه ليحارب الحثيين فيها ويقهرهم.

وفي العام الواحد والعشرين من جلوس رعمسيس على العرش تم عقد معاهدة صلح بينه وبين ملك الحثيين الجديد خاتوشيلي الثالث بعد أن طرأ تحول على العلاقات بين الدولتين الكبريين في الشرق القديم، كان سببه ظهور منافس جديد في الشرق ينذر بالخطر الشديد على مصلحة الطرفين في سورية خصوصاً، يتمثل في الدولة الأشورية التي بدأت آنذاك عصرها الوسيط وأخذت تتطلع إلى مد سيادتها على الجزيرة العليا. في الوقت الذي تعرضت فيه الدولة الحثية وشواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقية والجنوبية لهجرات متقطعة لجماعات أسمتهم المصادر المصرية «شعوب البحر» الذين بدأت طلائعهم ترنو بأنظارها إلى شواطىء مصر ودلتاها، كما رأينا من أمر الشردانا الذين صدَّ رعمسيس الثاني هجمة لهم في العام الثاني من حكمه.

فوصل في هذا الوقت (حوالى عام ١٢٧٠ق.م) موفدان ملكيان أرسلهما خاتوشيلي إلى قصر الملك رعمسيس في حاضرته في الدلتا، وهما يحملان لوحة من الفضة نقشت عليها بنود المعاهدة بين دولة الحثيين والدولة المصرية بالخط المسماري وباللغة البابلية[٣٢].

---

(٣٢) عثر على أجزاء من نص المعاهدة بصيغتها البابلية مكتوبة على لوحين مسماريين (مشوهين) في العاصمة الحثية خاتوشا. وثمة نسختان للمعاهدة بترجمتها المصرية، إحداهما تتضمن النص الكامل، منقوشة على جدار معبد الكرنك، والثانية بقايا من عشرة أسطر على لوحة في طيبة أيضاً.

وتنص المعاهدة على تعهد كل دولة من الدولتين بعدم الاعتداء على أراضي الدولة الأخرى، وعلى إقامة دفاع مشترك بينهما ضد الأعداء الخارجيين، وعلى تسليم اللاجئين السياسيين. ولكنها لم تبين الحدود الفاصلة بين الدولتين، بل تركتها على ما كانت عليه في الواقع تعبيراً عن حسن النية لدى الطرفين اللذين تعاهدا على الكف عن استخدام القوة العسكرية ضد بعضهما، بعد أن أشارا في مقدمة المعاهدة إلى علاقات الود القديمة التي كانت تربط بين بلديهما، ونددا بالحرب الأخيرة التي نشبت بينهما، وتعهدا بأن المعاهدة ستبقى سارية المفعول في الحاضر وفي المستقبل. ثم أشهدا في الختام الأرباب المصريين والأرباب الحثيين على المعاهدة، كما جرت العادة عند توقيع الاتفاقيات، وتوعدا باللعنات من ينكص العهد، وطلبا البركة لمن يحفظه(٣٣).

ثم بدأت المراسلات الودية بين الطرفين تتوالى، ومنها مراسلات بين الملكة نفرتاري، زوجة رعمسيس الثاني، وبين الملكة تودوخيبا، زوجة الملك خاتوشيلي الثالث. وتأكدت عرى الصداقة والسلام بين الدولتين بعد ثلاث عشرة سنة من توقيع الاتفاقية عندما أرسل الملك الحثي ابنته الكبرى بمرافقة حاشية كبيرة إلى مصر، ومعها الهدايا الثمينة، زوجة للملك المصري الذي استقبلها استقبالاً يليق بالأميرات ذوات الأصل الرفيع، وأكرم وفادة الوفد المرافق، وجعل العروس من زوجاته الأثيرات، وأعطاها اسماً مصرياً، «وأصبح الملكان قلباً واحداً كأخوين، ولم تعد هناك حفيظة في قلب أحدهما على الآخر» كما يقول النص المصري الذي يروي قصة ذلك الزواج السياسي، والذي نقش على جدران معبد الكرنك ومعبد أبي سمبل.

أتاحت فترة حكم رعمسيس الثاني الطويلة له أن يستمتع بحياة مترفة، وكان رجلاً مزواجاً، فأنجب كثيراً من الأولاد، حتى بلغ عددهم أكثر من ١٣٠، ومنهم حوالى المائة من الذكور، كما قدر بعض المؤرخين. ولما طال به

---

(٣٣) انظر النص الكامل للمعاهدة عند: توفيق سليمان، دراسات في حضارات غرب آسية القديمة، ص ٢٩٤ - ٣٠٣.

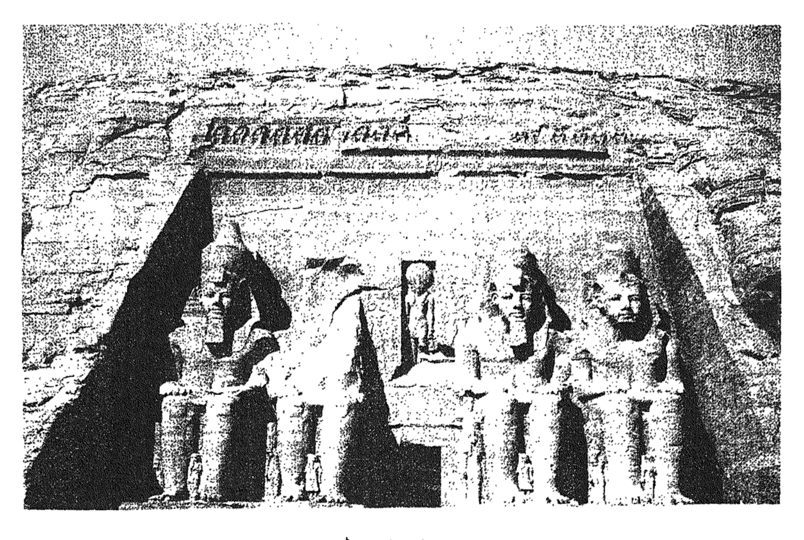
العمر، حتى التسعين عاماً، فإن ولاية العهد انتقلت بين ثلاثة عشر ابناً، مات اثنا عشرة واحداً منهم في حياته، حتى وصلت مرنبتاح.

كما وفرت له فترة حكمه الطويلة إقامة عدد كبير من المعابد والمقاصير والتماثيل الخاصة في طول البلاد وعرضها، ويبرز منها الجزء الأمامي من معبد الأقصر، وتكملة بهو الأساطين في معابد الكرنك، ومعابده في أبيدوس وطيبة حيث أكمل بناء معبدي والديه، وزاد عليهما معبدين له فيهما ومنهما معبد الرمسيوم في طيبة. وقد اشتهر معبده الكبير في أبي سمبل الذي بناه لعبادة آلهة مصر الكبار: آمون رع (إله طيبة)، وبتاح (إله منف)، ورع حرأخت (إله أونو/ هليوبوليس) الذي نقره مهندسوه، مثل معبده الصغير الذي خصصه لعبادة الإلهة حتحور ولزوجته الأولى نفرتاري في صخر وادي النيل، كما نحت فنانوه في مدخل المعبد الكبير في قلب الجبل زوجين من التماثيل لمليكهم رعمسيس الثاني الذي يبدو جالساً بحجم ضخم، إذ يبلغ ارتفاع التمثال الواحد منهما حوالى عشرين متراً. وخلف في النوبة كذلك عدداً من المعابد، ومنها معبد بيت الوالي جنوبي أسوان، ومعبد جرف حسين إلى الجنوب منه، ومعبد الدر وكلها منحوتة في الصخر، وغيرها من المعابد في النوبة العليا التي لم يعمر منها الكثير، مثلها مثل آثاره في الدلتا التي اختفت في معظمها تماماً.

دُفن الملك رعمسيس الثاني في وادي الملوك، وعثر على مومياته في خبيئة الدير البحري، وتم نقلها إلى المتحف المصري.

وانتقل الحكم إلى ابنه مرنبتاح (١٢٢٤ - ١٢١٤ق.م) بعد أن تقدمت به السن.

وتعرضت مصر في عهده إلى غزوة شعوبية من حدودها الغربية الليبية هذه المرة. فقد هدأت الأحوال في سورية، وركن الحثيون إلى الهدوء بعد تصالحهم مع رعمسيس الثاني، وما عادوا يشكلون أي خطر على مصر، بل عمد مرنبتاح إلى الوفاء بما اشتملت عليه المعاهدة التي عقدها والده معهم، فأرسل إلى «بلاد خاتي» شحنات من الحبوب بناء على طلب ملك الحثيين،



رعمسيس الثاني يتصدر واجهة معبد أبي سمبل بالنوبة

مساعدة غذائية من مصر لحلفائها الحثيين الذين تعرضت بلادهم للمجاعة التي أودت بحياة الكثيرين من سكان آسية الصغرى في جهاتها الغربية حيث بدأت طلائع شعوب البحر تتدفق عليها[٣٤].

جاءت جماعات من القبائل الليبية التي كانت تطمع دائماً باستيطان الدلتا إلى حيث تتفرع قناة من نهر النيل إلى الشمال الغربي من مدينة أونو في جنوبي الدلتا، ونصبت خيامها مقابل مدينة بوبسطة. فأصبحت مدينتا أونو ومنف في وضع خطر يحتمل تعرضهما لانتشار المهاجرين في ربوعهما، بل وطغيان تلك الجماعات على سكانهما. ويطلق النص المصري[٣٥] الذي يتحدث عن وصول هؤلاء في العام الخامس من حكم الملك مرنبتاح عليهم اسم ليبو، وهي أول مرة يرد فيها ذكر هذا الشعب الذي أعطى ليبية اسمها من بعد. ويقول إنهم جاؤوا بزعامة شيخهم ماراي الذي صحب عائلته معه، زوجاته الاثنتي عشرة وأولاده كلهم، إشارة إلى أنه ينوي الاستقرار في الدلتا والعيش فيها، ورافق قبيلته قبيلة المَشْوش الليبية أيضاً التي سبق للنصوص المصرية أن ذكرتها عند حديثها عن الحروب ضد القبائل الليبية، وعدد من القبائل الأخرى غير الليبية: اللكّا، والشردانا، والأوكاواش، والتورشا، والشكلش، الذين جاؤوا إلى ليبية من جهة البحر، وانضموا إلى القبيلتين الليبيتين. وما إن بلغت الملك مرنبتاح أخبار أولئك الغرباء حتى جهز جيشاً كبيراً من المشاة، والعربات الحربية، في يوم واحد، ودفع به إلى المعركة في اليوم التالي، وما هي إلا ساعات ست من القتال، حتى انجلى الموقف عن هزيمة ساحقة للغرباء الذين تدافعوا للنجاة بأرواحهم، وعلى رأسهم زعيمهم ماراي الذي رمى بأسلحته أرضاً، وخلف زوجاته سبايا بيد المصريين، وسقط ستة من أبنائه في المعركة، وعاد إلى وطنه ليلاً بخفي حنين، بعد أن خلّف وراءه ستة آلاف قتيل وتسعة آلاف أسير. ويبدو أن الملك مرنبتاح تلقى نبأ

(٣٤) كما طلب الملك الحثي المعونة الغذائية من ملك أوغاريت، وموكيش في الوقت نفسه نظراً لجدبة الظروف السيئة التي ألمت بالبلاد. انظر كتابنا: تاريخ الشرق القديم (١) سورية، ص ٢١٧.

(٣٥) FW, 3, 200, 207, 276.

النصر العظيم في قصره ولم يشترك في المعركة بنفسه على عادة أسلافه. ولكنه أمر بقتل الأسرى على الخازوق بعد تعذيبهم، وهو أمر لم يسبق للملوك المصريين أن فعلوه، ولعله ابتغى بذلك تلقين الغزاة درساً لا ينسونه أبداً.

وعثر في المعبد الجنائزي للملك مرنبتاح في طيبة على لوحة من الجرانيت نقش عليها نص مصري يتحدث عن نصره المؤزر على الليبيين، وتُلقِّب الملك بعبارة لافتة، وهي «قاهر جزر»، وجزر هذه مدينة في فلسطين هاجمها الجيش المصري في عهد الملك مرنبتاح، كما يفهم من هذه اللوحة، وقهرها في سياق حملة عسكرية وجهها الفرعون إلى فلسطين لإخضاع ثوارها ومثيري القلاقل فيها. وينتهي النص بجمل ذات أهمية تقول: «أُلْقي بالأمراء أرضاً، فصاروا يصرخون شالوم (سلام!)، وتعرضت كنعان لكل بلاء، وسقطت عسقلان وجزر (بيد المصريين)، ودُمِّرت ينوعام حتى أصبحت والأرض سواء، وأُهْلِكت إسرائيل (عن بكرتها) ولم يعد لها من ذرية، وتحولت خارو (أي فلسطين وسورية) إلى أرملة لمصر..»[٣٥آ] ولما كان ذكر إسرائيل في هذه اللوحة أول ذكر لها في النصوص المصرية القديمة التي تم الكشف عنها إلى الآن فقد اشتهرت بين المؤرخين باسم «لوحة إسرائيل». وقد حمل ذكر إسرائيل في عهد مرنبتاح الباحثين إلى احتمال أن يكون هذا الفرعون هو فرعون موسى، أو يكون والده رعمسيس الثاني هو فرعون موسى الذي سخر بني إسرائيل للعمل في بناء مدينته بررعمسسو، وهو الذي اضطهدهم وأذاقهم الأمرين قبل أن يلجأوا إلى الهرب من أمامه[٣٦]، وعندما هاجم مرنبتاح فلسطين كان الإسرائيليون مستقرين فيها.

(٣٥آ) نُقِش النص على أحد جدران معابد الكرنك، وثمة نص مطول ألّفه نائب الملك في النوبة لمديح مليكه، يذكر فيه تفاصيل الحدث الخطير، ونقشه على مداخل عدد من معابد النوبة. FW, 3, S. 275.

(٣٦) ينقسم الباحثون في الدراسات المصرية وفي الدراسات التوراتية إلى فريقين بخصوص الرواية التوراتية. فريق يعتقد أنها قصة موضوعة برمتها ولا تمت إلى الواقع التاريخي بشيء، إذ لم تذكر وثيقة مصرية واحدة أن بني إسرائيل أقاموا في مصر ثم خرجوا منها، حتى ولم تشر كتابة واحدة حتى عهد مرنبتاح أية إشارة عابرة يستدل منها على =

أعاد مرنبتاح الأمن والاستقرار إلى سورية الجنوبية بعد إخماد ثورات بعض من مناطقها، وقد أكدت ذلك علاقات مصر الطيبة بغزة وصور وعدد من المدن الجبلية، كما تؤكد مذكرات أناستازي(٣٧)، الموظف المصري الذي كان يقيم على الحدود المصرية السينائية.

واستمرت القلاقل بعد عهد مرنبتاح الذي خلفه ابنه **سيتي الثاني**، فلم يطل عهده أكثر من سبع سنوات. ثم نشبت أزمة حول وراثة العرش بعد وفاته، إلى أن وصل ابن لسيتي الثاني إلى الحكم، واسمه سابتاح، وكان طفلاً صغيراً فوقف إلى جانبه الخازن الأكبر للدولة، باي، وهو مصري من أصل سوري، وفرض وصايته عليه. وعندما مات الملك الطفل تسلمت الملكة تاوسرت زمام الحكم بصفتها زوجة للملك الراحل سيتي الثاني. فاتخذت ألقاب الملوك، وبسطت سيطرتها على كل البلاد، ولم تلق أية معارضة تذكر. إلا أن عهدها القصير شهد اضطرابات داخلية انتهى بها عصر الأسرة التاسعة عشرة.

الأسرة العشرون (١١٨٤ ـ ١٠٨٧ق.م):

انتقل الحكم من الأسرة التاسعة عشرة إلى الأسرة العشرين من دون مشاكل، إذ تسلم الحكم ضابط عسكري ذو نفوذ في الدولة يدعى **ست نَخْت**، استطاع أن يعيد للبلاد استقرارها، ورضي الجميع باعتلائه العرش لأن البلاد كانت بحاجة ماسة إلى حاكم قوي الشخصية، في وقت كانت تتعاظم فيه الأخطار الخارجية، وتتهدد مصر الاضطرابات الداخلية. ولكن حكمه لم يتجاوز السنتين، فخلفه على العرش ابنه **رعمسيس الثالث** (وسر

= صدق الرواية التوراتية عن وصول الإسرائيليين إلى مصر، والإقامة فيها، ثم الخروج منها. وفريق مؤمن بالتوراة، ويعتقد أن ما جاء فيها لا ريب فيه وصحيح بحرفيته، ولا يرى مانعاً من تصديق الرواية التوراتية، وإن لم تتوافر فيها الوثائق التاريخية.

(٣٧) بردية أناستازي/ ٢، انظر: FW, 3, S. 200, Anm. 33 (S. 349).

مـاعت رع ـ حقا أونـو ١١٨٢ ـ ١١٥١ق.م) الـذي يعـد مؤسس الأسرة العشرين الحقيقي. وتشبّـه رعمسيس الثـالث منـذ اليـوم الأول لـوصـولـه إلى الحكم بسلفـه القديم رعمسيس الثـاني، فاتخـذ الألقاب نفسهـا، وجعله مثله الأعلى في الحكم، وسمّى أولاده كذلك باسمه وباسم أولاده.

تذكر نقوش الملك رعمسيس الثالث ونصوصه التي احتفظت بها جدران معبده في مدينة حابو بطيبة الغربية أخبار حروبه التي ذاد بها عن مصر، ووفق في مساعيه المتواصلة لدفع الأخطار الجسيمة عنها. وتمثلت الأخـطار الخارجيـة التي تهـددت مصر في عهده بـالقبائـل الليبية، وبجـماعات شعـوب البحر التي رافقتها من الغرب، أو التي جاءت من الشرق عن طريق البر ومن الشمال عن طريق البحر.

إذ تقدمت جماعات من القبائل من ليبية باتجاه الدلتا، في العـام الخامس من حكمه، لأول مرة بعد الهزيمة التي تعرضت لها في عهد مرنبتاح، ووصلت قلب الـدلتا، وهـاجمت مدنها، ودمـرت عدداً منهـا. وكانت تلك القبـائل من جماعات الليبـو المعروفـة، ومن المشوش، ومن قبـائل تسمى سپـد. ولم ينتظر رعمسيس الثالث طويلاً حتى هاجم الغـزاة، واشتبك معهم في معـركة آزرتـه فيها قوات من المقاتلين الأجانب من جمـاعة الشردانـا، فكبدهم فيهـا خسائـر فادحة في الأرواح وصل عدد قتلاهم فيها، كما تقول نصوصه، إلى ١٢٥٣٥.

ولكن معركة رعمسيس الثالث الكبرى كانت في العام الثامن من حكمه (حوالى عام ١١٧٥ق.م) ضد شعوب البحـر الذين وصلت جماعاتهم المؤلفـة من المقـاتلين المزودين بـأسلحة حـديديـة في عربـات حربيـة تجـرهـا الخيـول، وتصحبهم عائلاتهم في عربات تجرها الثيران من الشرق عن طريق الـبر، بعد أن دمـروا في تقدمهم كـل ما صـادفوه في طـريقهم الـطويـل بـدءاً من آسيـة الصغرى، عبر بلاد الحثيين الذين انهارت دولتهم ولم تقم لها قائمة من بعـد، وعـبر مدن السـاحل السـوري الفينيقية التي تعـرضت لأسـوأ دمـار عـرفتـه في تاريخها الطويل. وترافق ظهورهم من الشرق بوصول جمـاعات منهم بـأسطول حربي من الشمال عن طريق البحر إلى حيث يصب نهر النيل بفروعـه الشماليـة

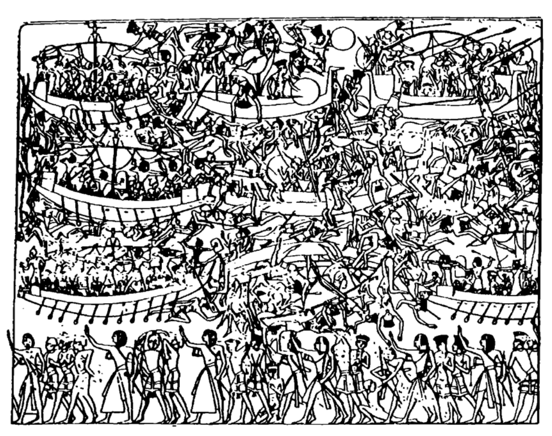
الشرقية في الوقت نفسه. ويصور رعمسيس الثالث الوضع آنئذ على الوجه التالي، إذ يقول: «اتفقت البلاد الأجنبية على التآمر (مع بعضها) في جزرها، (وقررت الغزو). وبسرعة مذهلة اختفت البلاد (التي تعرضت للغزو)، وتشتت شملها بالقتال، ودُمِرَتْ فجأة، ولم تستطع أي منها الصمود أمام أسلحتها ولا المقاومة، بدءاً من خاتي (دولة الحثيين)، وكوده (كيزوواتنا في جنوب غربي آسية الصغرى)، وكركميش، وأرزاوا (في آسية الصغرى أيضاً)، إلى ألاشيا (قبرص)، إذ دُمِرَتْ كلها دفعة واحدة. وأقام (الغزاة) معسكراً لهم في مكان من أمورو. لقد أبادوا شعبها، وصار بلده كأنه لم يكن من قبل. ثم توجهوا إلى مصر والنار تتقدمهم. وكانت قواهم تتألف من اتحاد بلاد البِلِسِت (الفلسطينيين) والزكريين والشكلش والدانيين والوشوش. فوضعوا أيديهم على البلاد في مدار الأرض كلها، وكانت قلوبهم مملوءة ثقة، وكانوا مقتنعين (بقولهم): سوف تنجح مشاريعنا»[٣٨]. . «ولكن عقل الإله كان واعياً وعلى استعداد لأن يقتنصهم كالطيور. . وهكذا نظمت حدودي في زاهي، وأعددت أمامهم الأمراء وقادة الحاميات والماريانو، وأمرت بتحصين مصبات الأنهار لتكون كالسد الكبير، وزودتها بسفن وزوارق وناقلات للجنود. وتألفت قوات المشاة من خيرة شباب مصر، وكانوا أشبه بالأسود الزائرة على قمم الجبال. وتألفت فرق الفرسان من عدّائين مهرة وقادة قادرين. . وكنت مونتو المقتدر أقف على رأسهم ليشهدوا بأنفسهم ما تفعله يداي. . أما من بلغ حدودي فلم تبقَ منه باقية، فانمحت قلوبهم وأرواحهم إلى الأبد. وأما من أتوا (بجموعهم) معاً عن طريق البحر فقد واجهتهم نار حامية على مصبات الأنهار، وأحاط بهم على البر سد من الحراب، استدرجوا إلى الداخل وحوصروا، وألقوا على وجوههم على الشاطىء، ثم قتلوا ومزقوا إرباً إرباً من القدم حتى الرأس، وغرقت سفنهم وأمتعتهم في البحر. . .»[٣٩].

---

(٣٨) انظر كتابنا: تاريخ الشرق القديم (١)، سورية، ص ٢١٨، والحاشية ٢١.

(٣٩) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ص ٢٦٠. وانظر كذلك:

Edgerton and Wilson, Historical Records of Ramses III, Chicago 1936, p. 25f.



قتال البر والماء في عهد رعمسيس الثالث ضد شعوب البحر

وقد صور الفنانون المصريون أكبر جماعات شعوب البحر، البلست، والريش يزين هاماتهم؛ والزكريين وهم يرتدون الخوذ ذات القرون. وأبدعوا في تصوير هزيمة العدو في البحر وفي البر، ويعد تصوير المعركة البحرية الأول من نوعه في التاريخ بما يشتمل عليه من تفاصيل دقيقة عن المعركة. فقد صور الفنانون سفن العدو وهي تدخل عن طريق البحر أحد مصبات نهر النيل لمهاجمة الأهلين الآمنين، وقد طوت أشرعتها. وإذا بها تفاجأ بالسفن المصرية التي تسد عليها طريق العودة والهرب، وتهاجمها، فتمزق أشرعتها، وتحطم صواريها، وتدمرها. فتتناثر أسلحة الأعداء في الماء، وتمتلىء المياه بالجثث التي تتلاعب بها الأمواج، ويقع في الأسر من نجا من القتل أو الغرق بيد الجنود المصريين الذين ينتظرونهم على ضفة النهر، أو يكون مصيره الموت الزؤام على أيديهم.

وجدت شعوب البحر سداً منيعاً في مصر حال دون متابعة السير وحط الرحال فيها، حسبما خططوا وانتووا، ووجدوا أنفسهم غير قادرين على دحر المصريين، وتدمير بلادهم، كما فعلوا في كل البلاد التي مروا بها، بفضل همة رعمسيس الثالث وحسن تعبئته لإمكانات مصر ضد الغزاة البرابرة. فنجت مصر من الكارثة التي كانت ستحل بها كما حلت بشعوب غربي آسية، وكتب لها أن تتابع العيش بكرامة في عهد ملكها الذي يعد آخر ملك حكم مصر من ملوكها المحاربين العظام، إذ لم يأت بعده من استطاع أن يحافظ على مكانة مصر المتميزة، ويحفظ لها مجدها الذي عرفته حتى أواخر عهده. وتراجعت جموع شعوب البحر بعد أن تشتت شملهم باتجاه الشرق، وعادوا من حيث جاؤوا، فاستقر قسم منهم، وهم البلست، على ساحل فلسطين التي أعطوها اسمهم، وهؤلاء هم الذين يذكرهم العهد القديم، والذين حاربوا الإسرائيليين وكانوا يتهددونهم بخطرهم الماثل حتى ذابوا في المجتمع الكنعاني. كما حل قسم منهم في السواحل الشمالية من فلسطين، وهم الزكر، الذين ذكرهم ونآمون موفد طيبة في عهد الملك رعمسيس الحادي عشر، آخر ملوك الأسرة العشرين في القرن العاشر قبل الميلاد، إلى جبيل، ثم اختفى ذكرهم بعد ذلك وانمحى اسمهم.

وعندما حل العام الحادي عشر من حكم رعمسيس الثالث تعرضت مصر لغزوة ليبية ثانية بزعامة قبائل المشوش الذين توغلوا في أراضي الدلتا، بعد أن دمروا أراضي قبائل التحنو المقيمة في الواحات، وشتتوا شملهم. فتصدى لهم الفرعون، وقتل زعيمهم المسمى مشيشر، واستولى على أسلحتهم التي كانت بينها سيوف بلغ طولها بين المتر والنصف، والمترين. ويبدو عدد من البلست الذين نقش اسم رعمسيس على جلدهم، في الرسوم التي تصور المعركة، وهم يقاتلون في صفوف جيش الفرعون، ومعهم قوات من الشردانا كذلك. ثم عفا رعمسيس الثالث عن المهاجمين، وقبل باستيطان أعداد كبيرة منهم في مصر، فجند بعضهم في جيشه، وسمح لبعض منهم بالعمل في المدن، واستخدم بعضهم عبيداً في القصر وعند النبلاء، وفي المعابد الدينية.

وتصور أخباره على جدران معبده في طيبة الغربية قيادته للجيش في

حملة إلى سورية، وصل في أثنائها مدن أرزاوا (في كيليكية)، وأمورو، وتونيب، ولكن من الصعب تحديد السنة التي خرج فيها. أو لعلها مجرد صور لتحركات عسكرية لم تنفذ على أرض الواقع، كصوره التي يبدو فيها وهو يتقدم الجيش في بلاد النوبة التي تمصرت قبله بأجيال وغدت تابعة لمصر وإقليماً من أقاليمها الأساسية. فقد تعود الملوك على تصوير أنفسهم وهم يخرجون بالجيوش، ويخوضون المعارك الحربية تقليداً للعظماء منهم، من دون أن تكون تلك المعارك حقيقية، ومن قبيل ذلك صور رعمسيس الثالث التي يظهر فيها في سورية والنوبة. ولكن الأوضاع الأمنية على الحدود مع سورية تغيرت فعلاً بعد اندحار شعوب البحر، وما عادت تتهدد مصر الأخطار من جهتها، حتى جاء الهجوم الآشوري في القرن الثامن قبل الميلاد، مع أن مصر فقدت سيادتها على سورية، بل ونفوذها منذ عهد رعمسيس الثالث أو في عهد خلفائه المباشرين. أما من الغرب فقد اختفى الخطر لمدة قصيرة، ثم عاد وجود الليبيين على الأراضي المصرية كما كان مقلقاً، للظهور من جديد في أثناء حكم الأسرة العشرين.

انصرف رعمسيس الثالث بعد أن هدأت الأحوال في البلاد، وبعد انتصاراته المتوالية على الليبيين وعلى شعوب البحر، إلى الإعمار، فخلف منشآت ضخمة تنبىء عن الثراء الذي وصلت إليه الدولة في عهده، ومن أبرزها معبدان خصص أحدهما، وهو الأكبر، لإقامة الشعائر الدينية لصالحه، ولعبادة آمون في غربي طيبة، والمعروف باسم معبد حابو والذي حفلت جدرانه بأخبار حروبه، ومعبد أصغر في رحاب معبد الكرنك في شرقي طيبة خصص للاحتفال بعيد جلوسه على العرش، وللاحتفال بأعياد آمون. ويعد الباحثون المعبدين من أكمل المعابد المصرية الباقية في عناصرهما المعمارية، وفي لوحاتها المصورة.

وتتحدث عن الأحوال الداخلية في عهد الملك رعمسيس الثالث، ولا سيما عن الأوضاع الاقتصادية منها، «بردية هاريس الكبيرة» (المحفوظة في المتحف البريطاني) إذ تعد وثيقة هامة، لأنها تمثل إعلاناً رسمياً قرأه خليفة

رعمسيس الثالث في يوم تتويجه ملكاً على مصر على ملأ من رجال الدولة، وعلى كهنة آمون خصوصاً الذين اجتمعوا لهذا الغرض، وعدد فيه إهداءات الملك رعمسيس الثالث للمعابد وأوقافه لها. وهو إذ عددها أمام الكهنة والمسؤولين بنفسه إنما يقصد إضافة إلى كسب ولائهم الموافقة على صرفها وتخصيصها من جديد. ويتبين من القوائم التي تحتويها البردية أن رعمسيس الثالث أقطع المعابد حوالى ١٢٪ من أراضي مصر الزراعية، ووضع ٦٪ من مجموع المصريين في خدمتها إضافة إلى ما كان بحوزتها من قبل، فغدا حوالى ٣٠٪ من الأراضي الزراعية ملكاً لها، وحوالى ٢٠٪ من المواطنين رهن تصرفها[٤٠]. وكان نصيب معابد آمون، من الثروات في طيبة وحدها نحو ٦٢ كغ من الذهب، ونحو ١١٨٩ كغ من الفضة، وحوالى ٢٨٥٥ كغ من النحاس. وكانت مراعيها تشتمل على ٤٢١٣٦٢ رأساً من الماشية، وأهداها رعمسيس ٢٨٣٣٧ رأساً دفعة واحدة (ليعوض عنها ربما ما أسهمت فيه من مواردها في نفقات حروبه)[٤١]. وكانت معابد رع في أونو، وبتاح في منف تستفيد كذلك من منح الفرعون، ولكن معابد آمون كانت المستفيد الأكبر، وكان كهنتها أصحاب النفوذ الأكبر في الدولة وعند الملك الذي جعل من الكاهن الأكبر لآمون منافساً خطيراً له، فشعر بوطأته خلفاء رعمسيس الثالث بكل وضوح حتى نهاية الأسرة العشرين.

ويبدو أن رعمسيس الثالث ورجال دولته كانوا يصرفون بسخاء على مشروعاته العمرانية وعلى المنشآت الملكية الخاصة، وكانت المعابد، ولا سيما معابد آمون، تتقاضى الخيرات الطائلة، كما ذكرنا، فلم يحسب أولئك حساباً للتغيرات التي طرأت على أحوال البلاد في السنوات الأخيرة من حكم رعمسيس، إذ بدأت موارد الدولة تقل نتيجة لضيق مجالات التوسع التي توافرت في عهود الملوك السابقين، والاعتماد على إمكانات مصر نفسها في الداخل، فأدى هذا الوضع الاقتصادي إل ظهور ضائقة معاشية لدى المواطنين عبرت عنه بردية يعود تاريخها إلى العام التاسع والعشرين من حكم

(٤٠) J. Cerny, in: FW, 3, S. 286.

(٤١) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٦٥.

رعمسيس الثالث، فتحدثت عن متاعب العمال في الجبانة الملكية في طيبة الغربية، وذكرت أنهم قاموا بإضراب عن العمل عدة مرات لتأخر المسؤولين عن صرف مرتباتهم الشهرية، ولأنهم جائعون وبحاجة إلى ما يقيم أودهم.

وروت مجموعة من ثلاث برديات قصة مؤامرة جرت في القصر الملكي كادت أن تودي بحياة رعمسيس الثالث. واشتركت في المؤامرة إحدى زوجاته مع بعض رجال البلاط ونسائه وحرسه، فصارت تدعى باسم «مؤامرة الحريم». ولكن أمرها انكشف، وأحيل المتآمرون وعلى رأسهم الأمير بنتاؤر إلى المحاكمة، وأصدر القضاة حكماً بإعدامهم مع ثلاثة من أنصاره.

تعاقب على الحكم بعد موت رعمسيس الثالث ثمانية ملوك، حملوا جميعهم اسم رعمسيس، وتميزوا بأسمائهم الملكية الخاصة. وكان بينهم اثنان على الأقل من أولاد رعمسيس الثالث. ولم يمتد حكمهم أكثر من ثمانين عاماً، عاشت البلاد فيها عهوداً من الأوضاع الاقتصادية البائسة، وحالات من الفوضى وغياب الأمن في البلاد، وتسلط الموظفين الكبار على المواطنين الضعفاء، وتفشي الفساد الإداري والرشاوي والسرقات. وتشابه الرعامسة، من رعمسيس الرابع إلى رعمسيس الحادي عشر بضعفهم وفي خضوعهم لنفوذ كاهن آمون الأكبر في طيبة الذي كانوا يهابونه، ففضلوا الإقامة بعيداً عن طيبة في الدلتا.

واتسم عهد الملك رعمسيس التاسع الذي طال حوالى عشرين عاماً بتعاظم سرقات مقابر الملوك، وظهرت المجاعة أكثر من مرة في عهود الرعامسة الأخيرين، ولا سيما في عهد رعمسيس العاشر الذي أضرب في عهده العمال عن العمل كما فعلوا في عهد رعمسيس الثالث نفسه. كما تذكر أخبار عهود الرعامسة المتأخرين إغارات من الليبيين الذين يحملون اسم ليبو ومشوش على المناطق السكنية والزراعية القريبة من طيبة نفسها. وتمكن فريق منهم من الاستيطان في جنوبي الفيوم، وهم الذين خرج منهم ملوك الأسرة الثانية والعشرين فيما بعد. وانقسمت إدارة مدينة طيبة في ذلك الوقت إلى إدارتين: شرقية وغربية، ترأس كلاً منها محافظ بصلاحيات كاملة، وكان المحافظان

يتنافسان فيما بينهما، كما حدث في عهد رعمسيس التاسع، إذ اتهم محافظ طيبة الشرقية المحافظ في طيبة الغربية بالتورط في حوادث سرقات مدافن الفـراعنة، وروت تفاصيلها «بردية أبوت».

وكـان الملك رعمسيس الحادي عشر آخر ملوك الأسرة العشرين، وقـد طـال حكمه إلى ثـمانية وعشرين عـاماً. وظهـر في عهده كـاهن آمـون الأكـبر أمنحوتب بأطماعه السلطوية في الجنوب، إذ بـدأ يجمع حـوله الأنصـار للقيام بحركة انقلابية عـلى الملك، ولكن نائب الملك بـانحسي في النوبـة تصدى لـه بـالقوة، وقـامت حرب بـين الزعيمـين تحت سمع وبصر الملك الـذي لم يحرك ساكناً من شدة ضعفه. ثم خلف أمنحـوتب في منصب الكاهن الأكـبر لآمون حريحور الذي كان قائداً للجيش، ثم أصبح نائباً للملك في النوبة، ومن بعد وزيراً قبل أن يتسنم رئاسة الكهنـة في طيبة. ولم يمض وقت طـويل حتى تجـرأ حريحور على أن يصور نفسه وهو يلبس تاج الوجهين، ويسمي نفسه ملكـاً في طيبة، ويضع اسمه داخل الخرطوش الملكي، ويتخذ الألقاب الملكيـة. ورضي الملك بما كان يجري، ولم يُبْدِ أية معارضـة. بل وسمى أنصـار حريحـور عهده «عصر النهضة»، وبدأوا يؤرخون الوثائق الرسميـة نسبة إليـه. واتبع حـريحور سيـاسة حكيمـة مع الكهنـة في الشمال، فلم يـظهر لهم العـداء، بـل صـادق رئيسهم المسمى سمندس.

وتتـوضح صـورة مصر الضعيفة في عهـد الملك الأخير من ملوك الأسرة العشرين رعمسيس الحادي عشر من خلال قصة ونآمون التي تعتبر من عيـون أدب الرحلات في العصـور القديمـة، ونموذجـاً للغة المصريـة القديمـة في عصر الدولة الحديثة المتأخر.

كان ونآمون موظفاً في معبد آمون في طيبة وعلى درجة من الثقافة الأدبية والـدينية. فكلفـه كبير الكهنـة حريحـور «في العام الخـامس من عصر النهضة» بالسفر إلى جبيـل لاستيراد الخشب الـلازم لإصلاح «سفينـة آمون» المقـدسة. ومرّ ونآمون، كما يذكر، بمدينة تانيس (أو بررعمسسو) وزار أميرهـا نيس بانب جـد وزوجته تانت آمون وسلمه رسالة من حريحور يطلب منه فيها مسـاعدتـه

في التوجه إلى جبيل. ويذكر ونآمون أنه وصل إلى مدينة دور شمالي الشاطيء الفلسطيني عن طريق البحر، وهي ميناء للزكر (الذين استوطنوا تلك المنطقة بعد أن انتصر رعمسيس الثالث عليهم وعلى جماعاتهم من شعوب البحر)، فتعرض للسرقة. ثم وصل إلى صور التي بات فيها ليلة، ثم غادرها إلى مدينة جبيل (وهي المدينة التي كان المصريون يقصدونها للاتجار وللحصول على خشب الأرز والصنوبر دون غيرها من المدن الفينيقية منذ عصر بداية الأسرات). وفوجيء في جبيل بأن أميرها يرفض استقباله ويطلب إليه مغادرتها. وعندما همّ بالعودة بعد انتظار طال تسعة وعشرين يوماً، كان يأتيه فيها مندوب الأمير الفينيقي ويأمره بمغادرة مدينة جبيل، إذبالمعجزة تحدث ويظهر آمون بجلال قدره لأمير جبيل ويوحي إليه بأن عليه استقبال رسوله ونآمون. وعندما مثل أمامه حكى له قصة متاعبه، وسفره الطويل الذي استغرق خمسة شهور بعد خروجه من أرض آمون. ثم سأله الأمير الفينيقي عن أوراق اعتماده، ولكن ونآمون لم تكن بحوزته مثل تلك الأوراق. فهزّأه الأمير، ثم وافق على تسليمه الخشب المطلوب بشرط أن يدفع له ونآمون ثمنها، وصرح أمير جبيل بأنه ليس خادمه ولا خادم من أرسله! ولم يرض أن يسلمه ما أتى من أجله من أخشاب حتى أرسل له حاكم تانيس ما اشترطه أمير جبيل. ولكن المشاكل لم تنته وقد اعترض سبيله في ميناء جبيل بعض الملاحين من الزكر، فكاد يموت حزناً وألماً لما يحل به. ولكن أمير جبيل ساعده في التخلص من قبضة أولئك الأشرار، وتركه يسافر عائداً إلى مصر مع الأخشاب. فهبت رياح رمت به على أرض قبرص، فاجتمع عليه أهلها ليقتلوه. ومرة أخرى يتم إنقاذه، وينجو بجلده بعدما أقنع ملكة قبرص بأنه رسول الإله آمون.

انتهى عصر الأسرة العشرين بضعف الدولة في الداخل، ويتردي شأنها في الخارج، كما رأينا من موقف أمير جبيل من ونآمون. وانتهت بنهاية الأسرة العشرين حقبة من تاريخ مصر القديم الذي تميز بظهور شخصيات كبيرة من الفراعنة جعلت منها أمبراطورية كبيرة في الشرق، وهي التي دعيت باسم «عصر الدولة الحديثة»، وبدأت بعدها «العصور المتأخرة».

الفصل السابع
العصور المتأخرة

تشتمل العصور المتأخرة على الأسر الواحدة والعشرين وما بعدها حتى الأسرة الثلاثين والواحدة والثلاثين التي انتهت بدخول الإسكندر المقدوني إلى مصر في عام ٣٣٢ ق.م. وهي عصور غلب على الحكومات التي تسلمت السلطة فيها الضعف، ووصل إلى الحكم فيها ملوك من أصل مهجن، وغير مصريين، لم يفتحوا مصر عنوة، بل كانوا متمصرين يدينون بعقائد مصر ويعبدون أربابها. كما رزحت مصر في بعض منها تحت حكم الأجانب الأشوريين والفرس، وعرفت نهضة أخيرة في ما يسمى بالعصر الصاوي في عصر الأسرة السادسة والعشرين.

الأسرة الواحدة والعشرون (١٠٨٧ - ٩٤٥ق.م):

تولى الحكم بعد وفاة الملك رعمسيس الحادي عشر بيتان مالكان: واحد في الشمال وكانت عاصمته بررعمسسو (أوتانيس)، وأسسه سمندس (نيس بانب جد) الذي حكم حوالى ستة وعشرين عاماً بعد أن تزوج الأميرة تانت آمون، سليلة الرعامسة، وبيت حاكم ثان كانت عاصمته طيبة، وأسسه الكاهن حريحور. فانقسمت البلاد إلى قسمين: الوجه البحري ومصر الوسطى تحت سلطة سمندس وخلفائه من بعده، منذ عهد رعمسيس الحادي عشر، وطيبة والنوبة تحت سلطان الكاهن حريحور منذ زمن رعمسيس الحادي عشر أيضاً. ولم تذكر أخبار العصر أياً من المشاكل التي يحتمل وقوعها بين البيتين المالكين، بل عاشا في وفاق مع بعضهما، ورضي كل منهما بما كان تحت سلطته من أراضي مصر، إذ لم يبق لمصر من نفوذ خارج حدودها القديمة. وزاوج البيتان الحاكمان بين سلطتيهما الدينية والدنيوية عن طريق المصاهرة بينهما واعتزازهما بمذهب آمون رع. ثم خلف سمندس ابنه بسوسينس الأول

الذي تولى الحكم حوالى خمسين سنة، وعاصره في طيبة بعنخي بن حريحور. واستمر حكم البيتين حوالى ١٤٠ عاماً، لم تفقد مصر وحدتها الإقليمية في عهدهما، ولم تتعرض لهجوم خارجي. ولكن ما إن مات بسوسينس (حوالى عام ٩٤٥ق.م) حتى استولى القائد شيشنق على الحكم بعد أن تزوج ابنة بسوسينس الثاني آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين.

ويميل بعض المتخصصين إلى إلحاق عصر الأسرة الواحدة والعشرين بعصر الدولة الحديثة لأن مصر احتفظت فيه بحدودها، ولم تتعرض خلاله إلى اقتطاع جزء من أراضيها، ولم تشب استقلالها شائبة، وظل الحكم فيه ـ على انقسامه بين البيت الحاكم في تانيس والبيت الحاكم في طيبة ـ بأيد مصرية، ساده التفاهم والوفاق طوال الوقت. وهذه ظواهر إيجابية كلها تميزها من عصور الأسر اللاحقة المتأخرة من حيث الزمن ومن حيث الحضارة، ومن حيث أوضاع البلاد الأمنية واستقرار الحكم والاقتصاد.

الأسرات الثانية والعشرون، والثالثة والعشرون، والرابعة والعشرون (الليبية ٩٤٥ ـ ٧٢٠ق.م):

استقرت في مصر جماعات مهاجرة من ليبية (كانت قد اختلطت مع جماعات من شعوب البحر) في الواحات الغربية، وفي الصحراء الغربية، وفي مناطق الفيوم، وامتزجت منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد بالقبائل المحلية التي كانت المصادر المصرية تسميها بأسماء مثل التحنو والتمحو[1]، وكانت

(١) ذكرت المصادر المصرية القديمة منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد اسم التحنو (أو التحنو) سكان البراري والواحات الشمالية الغربية. كما ذكرت اسم الثمحو (أو التمحو) الذين كانوا بدواً يستوطنون البراري والواحات الغربية والجنوبية الغربية، وهم الذين انضموا في عصر الأسرة السادسة إلى جيش وني (في القرن ٢٤ق.م) مع غيرهم من أهل النوبة عندما تصدى للبدو الأسيويين في سيناء في عهد الملك بيي الأول. وهي بمجملها قبائل بدوية مصرية، كما يبدو، في أصلها، وفي عاداتها ومعتقداتها الدينية. أما اسم ليبو (أو ريبو) فقد بدأ ظهوره أول مرة في عهد سيتي الأول وعهد ابنه رعمسيس الثاني في بداية القرن ١٣ ق.م.، اسماً لقبيلة أو جنود مرتزقة، وقد هاجموا الدلتا مع غيرهم من القبائل زمن مرنبتاح، كما ذكرنا، وزمن

تحاول الوصول إلى المناطق الداخلية بشتى الوسائل، ونجحت أعداد منها بالتسلل، ووجدت عملاً لها، رعاة وتجاراً بسطاء، ومرتزقة في الجيش، وفي الخدمة عبيداً في القصور والمعابد. كما استقرت بعض قبائلهم بمعرفة من الحكام على حواف الدلتا، في منطقة أهناسية والفيوم منذ أواخر عهد رعمسيس الثالث. وتزعّم هؤلاء في أهناسية أمير يدعى شيشنق الذي وصلت أسرته إلى نفوذ كبير عند الملك في تانيس وكان لأسرته مدفن في أبيدوس أسوة بالأسر الحاكمة والأسر المصرية النبيلة. وكان المصريون يعرفون أصله، على الرغم من تمصره وأسرته، وأهله ذوي الأصل الليبي، ويلقبونه باسم «كبير المشاوش، أمير الأمراء»، وتعاقب عدد من ذويه من قبل على الكهانة لمعبود المنطقة المصري حريشف. وزوّجه آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين بسوسينس الثاني (أو الثالث) ابنته الأميرة ماعت كارع، فضمن لنفسه بهذا الزواج حق تولي الحكم بعد وفاة الملك، وجلس على العرش في بوبسطة بشرقي الدلتا التي اتخذها مقراً للحكم، وادعى أبناؤه من بعده القرابة من الرعامسة. ودانت مصر بكل أقاليمها لمؤسس الأسرة الثانية والعشرين بالطاعة، وغدا شيشنق ملك مصر العليا ومصر السفلى بلا منازع. واتخذ ألقاب الفراعنة المصريين، وعين أحد أبنائه في منصب كبير الكهنة في معبد آمون في طيبة، وعدداً من المشوش رؤساء في الإدارة الكهنوتية في طيبة ليضمن موافقة الكهنة في الجنوب، وأظهر اهتماماً خاصاً بالكرنك حيث بُني في عهده المدخل الذي يؤدي إلى المعبد الرئيسي، وكذلك الصرح الأول[٢].

وخرج الملك شيشنق إلى فلسطين (حوالى عام ٩٣٠ق.م) بجيش وصل فيه إلى أورشليم ودمرها في عهد ملكها رحبعام، كما يرد في العهد القديم

رعمسيس الثالث. وورد ذكر المشوش (أو المشاوش) منذ عهد الملك أمنحوتب الثالث (في القرن الرابع عشر) ومن المؤكد أنهم يعودون أيضا إلى أصل ليبي، ولكنهم كانوا أكثر تأثراً بالعادات المصرية لطول استيطانهم جنوبي الدلتا، ولا سيما في منطقة الفيوم.

(٢) K. A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford 1937, p. 287 - 291.

(سفر الملوك الأول ١٢، ١٦ ـ ٢٠)، وغنم كنوز داوود وسليمان. فأعاد لمصر شيئاً من سمعتها الدولية القديمة، ورد إلى الجيش المصري شيئاً من الاعتبار بعد خمول وركون إلى الهدوء منذ عهد رعمسيس الرابع. وأعاد شيشنق العلاقات الودية مع الفينيقيين، ولا سيما مع أمراء مدينة جبيل. وبدا للمصريين عهده شبيهاً بعهود ملوكهم الأقوياء في أواخر عصر الدولة الحديثة، ولكنهم ـ مع ذلك ـ كانوا يشعرون بعدم الارتياح لحكمه ولحكم خلفائه، ولم ينسوا أصله وأصلهم الأجنبي، كما لم ينسوا هم أنفسهم ذلك الأصل، فكانوا حريصين على حماية حكمهم بتولية أقربائهم وبني قبائلهم المناصب العليا في البلاد، ولا سيما منصب الكاهن الكبير في طيبة، ليضمنوا لأنفسهم السلطتين الدينية والمدنية معاً في الشمال وفي الجنوب.

وتعاقب على الحكم بعد شيشنق أفراد من أسرته حملوا اسمه، واسم أوسركون، وتكلوت. وحاولوا تقليد نهجه في الحكم، وحرصوا على الاستمرار في العلاقات الودية مع جبيل، ولا سيما في عهد أوسركون الأول ابن شيشنق الأول، وتفانوا في الظهور بمظهر الملوك الأتقياء والمخلصين للأرباب المصريين وعلى رأسهم آمون رع، فخصصوا أغلب عمائرهم الدينية له.

وخلف شيشنق الثالث الذي طال حكمه أكثر من خمسين عاماً ملكان، كان آخرهما ابنه شيشنق الرابع الذي حكم سبعة وثلاثين عاماً، وانتهت الأسرة بحكم أوسركون الرابع. ولكن ظهرت أسرة ملكية ليبية ثانية منذ أواخر عهد شيشنق الثالث هي **الأسرة الثالثة والعشرون** (حوالى عام ٧٩٢) التي عاصرت الملوك الثلاثة الأخيرين من الأسرة الثانية والعشرين، وجعلت مركز حكمها في تل بسطة (ليونتوبوليس) في الدلتا، ودانت لها طيبة بالولاء، ولم تذكر وثائق العصر أي صدام بين الأسرتين المتعاصرتين. ويذكر المؤرخ المصري مانيتون أن مؤسس الأسرة الثالثة والعشرين هو الملك **بتوباستيس** الذي خلفه ثلاثة ملوك من أسرته في الحكم، وبلغ حكمهم جميعاً تسعة وثمانين عاماً. بينما يعدد تسعة ملوك من حكام الأسرة الثانية والعشرين وينسب إليهم حكماً طال ٢١٥ عاماً. ويتضح أن مانيتون لم يكن قادراً على

ذكـر أسماء الملوك الـذين تعاقبـوا على الحكم في الأسرتـين، بدليـل أن المؤرخ افـريكانـوس الذي نقـل عنـه أسـماء الملوك، وسني حكمهم، ذكـر معلومـات مختلفة[٣].

ثم قـامت **الأسرة الرابعـة والعشرون** (حوالى عـام ٧٣٠ق.م) في غربي الدلتا (في سايس. صا الحجر) ثم مدت سلطتهـا إلى مصر الوسـطى، متجنبة الصدام مع ملوك الأسرة الثـالثة والعشرين التي احتفـظت بالحكم عـلى شرقي الدلتا في أواخر أيامهـا. ثم ما لبثت أن مـدت سلطتها عـلى الدلتـا بكاملهـا، وذلك في عهد مؤسس الأسرة المدعو **تاف نخت**. ونستدل من أحداث العصر أن ثلاث أسر ليبية حكمت مصر هي: الأسرة الثانية والعشرون التي عاصرت أيـام حكم ملوكها الأخـيرين الأسرة الثـالثـة والعشرون، ثم عـاصرت أواخـر حكم هذه الأسرة الرابعـة والعشرون، من دون أن تحدث خـلافات، وصراع حول الحكم. وكادت تعـود للبلاد وحـدة الحكم تحت سلطة تاف نخت لـولا ظهور ملك نباتـا النوبي بعنخي في الجنـوب الذي تقـدم باتجـاه الشمال لـوقف تقـدم تـاف نخت، وأسـس الأسرة الخـامسـة والعشرين التي عـاصرت الأسرة الرابعة والعشرين في الوقت الذي كان فيه عـدد من كبار الحكـام يعتبر نفسـه وريثاً شرعياً للأسر الماضية.

انتهى حكم الأسر الليبية (أو المهجنة) الثلاث ٢٢ ـ ٢٤ بعد أن شغـل حوالى القرنين والربع (٩٤٥ ـ ٧٢٠ق.م).

الأسرة الخامسة والعشرون (النوبية ٧٣٠ ـ ٦٦٥ق.م):

كانت مدينـة نباتـا تقوم عـلى سفح جبـل برقـل عند الشـلال الرابـع، وتشكـل الحد الجنـوبي لمصر منذ زمن تحـوتمس الثالث فيـما كان يسمى كـوش بالنوبة العليا[٤]. وكـان سكان النـوبة قـد تمصروا منذ ذلـك الوقت، فعبـدوا

(٣) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ٣٠٦، أحمد أمين سالم، دراسات في تاريخ الشرق القديم ١٨٧؛ Kitchen, op. cit., p. 467.

(٤) اعتبرت النصوص المصرية جبل برقل في عصر الدولة الحديثة جبلاً طاهراً، وعرشاً =

الآلهة المصرية، وآمنوا بعقيدة آمون إله الدولة الأكبر في طيبة، وأخذوا بأسباب الحضارة المصرية لغة وكتابة، وعادات، وفناً وعمارة. ونزحت أعداد من المصريين المدنيين إلى النوبة العليا، وعاشت فيها، ولا سيما في بداية عصر الأسر الليبية، وبينهم بعض الكهنة المصريين الوطنيين الذين لم يهنأ لهم عيش في ظل حكم الليبيين المشاوش الغرباء. فقامت حكومة ثيوقراطية في كوش، كانت نباتا مركزها. ويبدو أن أهل البلد الكوشيين أسسوا أسرة حاكمة فيها. آل الحكم إلى ملك يدعى بيعنخي الذي اتخذ اسماً مصرياً (أوسر ماعت رع - سنفر رع)، ولم يرض عما يجري في مصر على يد الملوك الليبيين، فأرسل جيشاً إلى الصعيد عندما سمع بتقدم مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين تاف نخت، ثم قاد الجيش بنفسه وتقدم به إلى مصر الوسطى، واستولى على مدنها الواحدة بعد الأخرى، حتى بلغ مدينة منف التي تحصن فيها أنصار الحكم الليبي وغيرهم من الأمراء المستقلين، ودخلها محرراً، كما قال، وليس فاتحاً. ثم انطلق إلى أونو، بعد أن أدى الطقوس المعتادة للملوك المصريين، والشعائر اللازمة لإلهها بتاح، وأعلن كهنة الإله رع في أونو (هليوبوليس) ولاءهم له. وتبعهم أمراء الدلتا وعلى رأسهم تاف نخت نفسه. ولكنه عاد بعد أن تحققت وحدة البلاد، واطمأن إلى أنه لبّى رغبة آمون وكهنته وأنقذ مصر مما كانت تعانيه من حكم الغرباء، ومن انفراط عقد الوحدة، عاد إلى عاصمته نباتا في الجنوب مسرعاً، فعاد تاف نخت إلى ادعاء الملكية ثانية ملقباً نفسه بلقب «حاكم القطرين وسيد الدلتا والصعيد»، وعاد الصراع الداخلي بين الحكام والأمراء إلى ما كان عليه قبل مجيء بيعنخي. واستمرت الأسرة الرابعة والعشرون في الحكم في الدلتا والأقاليم القريبة منها معاصرة للأسرة الخامسة والعشرين النوبية في الجنوب لبعض الوقت. ويتحدث سفر الملوك الثاني (١٧، ١ - ٦) عن مساعدة مصر للملك هوشع في الدفاع عن السامرة،

= مقدساً للإله آمون في الجنوب. ودعا المصريون المدينة التي قامت على سفحه وكانت تشرف على طريق القوافل التجارية، وتبعد عن نهر النيل بحوالى ميل، دعوها «تحوتمس ذابح الأجانب». ثم اشتهرت باسم «نبتا أو نباتا».

عاصمة إسرائيل، أمام هجوم الأشوريين، ثم سقوطها رغم ذلك على يد سرجون الثاني حوالى عام ٧٢١ق.م. كما قدم خليفة تاف نخت ابنه **بوخوريس**[٥] المساعدة لحاكم غزة الذي انهزم أمام الأشوريين أيضاً.

وخلف الملك **شاباكا** أخاه بعنخي (حوالى عام ٧١٦ق.م)، فعاد إلى الشمال وبسط سلطانه على مصر بكاملها، وأنهى حكم الأسرة الرابعة والعشرين بقتل ملكها بوخوروس. واتبع الملك الجديد سياسة ود ومصالحة مع الأشوريين، إذ فطن إلى قوتهم الفتية، وإلى التغيرات في ميزان القوى في الشرق القديم الذي مال لصالح الدولة الأشورية الحديثة وللملوك السرجونيين، فآثر الابتعاد عن مناوأتهم، واتخذ مدينة منف عاصمة له، وتفرغ لمشروعاته الداخلية. ثم خلفه الملك **شبتكا** بن بعنخي الذي عاصر الملك الأشوري سنحاريب بن سرجون الثاني، وسعى إلى مساعدة ملك يهوذا حزقيا الذي حاصر الجيش الأشوري عاصمته أورشليم، فأرسل أخاه طاهرقا على رأس جيش مصري (حوالى عام ٧٠١ق.م) لنجدة المدينة، وإعاقة الجيش الأشوري. ولكن الأشوريين كانوا أقوى من أن يقف اليهود والمصريون في وجههم، فهزموا الجيش المصري، وحاصروا أورشليم التي دفع ملكها الجزية مضاعفة للآشوريين، بعد أن أخضعوا المدن الفينيقية الثائرة على حكمهم ما عدا صور التي كانت تتلقى الدعم والعون من مصر.

وعندما وصل **طاهرقا** (نحو ٦٩٠ ـ ٦٦٤ق.م) إلى الحكم استمر في مد يد العون إلى مدينة صور والمدن الفينيقية الأخرى في صمودها أمام الغزو الأشوري، واتخذ من تانيس مقراً لحكمه لقربها من سورية حيث كان الأشوريون يستعدون لمهاجمة مصر بعد أن أحكموا قبضتهم على سورية بكاملها، وقرر ملكهم أسرحدون (٦٨٠ ـ ٦٦٩ق.م) معاقبة المصريين على

---

(٥) بوخوريس أو باكن رنف (واح كارع بالمصرية) اشتهر في مصر بحكمته، كما يذكر ديودور الصقلي عنه وعن أبيه، وأنه كان مشرعاً رائداً وموفقاً. انظر: عبد العزيز صالح ٣١١ ـ ٣١٣.

مساندتهم مثيري الشغب والفتن في فلسطين وفينيقية، وهو ما كان ينوي سرجون الثاني، وسنحاريب من قبل القيام به، وارتأى وضع حد للتدخل المصري في آسية، والقضاء على ما بقي في حوزة مصر من قدرة حربية، كما طمع في خيراتها الوافرة، وضمها إلى أمبراطوريته في الشرق القديم. فخرج على رأس جيشه قاصداً مصر، فوصل حدودها الشمالية الشرقية في عام ٦٧٤ق.م، ولكن طاهرقا كان قد استعد لملاقاته، فانهزم الجيش الآشوري. وعاد أسرحدون إلى بلاده لأمور استدعت عودته، إذ تعرضت حدوده الشرقية والشمالية لتهديد الميديين والسكيثيين. ثم جهز جيشه لمهاجمة مصر من جديد في عام ٦٧١ق.م. وكتب في حولياته يقول في وصف الجهود التي بذلها في محاربة ملك مصر: «قطعت ما بين مدينة إيشوپري حتى ممفيس خمسة عشر يوماً، وكنت أقاتل كل يوم (وأخوض) معارك دموية ضد طاهرقا ملك مصر وكوش الذي لعنه كل الآلهة العظام. وأصبته خمس مرات بسنان سهمي وسبّبت له جرحاً بليغاً لن يُشفى منه. حاصرت ممفيس عاصمته، وفتحتها في نصف يوم... دمرتها وهدمت أسوارها.. اقتلعت جذور كوش من مصر. نفيت كل الكوشيين من مصر، ولم أترك واحداً منهم ليقدم لي الخضوع..»(٦). وهرب طاهرقا إلى الجنوب بعد أن احتلها الآشوريون. فأعاد أسرحدون تنظيم الإدارة في مصر، فثبت بعض الحكام في أماكنهم، واستبدل بعضهم بغيرهم من المصريين الذين اطمأن إلى ولائهم، وغير أسماء عدد من المدن المصرية إلى أسماء آشورية، وحمل معه في طريق العودة إلى بلاده ما وصل إليه من كنوز القصر الملكي المصري، وأمر بترحيل عدد من الأطباء والبيطريين والسحرة، والصاغة والموسيقيين وغيرهم من الحرفيين البارعين والفنانين، إلى عاصمة بلاده، وسمى نفسه «ملك ملوك مصر وكوش». وما إن رحل أسرحدون عن مصر حتى قام المصريون بثورة على الحكم الآشوري، وساعدوا طاهرقا على استرجاع السلطة على العاصمة منف

---

(٦) D. Luckenbill, Ancient Records, II 580; ANET, 239; E. Meyer, Geschichte des Altertums, III, 76f.

في عام ٦٦٩ق.م. فسارع أسرحدون على رأس جيشه إلى مصر لإخماد الثـورة والقضاء على ملكها، ولكن الموت فاجأه نتيجة مرض ألم بـه وهو في الـطريق، فعـاد الجيش الآشوري أدراجـه. وخلفه ابنـه المحارب العنيـد آشـور بـانيبـال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ق.م) الذي جهز جيشاً كبيراً لاستعادة مصر، وزحف به في عام ٦٦٦ق.م. بعد أن أجبر عدداً من حكام سورية على مصاحبته بقواتهم، بلغ عـددهم ٢٢ ملكاً، كـما ذكر في حـوليـاتـه، وهـاجم مصر من الـبر والبحـر، واشتبـك مع جيش طـاهرقـا فتغلب عليه، وانسحب طـاهرقـا مرة أخـرى إلى الجنوب. واستولى الآشوريون على أسطول المصريين النيلي، وتقدموا إلى طيبـة وراء طاهرقا، فنهبوهـا ودمّروهـا عام ٦٦٤ق.م، وهـو العام الـذي توفي فيـه طهارقا. وعين آشور بانيبال حكاماً جدداً على الأقـاليم المصرية، ومنهم الأمـير **نيكاو** (الأول) الذي جعله حـاكماً عـلى سايس (صـا الحجر)، وهـو من أمراء الأسرة الرابعة والعشرين، وسليل البيت المنافس لبيت طاهرقـا، كما عـين ابنه **بسماتيك** أميراً على مدينة أتريب في شرقي الدلتا. وأخذ آشور بانيبـال الجزيـة من مصر ورجع إلى بلاده. وعاد المصريون إلى الثورة ثانية على الأشوريين بعد موت طهارقـا في نباتـا، في عهد خليفتـه تانـوت آمون الـذي استرجـع منف. فغضب آشور بانيبال وسار إلى مصر مرة أخرى، ودمّر طيبة من جديد في عام ٦٥٩ق.م، وهرب الملك النوبي إلى نباتا، فانتهى بذلك عصر الأسرة الخامسة والعشرين، وانتهت معـه حقبـة من الـزمن حكمت مصر فيـه أسر متمصرة، أجنبية الأصل: ثلاث ليبية ٢٢ ـ ٢٤، وأسرة نوبية (كوشية ـ إثيوبية)، وهـذا ما دعا بعض المتخصصـين إلى تسمية عصـور هذه الأسر الأربـع باسم **«عصر الانتقـال الثالث»** الـذي وقـع بـين «عصر الـدولـة الحـديثـة» و«عصر النهضـة الصاوي».

الأسرة السـادسة والعشرون وعصر النهضـة الصـاوي (٦٦٥/ ٦٦٤ ـ ٥٢٥ق.م):

كانت مدينة سايس، أو صا (الحجر) بالمصرية، الواقعة قرب فرع رشيد في غـربي الدلتـا عاصمـة للأسرة الـرابعـة والعشرين. وعنـدمـا قضت الأسرة

الخامسة والعشرون (النوبية) على سلطتها، بقي من أمراء الأسرة عدد ينتظر فرصته للعودة إلى الحكم، وكان نيكاو (نيخو) على رأسهم، وقد تحقق أمله حين جاء الآشوريون بقيادة آشور بانيبال لإعادة احتلال مصر، ولمعاقبة المناوئين لهم في عام ٦٦٦ق.م. ثم عين حكاماً مصريين توسم فيهم الولاء والطاعة له، ووقع اختياره على نيكاو سليل الأسرة الرابعة والعشرين، فجعله حاكماً على صا (الحجر)، وعين ابنه بسماتيك حاكماً على أتريب في شرقي الدلتا، كما ذكرنا، اعتقاداً منه بأنه يستطيع من خلالهما فرض سيطرته الكاملة على الدلتا، وضمان تبعيتهما وإخلاصهما له ما داما يكنان العداء لخصمهما طاهرقا. ثم خلف هذا أخوه تانوت آمون الذي عاد بعد خروج آشور بانيبال من مصر، واسترجع سلطته على الدلتا، وانتقم من أصدقاء الآشوريين، فوقع نيكاو قتيلاً في المعركة التي دارت بين جيش النوبيين والحامية الآشورية في منف. والتجأ ابنه بسماتيك إلى آشور[٧]. ثم رجع بسماتيك إلى مصر بعد استرجاع الآشوريين الحكم في مصر، ودمار طيبة في عام ٦٥٩ق.م، وعينه آشور بانيبال أميراً على إقليم والده وأضاف إليه إقليم منف. فغدا من أقوى الأمراء في مصر، ثم تخلص من حكام الأقاليم الأخرى في غفلة من الآشوريين، ولم يلبث بسماتيك أن أعلن نفسه ملكاً على مصر السفلى ومصر العليا، وحمل التاج باسم واح إب رع (حوالى عام ٦٥٥ أو ٦٥٤ق.م)، وبدأ حملة تطهير الدلتا من الآشوريين بعد أن ضمن ولاء مواطنيه، وسلامة موقفه الوطني، ومد نفوذه إلى مصر الوسطى والعليا، مستغلاً انشغال الآشوريين في الشرق مع عيلام، ومستفيداً من الجنود المرتزقة الأيونيين والكاريين بعد أن تحالف مع ملك ليديا في آسية الصغرى جيجيس الذي كان يكره الآشوريين ويعد العدة لقتالهم، وتعاهد معه على أن ينجد الواحد منهما الآخر عند الحاجة[٨].

---

(٧) نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم ٢، مصر، القاهرة ١٩٦٦، ص٣٥٥، ٣٦٥، نقلاً عن رواية هيرودوت.

(٨) الأيونيون كانوا يسيطرون على ساحل اليونان الشرقي، والكاريون على الساحل الجنوبي الغربي لآسية الصغرى.

اتخذ بسماتيك مدينة صا (الحجر) عاصمة للدولة، فسمي العصر نسبة إليها «العصر الصاوي»[٩]، وطال حكمه إلى أربعة وخمسين عاماً، استغلها في إحياء تقاليد الدولة القديمة في اللغة، والدين، والفنون، وفي إعادة النظام إلى البلاد، ومحاولة تحقيق التوازن في إدارة البلاد بين الحكام الإقليميين وإرضاء أولي السلطة منهم، وسعى إلى بسط نفوذه على كهنة آمون في طيبة من خلال سياسة توفيقية بين القائمين والقائمات على إدارة المعابد القدماء وبين من أراد أن يضمن لنفسه من خلالهم نفوذاً مباشراً، فحمل كبيرة الكاهنات على تبني ابنته، وأعاد الكاهن منتومحات والياً على طيبة. ولكنه اعتمد في بناء الجيش على المرتزقة الإغريق الذين كان يستقدمهم، ويجزل لهم العطاء، كما كان يشجع التجار الإغريق على العمل في مصر والإقامة فيها.

وعمل بسماتيك على إقامة علاقات ودية مع مملكة كوش في الجنوب، وعلى مصالحة الأشوريين في الشرق ومهادنتهم، ومد نفوذ مصر إلى فلسطين. ولكنه فوجيء بوصول جماعات من المهاجرين السكيثيين الذين قدموا مع بني قومهم الأريين من أواسط آسية وحاولوا الاستيطان في الشرق الأدنى، فصدهم الأشوريون، فاتجهوا إلى آسية الصغرى ودمروا مدنها، وعقدوا العزم على الوصول إلى مصر. فلم يشأ بسماتيك الاشتباك معهم، وآثر إرضاءهم بالعطايا، فعادوا أدراجهم، واتقى شرهم ونجت مصر من خطرهم. ثم خرج بجيشه إلى فلسطين واحتل مدينة أشدود الحصينة حوالى عام ٦٢٦ق.م، ووجه اهتمامه إلى تقوية الأسطول في البحر الأبيض المتوسط، وتطوير العلاقات التجارية مع الجزر اليونانية.

وبعد موت بسماتيك جلس ابنه **نيكاو الثاني** (حوالى عام ٦١٠ق.م) على عرش مصر، وكانت أوضاع الشرق قد شهدت تحولات كبيرة، إذ ضعفت الدولة الأشورية، وظهر الميديون والكلدانيون الذين تحالفوا لإسقاط القوة

---

(٩) لايعتبر المؤرخ المصري مانيتون بسماتيك مؤسس الأسرة ٢٦، بل يجعله الملك الرابع فيها.

الآشـورية والحلول محلهـا. فاضـطر الملك المصري إلى مسانـدة الآشـوريـين، وخـرج بجيشه إلى سـورية (حـوالى عـام ٦٠٨)، واصـطدم بحـاكم أورشليم (يوشيا) عند مدينة مجيدو الذي اعترض حملته، وقضى عليه. ثم تابع الـزحف في سورية حتى وصـل إلى كركميش عـلى نهر الفرات وفي نيتـه مساعـدة الملك الأشوري آشور أو بلّيط الذي التجأ بآخر قواته إلى حـران هربـاً من الميديـين والكلدانيين، وهزم جيشاً للكلدانيين قرب مدينة كركميش، ثم عـاد إلى مصر بعد أن عين على أورشليم حاكماً جديـداً هو يهـوياقيم، وبعـد أن أعاد النفـوذ المصري إلى سـورية. وعنـدما خـرج إلى سوريـة بعد ثـلاث سنـوات في حملة جديدة لتأكيد السيطرة المصرية توقف عند نهر الكلب (إلى الشمال من بيروت) ليسجل أخبار نصره على الكلدانيين. ثم واصل السير إلى كركميش حيث كان جيش الكلدانيين ينتظره بقيادة ولي العهد نبوخذ نصّر الثاني الذي كبّده خسائر فـادحة (في عـام ٦٠٥ أو ٦٠٤ق.م)، واضطره إلى الانسحـاب، والعودة إلى بلده مهزوماً. وحل الكلدانيون في سورية محل الآشوريين عندما خلف نبوخـذ نصر أباه نابو بولاصر على عرش بابل.

التفت نيكـاو الثاني بعـد هزيمتـه في سوريـة إلى الاهتـمام بـأحـوال مصر الداخلية، فتابع سيـاسة والـده في تطويـر الأسطول المصري، واستعـان بخبرة الملاحين الفينيقيين والإغريق في تنفيذ مشروعاتـه، ومنها شروعـه في حفر قنـاة تربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط عن طـريق نهر النيل، وذلـك بربط فرع النيل البوبسطي القـديم بخليج السـويس أو البحيرات المـرة قرب مينـاء الإسماعيلية اليوم. ولكنه أوقف العمل في المشروع، بعد أن بـدأ بشق القناة، وحمل الآلاف من الرجال على العمل فيها، لنبـوءة أنذرتـه بأن عمله سيكـون خـدمة لـلأجانب وليس لصـالح مصر، كـما حكى هيرودوت. وقـد تم إكمال المشروع من بعده زمن الملك الفارسي دارا.

كما كلف بحارة فينيقيين بالدوران حول إفريقية. فبـدأت البعثة رحلتهـا من خليج السويس عبر البحر الأحمر باتجاه الجنوب، ودارت حـول القارة حتى وصلت إلى مضيق جبـل طـارق (الـذي كـان يسمى زمن هـيرودوت أعمـدة

هرقل)، ووصلت إلى مصر بعد ثلاث سنوات، وتحدث ملاحوها أن الأرض (إفريقية) كانت على يمينهم على عكس ما خرجوا به في دورانهم حولها[١٠].

وعندما خلف بسماتيك الثاني (٥٩٥ ـ ٥٨٩ق.م) أباه في الحكم ذهب في زيارة إلى سورية بصحبة عدد من الكهان ليقوم بتأدية فروض التقديس في معبد آمون رع في مدينة جبيل الذي كان رعمسيس الثالث قد أقامه، وليؤكد للكلدانيين حسن نواياه ومهادنته لهم. ثم عاد من الزيارة القصيرة ليرد على هجوم محتمل للكوشيين في الجنوب على مصر، فأرسل جيشاً اشترك فيه إلى جانب الجنود المصريين جنود مرتزقة من الإغريق، وكان لكل فريق قائد من جنسه، ويبدو أن الحملة وصلت إلى الشلال الثالث.

وفي عهد ابنه أبريس (واح إب رع ٥٨٩ ـ ٥٧٠ق.م) تغيرت السياسة الخارجية للملك بعد أن شعر بقوة جيشه البري وأسطوله الحربي في البحر الأبيض المتوسط، فنشط إلى السيطرة على صيدا وصور لتأمين مصالح مصر التجارية في فينيقية، واستولى على صيدا التي حررها، كما يقول، من تسلط نبوخذ نصر، ولكن صور صدته وأبت الخضوع له، فخاب مسعاه. ثم راح يثير الفينيقيين، واليهود في فلسطين، على الكلدانيين. فثارت المدن الفلسطينية على الحكم البابلي (الكلداني)، وجاء نبوخذ نصر في عام ٥٨٨ أو ٥٨٧ وفرض حصاراً على أورشليم التي كانت مطمئنة إلى تحالفها مع مصر، ثم رفع الحصار بعد أن تحركت القوات المصرية لمساعدتها. ولكن نبوخذ نصر عاود حصارها مرة أخرى، وضيق الخناق على المدينة حوالى عام ٥٨٦ أو ٥٨٥ق.م، وتمكن من اقتحام المدينة. وقام جيشه بتدميرها وإحراق هيكل سليمان، وسبى الآلاف من أهلها إلى بابل «لينوحوا عند الفرات»، كما تذكر التوراة (سفر الأيام الثاني، الإصحاح ٣٦). ولجأ كثير من اليهود الناجين إلى مصر وبينهم النبي إرمياء الذي كان يتزعم فريقاً من اليهود ينادي بالخنوع للبابليين. ثم انصرف نبوخذ نصر إلى الهجوم على فينيقية، فلم يستطع

---

(١٠) هيرودوت، الكتاب الرابع ٤٢.

الاستيلاء على صور التي صمدت أمام حصاره لها ثلاثة عشر عاماً، ومصر تمدها بالمساعدة عن طريق البحر، حتى قرر الملك البابلي مهاجمة مصر في عقر دارها في عام ٥٦٨ق.م، في الوقت الذي وصل فيه الملك أحمس الثاني إلى الحكم في مصر. ولكن أموراً أهم من تبديد قوته مع مصر شغلته عن تنفيذ مشروعه الانتقامي، فاكتفى بتهديد الحدود المصرية التي ارتد عنها بعد أن وطئها جيشه.

وظهر في عهد أبريس تذمر المصريين من المرتزقة الإغريق، ومن الامتيازات التي كانوا يحصلون عليها منذ عهد بسماتيك والتي بلغت حدوداً غير مقبولة في زمنه، حتى انتقلت مقاليد الحرب والاقتصاد إلى أيدي الإغريق، فتضررت مصالح أهل البلد، وشعروا بالغبن والإجحاف، وهم أصحاب الشأن وأهل البلد. وقد وجد هذا الشعور متنفساً له عندما أرسل أبريس جيشاً مصرياً إلى ليبية لفض نزاع قام فيها بين القبائل الليبية وبين جماعات من الدوريين الإغريق الذين نزلوا في بلادهم، ثم ما لبثوا أن صاروا يتحكمون في مصير البلد، وينافسون أهلها في رزقهم وأرضهم ويتعالون عليهم. فطلب الليبيون مساعدة الملك أبريس، فلبّى دعوتهم وابتغى نصرتهم بإرسال جيش نظامي من المصريين، ولم يشأ إشراك المقاتلين المرتزقة من الإغريق في هذه العملية لأنهم لن يقاتلوا بني قومهم. فاتّهم الجنود المصريون الذين نجوا من المعركة ـ وكانوا قلة لأن خسارتهم كانت فادحة ـ اتهموا الفرعون بالتآمر مع الإغريق للتخلص منهم، وأنه دبّر هذه الحملة من البداية للقضاء على العناصر المصرية في الجيش. فثاروا ضد الملك، وثار معهم المواطنون، وكانت فتنة خطيرة دعته إلى تكليف قائد مصري اسمه أحمس بالتفاوض مع الثوار. ولكن هؤلاء أقنعوه بالانضمام إليهم، فغدا زعيماً لهم، وهاجم ومعه الثوار الملك وأسره، واتفق معه على الاشتراك بالحكم معه، ثم ما لبث أن قتله، وتخلص منه، وانفرد بالحكم وحده.

ساير أحمس الثاني مواطنيه، ولبّى بعضاً من المطالب، فأمر باستدعاء الجنود الإغريق من الحاميات المتمركزة على حدود البلاد، وأحل جنوداً

مصريين محلهم. وعمل على إبعاد التجار الإغريق من المناطق العامة، ومنعهم من التجـول في الأسواق المحلية الداخلية، وخصص لهم منطقة محـددة هي نقـراطيس في إقليم صا الحجـر ليمارسـوا نشاطهم فيهـا. ولكنـه لم يتخـل عن الصداقة مع الإغريق ويقطع الصلة بهم لعلمه بالحاجة إليهم بعد أن ظهـرت قـوة الفرس في الشرق. وجعـل حرسـه الخاص من المـرتزقـة الإغريق الـذين أقاموا معه في عاصمته منف. ودخل أحمس الثاني في أحلاف سياسية مـع عدد من الملوك المعادين للفرس، ومنهم الملك الكلداني نابونيذ، وكرويسوس ملك ليديـا (في آسية الصغرى). ويذكر هيرودوت [١١] أنه احتل قبرص بـأسطول مصري برهن عن مقدرة فائقة، وأقام معها علاقات اقتصادية وثيقـة. وبلغت مصر في عهـده شأواً اقتصـادياً عـالياً بـدأ منذ أيـام بسماتيـك الأول لم تعهده منـذ أيام فراعنة مصر الكبـار في عصر الدولـة الحديثـة. وأقام أحمس الثـاني سلسلة من التحصينات على الحدود المصرية تحسباً للطوارىء. ومات في عام حكمه الرابع والأربعين، فخلفه بسماتيك الثـالث الذي لم يـدم حكمه أكـثر من عامـين، إذ تعرضت مصر في عهده لهجـوم الفرس بقيـادة الملك قمبيز، فـوقع أسيـراً بيده بعـد أن غزا منف، ووضـع نهاية لحيـاته بنفسـه، وفضل المـوت انتحاراً عـلى الخضـوع للغـزاة الفـرس في العـام ٥٢٥ق.م. وانتهى بـذلـك عصر النهضـة الصاوي بكل إيجابياتـه، بعد أن أعـاد للمصريين شيئـاً من أمجادهم القـديمة، وأعطاهم الأمل في إعادتها، ولكن الفرس وضعوا نهاية لذلك العصر القصير.

الأسرة السابعة والعشرون (٥٢٥ ـ ٤٠٤ق.م):

ورث الملك قمبيز الثاني عرش أبيه قورش الثاني في إيـران، وبدأ يجهـز الجيـوش لاحتـلال مصر بعـد أن دانت أغلب منـاطق الشرق الأدنى لـسلطان الفرس الأخمينيين. وعمل على تشجيعه ظروف عـدة منها مـوت أحمس الثاني، وخيانة أحد كبار قادة الجيش المصري من المرتزقة ويدعى فانيس الـذي انضم إلى الجيش الفـارسي، وأطلع الملك الفارسي عـلى إمكانـات مصر الـدفـاعيـة،

---

(١١) هيرودوت ٢، ١٨٢؛ ديودور ٦٨.

ونصحه بالاستعانة بالبدو ليدلوه على أيسر المسالك في الصحراء، ويؤمنوا إمداد جيشه بالماء الذي يتعذر وجوده فيها. كما أفاده كثيراً خضوع الفينيقيين لسيادته، إذ كانوا سادة البحر وتتوافر عندهم الأساطيل إذا دعت الحاجة، ولعله أفاد أيضاً من وجود الجاليات اليهودية في مصر التي كانت تعتبر قورش المخلص والمسيح المنتظر الذي فك أسرهم وخلصهم من السبي البابلي. ساعدت هذه الظروف كلها قمبيز على خوض معركة ضارية مع الجيش المصري بقيادة الملك بسماتيك الثالث، كانت نتيجتها متوقعة منذ البداية، في منطقة الفرما (بلوزيوم) على الحدود الشمالية الشرقية. فانهزم الجيش المصري والتجأ مع قائده إلى العاصمة الحصينة منف، ولكن المدينة لم تصمد طويلاً أمام الطوفان الفارسي وسقطت بيد قمبيز في عام ٥٢٥ق.م، ووقع الملك بسماتيك الثالث أسيراً بيد قمبيز الذي لم يقصر في إكرامه، ولكن هذا أبى الخضوع للغزاة ولجأ إلى استئناف المقاومة، ثم انتحر بعد أن اقتنع بفشل مسعاه.

حكم الملك قمبيز مصر بعد أن استولى على عرشها، مؤسساً الأسرة السابعة والعشرين، إذ اعتبره مانيتون، المؤرخ المصري القديم، ملكاً من الملوك الذين حكموا مصر، وفرعوناً من فراعنتها، وبقي فيها ثلاث سنوات حاول في أثنائها متابعة غزو الشمال الإفريقي واحتلال قرطاجة، فأبى الفينيقيون معاونته عن طريق البحر في مهاجمة أقربائهم. وحاول الوصول إلى مملكة كوش النوبية وإلحاقها بأمبراطوريته. كما وجه حملة عسكرية إلى واحة سيوه فلم ينج أحد من أفرادها من العاصفة الرملية التي طمرتهم تحت رمالها. فباءت حملاته كلها بالفشل الذريع، وبلغ به الغضب حداً وصل به إلى الجنون، كما يقول هيرودوت، ثم عاد بعدها إلى بلده، وعين والياً على مصر لإدارتها، بعد أن أساء إلى معبودها العجل أبيس.

انتقل الحكم بعد وفاة قمبيز الثاني في عام ٥٢٢ق.م إلى أسرة فارسية أخرى بزعامة الملك دارا (داريوس) الأول الذي اتبع سياسة ودية مع المصريين. وقام بزيارة لمصر في العام الخامس لحكمه، وأبدى اهتماماً بشؤونها

خدمة لمصالح الفرس، فقد أمر بإكمال مشروع شق القناة بين النيل والبحر الأحمر الذي توقف في عهد صاحبه نيكاو الثاني وأمر بتطبيق القوانين المصرية، وبترميم المعابد وتقديم القرابين للآلهة. ثم انصرف عن الاهتمام بمصر إلى الانتقام من الأثينيين الذين كبدوه خسارة فادحة في معركة ماراتون عام ٤٩٠ق.م. فقام المصريون بثورة على الحكم الفارسي حوالى عام ٤٨٨ بقيادة زعيم يدعى خباش الذي احتل منف وسايس، واستمرت الثورة في عنفوانها حتى عهد الملك **اكسركسيس الأول** (٤٨٥ - ٤٦٤ق.م) الذي وجه جيشاً برياً، وأسطولاً ضخماً لإخمادها. ثم عين أخاه والياً عليها، فكان مستبداً، وظالماً في إدارة شؤون البلاد، مما زاد في نار الثورة وغليانها. ونجح المصريون بقيادة زعيم من الدلتا يدعى **إناروس** في التغلب على فرقة من الجيش الفارسي عام ٤٦٠ق.م.، وقتلوا قائدها شقيق الملك إكسركسيس (أخشويرش عند العرب)، وأجبروا بقية وحداته على التراجع إلى مدينة منف. وتحالف الزعيم المصري مع أثينا في عهد بريكليس الذي أمد الثوار بأسطول كبير، وحدث هذا كله في عهد الملك الفارسي الجديد **أرتاكسركسيس** (٤٦٤ - ٤٢٤ق.م). فتحقق النصر على الجيش الفارسي المرابط في الدلتا. ولكن الملك الفارسي وجّه جيشاً ضخماً إلى مصر، واستغل العداوة بين أثينا وأسبارطة ليشغل الأثينيين عن مساعدة الثوار المصريين، وهاجم الثوار وانتصر عليهم، وأسر زعيمهم وقتله، وحاصر الأثينيين في جزيرة في نهر النيل مدة عامين بالاستعانة بالسفن الفينيقية. فقام زعيم يدعى أميرتايوس بمتابعة الثورة، وكان من أعوان الزعيم السابق، وتحالف مع الأثينيين من جديد، لكن هؤلاء خذلوه لانشغالهم بمشاكلهم، فاسترجعوا الأسطول الذي أرسلوه لنجدة حليفهم المصري، ثم ما لبثوا أن عقدوا معاهدة صلح مع الفرس. ولكن الثورة لم تهدأ على الرغم من تقرب الملك الفارسي من الشعب المصري، إذ عين ابني الزعيمين في منصب الحاكم في الدلتا.

الأسرات الثامنة والعشرون إلى الثلاثين (٤٠٤ - ٣٣٢ق.م):

نجح زعيم مصري يدعى **أمون حر** (أميرتايوس) الثاني الذي تابع

الثـورة في حوالى عـام ٤١٠ق.م في محـاربـة الفـرس انـطلاقـاً من أسـوان في الجنـوب، واستمر في خـوض المعارك معهم حـوالى ست سنـوات، حتى تمكن من تحرير مصر من الحكم الفارسي في عام ٤٠٤، مستغلاً الأوضاع المضـطربة في بلاد فارس بسبب وراثة العرش بعـد وفاة الملك دارا الثـاني. فأعلن أمـون حر نفسه ملكاً على مصر، واتخذ لنفسه ألقاب الفراعنة، وجعل مدينة سـايس عاصمة للدولة المستقلة. ويعدّه المؤرخ المصري مـانيتون ممثـلاً للأسرة الثـامنة والعشرين والملك الـوحيـد فيهـا لأن أحـداً من أسرتـه أو أقـاربـه لم يخلفـه في الحكم. وقـد أفاد الإغـريق المستـوطنـون في مصر في دار إقـامتهم الأسـاسيـة نقراطيس من الأوضاع الجديدة في ترويج تجارتهم، بعد أن انفتحت الأسـواق المحلية أمامهم نتيجة لعلاقة موطنهم الأصلي الحسنة والمؤيـدة لاستقلال مصر. أما الجالية اليهوديـة، وكانت أكـبرها المقيمـة في جزيـرة إلفنتين قـرب أسوان، فكـان عليها أن تغـير ولاءها للمصريـين بعد أن كـانت تجـد في الفـرس خـير الحـياة. ومع ذلـك فإن المصريـين هدمـوا معبدهم تعبيـراً عن سخـطهم عـلى الفرس وعلى أعوانهم[١٢].

لم يدم حكم أمون حر أكثر من ست سنوات، فجلس على العـرش أول ملوك الأسرة التـاسعة والعشرين واسمـه نفـريتس (٣٩٨ ـ ٣٩٢ق.م) الـذي انتقـل إليه حكم البـلاد من دون عـراقيـل. ثم تعـاقب من بعـده ثـلاثـة من أسرته، كانت مدينة منديس في شرقي الدلتـا عاصمـة لهم، حيث تعاونـوا مع

(١٢) لجأ إلى مصر فريق من اليهود منذ الخلاف الذي نشـأ في فلسطين بـين يهود السـامرة ويهود يهوذا في القرنين السابع والسادس ق.م، ثم زمن الأشوريين الذين قضـوا على السامرة في عهد سرجون الثاني. وهاجرت إلى مصر جماعات من اليهود زمن نبـوخذ نصر الثاني الذي هدم أورشليم وهيكل سليـمان. وتزايـد عددهم من بعـد، ووصل فريق من مرتزقتهم إلى الصعيد، فـأقامـوا في معسكرات أسـوان ولاسيما تحت الحكم الفارسي الذي وجدوا فيه خير نصير لهم. فبنـوا معبداً لهم هنـاك لعبادة الإلـه يهوه، وكانوا يستخدمون اللغـة الآرامية التي دونـوها عـلى عدد من الـبرديات في الجـزيرة، يعـود تاريخهـا إلى أواسط القرن الخـامس قبل الميـلاد، ولقيت اهتمامـاً من البـاحثـين اللغويين والمؤرخين.

الإغريق، ولا سيما الأسبرطيين، ضد الفرس الذين لم يتخلوا عن إصرارهم على الرجوع إلى احتلال مصر. فقدم نفريتس معونة لحلفائه من الغلال، فوقعت بيد قائد الأسطول الفارسي عند رودس، وهو أثيني يخدم الفرس. ثم تحالف الملك هجر (أوهكر) مع ملك قبرص، وملك أثينا ضد الفرس، وأمدهم بمعونات من الغلال وببعض السفن. وتعرضت مصر آنئذٍ إلى هجوم فارسي ردته على أعقابه، ولكن قبرص استسلمت للفرس.

ثم آل الحكم إلى مغتصب للعرش يدعى نخت نبف، أو نختنبو كما سماه الإغريق، الذي أسس الأسرة الثلاثين. وحكم سبعة عشر عاماً (٣٨٠ - ٣٦٣ق.م)، ونشط العمران في عهده في المعابد المصرية، كما تدل آثاره الكثيرة في الكرنك وفي جزيرة إلفنتين. وعاود الفرس في عهده غزوهم، وتمكنوا من الوصول إلى الدلتا بجيش ضخم من الفرس والمرتزقة الإغريق الذين كانوا يحاربون في صف من يجزل لهم العطاء. لكن فيضان النيل حال دون تحقيق غايتهم.

كما استعان الملك جدحر (أو تيوس عند اليونان) بالمرتزقة من الإغريق، من أسبارطة ومن أثينا لتجهيز جيش كبير قوامه حوالى تسعين ألف رجل (بينهم ثمانون ألفاً من المصريين) لمهاجمة الفرس خارج الحدود المصرية. وما إن خرج بالجيش الذي تنازع قيادته الأسبرطيون والأثينيون، ثم حسم الأمر بقيادة الجيش بنفسه، حتى انقلب عليه أخوه في مصر، فتخلى القادة المرتزقة عن الاستمرار في مهاجمة الفرس. وباءت خطة الملك المخلوع بالفشل الذريع، فلم يجد من سبيل أمامه غير اللجوء إلى أعدائه الفرس. وتولى الحكم حينئذ ابن أخيه نختنبو الثاني (٣٦٠ - ٣٤٣ق.م) الذي تميز عهده بالهدوء. ولكن الفرس كانوا في هذا الوقت يعدون العدة لاستعادة مصر، فهاجموها بجيش كبير، تمكن بقيادة الملك الفارسي أرتا كسركسيس الثالث من اختراق دفاعات المصريين في الدلتا في عام ٣٤٣ق.م. فانسحب الملك المصري إلى مصر العليا، ومنها إلى النوبة. وعادت مصر من جديد إقليماً فارسياً، وسقطت عاصمة الأسرة الثلاثين، سمنود، وهي بلد المؤرخ المصري، بيد المحتلين الفرس.

يطلق بعض المؤرخين على الفترة التي رزحت فيها مصر تحت الاحتلال الفارسي، والتي امتدت من عام ٣٤٣ق.م إلى عام ٣٣٢ق.م، اسم **عصر الأسرة الواحدة والثلاثين**، وهي فترة عانت فيها مصر من جديد بعد أن نهب الفرس كنوز المعابد، وامتهنوا عقيدتها الدينية، ولكن رجالها لم يستكينوا للغزو الفارسي، بل تابعوا النضال للخلاص من نير الاحتلال حتى جاء **الإسكندر** المقدوني في عام ٣٣٢ق.م. إلى مصر، بعد أن حقق انتصاراً ساحقاً عام ٣٣٣ على الفرس في موقعة إسوس قرب بلدة الإسكندرونة السورية، وخلص سورية من الاحتلال الفارسي. فاستسلم الوالي الفارسي على مصر من دون مقاومة. وأحسن الإسكندر معاملة المصريين، وأظهر تقديسه لآلهتهم، فزار معبد بتاح في منف، ورحل إلى واحة سيوة في قلب الصحراء الغربية حيث كان يقوم معبد آمون ليستلهم الوحي منه، وادعى البنوة له، كما فعل من قبل عدد من ملوك الدولة الحديثة، وأذاع الكهنة على لسان كبيرهم في معبد آمون بأن العالم من شرقه إلى غربه ملك للإسكندر عن طريق الحق الإلهي.

ومكث الإسكندر في مصر ستة أشهر قرر في أثنائها إنشاء مدينة الإسكندرية التي سميت باسمه. ثم ما لبثت مصر أن قامت فيها **مملكة البطالمة**، عندما تسلم مقاليد الحكم فيها بطليموس أحد قادة الإسكندر وأصحابه بعد موته، وبقيت تحت سيادتهم حوالى ثلاثة قرون حتى حل **الرومان** محلهم غزاة حاكمين في عام ٣٠ ق.م، إلى أن خلصها العرب المسلمون على يد **عمرو بن العاص** في سنة ٦٣٩م.

المصادر والمراجع

أ - باللغة العربية:

- إبـراهيم، نجيب ميخـائيـل، مصر والشرق الأدنى القـديم، ج١ - ٢، القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦.
- إمـري، والـتر ب، مصر في العصر العتيق (الأسرتـان الأولى والثـانيـة)، ترجمة محمد نوير ومحمد علي كمال الدين، القاهرة ١٩٦٧.
- بدوي، أحمد، هيرودوت يتحدث عن مصر، القاهرة ١٩٦٦.
  - في موكب الشمس، ج١، القاهرة ١٩٥٥.
- بكر، محمد إبراهيم، تاريخ السودان القديم، القاهرة ١٩٧١.
- تاريخ الحضـارة المصرية، العصر الفـرعوني، المجلد الأول، تـأليف نخبة من العلماء. منشورات وزارة الثقافة، القاهرة، بلا تاريخ.
- توفيق، سيد، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٨٤.
- جـاردنر، ألن، مصر الفـراعنة، تـرجمة نجيب ميخـائيل إبـراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.
- حسن، سليم، الأدب المصري القديم، القاهرة ١٩٤٥.
  - مصر القديمة، القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤٨.
- ديـورانت، ول، قصـة الحضـارة، المجلد الأول، الجـزء الثـاني. الشرق الأدنى، ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٦١.
- سـالم، أحمد أمـين، دراسـات في تـاريـخ الشرق الأدنى القـديم، بـيروت ١٩٨٩.
  - دراسة تاريخية لنشأة الأسرة الثالثة، الاسكندرية ١٩٨١.
- سليـمان، توفيق، دراسـات في حضارات غـرب آسية القـديمـة من أقـدم العصور إلى عام ١١٩٠ق.م، دمشق ١٩٨٥.

- شارف، ألكسندر، تاريخ مصر، القاهرة.
- صالح، عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، القاهرة ١٩٩٠.
- عبد المنعم، عبد القادر خليل، علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة، القاهرة ١٩٨١.
- عصفور، محمد أبو المحاسن، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم منذ أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر، بيروت ١٩٨١.
- فخري، أحمد، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١.
- فيركوتيه، جان، قدماء المصريين والإغريق. ترجمة محمد علي كمال الدين والدكتور كمال دسوقي، القاهرة ١٩٦٠.
- محيسن، سلطان، عصور ما قبل التاريخ، دمشق ١٩٨٧ - ١٩٨٩.
- مهران، محمد بيومي، مصر (في: مصر والشرق الأدنى القديم ١) ط٤، القاهرة، ١٩٨٨.
- هبو، أحمد أرحيم، الأبجدية، نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب، اللاذقية ١٩٨٤.

  - تاريخ الشرق القديم١، سورية، صنعاء - بيروت ١٩٩٣.
- ولسون، جون، الحضارة المصرية، ترجمة د. أحمد فخري، القاهرة ١٩٥١.
- يويوت، جان، مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران، القاهرة ١٩٨٨.

ب - باللغات الأجنبية:

-- Baumgartel, E. J., Predynastic Egypt, In: CAH, vol. I, Part I (1970).

  - The Cultures of Prehistoric Egypt I, Oxford 1955.

-- Blackman, A.M., Middle Egyptian Stories, 1932.

-- Breasted, Ancient Records of Egypt, Chicago, 1905.

  - The Battle of Kadesh, 1903.
  - Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, London, 1912.

-- Cerny, J., Ancient Egyptian Religion, London 1962.
-- Edgerton, W. F. and Wilson, J.A., Historical Records of Ramses III, Chicago 1936.
- On the Chronology of the early 18 Dynasty (AJSLL 53, 1937).
-- Emery, W.B., Hor Aha, Cairo 1939.
-- Erman, A., The Literature of the Ancient Egyptians, London 1927.
- Die Literatur der Äegypter, Leipzig 1923.
-- Faulkner, R., The Pyramid Texts, London 1970.
-- Fischerweltgeschichte, Die Altorientalischen Reiche, Bde. 2 - 3, Frankfurt 1965f.
-- Frankfurt, H., Egypt and Syria in the First Intermediat Period, in: JEA, XII, 1926, London.
-- Gardiner, A.H., Egypt of the Pharaohs, Oxford 1964.
- and Peet, and Cerny, The Inscriptions of Sinai, I - II, London 1952, 1954.
- The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, 1960.
-- Hayes, W.C., the Middle Kingdom in Egypt. In: CAH, I, part II, 1971.
- The Hyksos Infiltrations and the Founding of the 15 Dynasty, in: CAH, II, Part I, 1973.
-- Helck, W., Die Beziehungen Aegyptens Zu Vorderasien im 3. und 2. Jahrtausend v. Chr. Wiesbaden 1971.
-- Hurry, J.B., Imhotep, The Vizier and Physician of King Zoser, Oxford 1928.
-- Kantor, H., The Chronology of Egypt and Its Correlation with that of Other Parts of the Near East. In: Chronology in Old World Archaeology, Chicago 1965. Ed. R.W. Ehrich.
-- Kees, H., Ancient Egypt, London 1961.
-- Kitchen, K.A., The Third Intermediat Period in Egypt, Oxford 1973.
-- Knudtzon, J.A., Die el - Amarna Tafeln, Leipzig 1907 - 1915.
-- Naville, E., The Temple of Deir El Bahari, II, 1896.

-- Nelson, H., The Battle of Megiddo, Chicago 1913.
-- Redford, D. B., History and Chronology of the 18. Dynasty of Egypt 1967.
-- Saeve Soderbergh, Ägypten und Nubien 1941.
  - The Navy of the 18th Egyptian Dynasty. Upsala 1946.
-- Sethe, K., Die «Ächtung feindlicher Fürsten 1926.
  - und Helk, W., Urkunden der 18. Dynastie, Leipzig 1907.
  - Urkunden des Mittleren Reiches.
  - Von Zahlen und Zahlworten Bei den Ägyptern 1916.
-- Smith, W.S., The Old Kingdom in Egypt and the Beginning of the First Intermediat Period, in: CAH, I, Past II, 1971.
-- Stock, Studien Zur Geschichte und Archäologie der 13. bis 17. Dynastie Ägyptens 1941.
-- Vercoutter, J., In the Near East, The Early Civilizations, London 1967.
-- Weill, R., Recherches sur la Ier Dynastie et les temps de prepharaoniques, Le Cairo 1967.
-- Wilhelm, G., Grundzüge der Geschichte und Kultur de Hurriter. Darmstadt 1982.
-- Wilson, J.A., The Cultur of Ancient Egypt, Chicago 1963.

قائمة الاختصارات

AJSL = American Journal of Semitic Languages and Literatures.

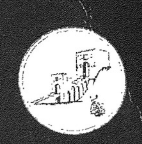
ANET = Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament.

ARE = Ancient Records of Egypt.
ASAE =Annales du Service des Antiquités de l'Egypte.

CAH = Cambridge Ancient History.
FW = Fischerweltgeschichte.
JEA = Journal of Egyptian Archaeology.
JNES = Journal of Near Eastern Studies.
JSS = Journal of Semitic Studies.
UR = Urkunden.

Aleppo University Publications

Faculty of Arts & Humanities



The History of the Nile Valley

(From Prehistoric Ages to 332 BC.)

By

Dr. Ahmad Irhayyem HEBBO

Prof. Dr. In Faculty of Humanities

Academic Year

2002-2003

مطبعة جامع

سعر البيع للطالب
٢٠٠ ل.س